

محمود عوض



مصرى.. بليون دولار!

أول تحليل لحياة المصريين المهاجرين في كندا وأمريكا

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

محمود عوض

مصرى.. بليون دولار!

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مكتبة الأنجلو المصرية

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

مقدمة

لو قدر لي ان اكتب هذا الكتاب منذ مائة وخمسين سنة فقط
لكان يجب ان يكون عنوانه : « الدفع المتين في شرح احوال المساكين ،
من المصريين ، الذين يعيشون في بلاد الافرنج والامريكيين » ، تضحك؟
ابدا . فمنذ مائة وخمسين سنة فقط كان اي شخص يعصى الدهر
ويركب البر والبحر يعتبر مهاجرا . منفيا وليس مهاجرا ، انه
- حتى - لم يكن يعتبر مسافرا ، ولا مقربا . كان يعتبر ..
مهاجرا .

منذ مائة وخمسين سنة كان المصري اذا ترك بيت أسرته ليسكن
في الشوارع المجاور يعتبر .. مقربا .. اذا ترك القرية وسافر
الى القاهرة فهو .. مهاجر .. اذا ترك القاهرة وسافر الى لندن
او مرسيليا فهو مفقود . ضائع . مسافر الى بلاد الفرنجة . انه
مسكين انسان يستحق الرثاء . الشفقة . الرحمة . العزاء انه
جائر في بلاد العمالقة . انسان في دنيا من الاشباح والنفاريت .
هل تريد مثلا ؟ حسنا .

منذ مائة وخمسين سنة سافر رفاعة الطهطاوى - مصرى - الى
باريس . انه يسجل في كتابه « تخليص الابريز في تلخيص
باريز » انطباعاته عن حياة الفرنسيين انه يقول : معلوم ان
الفرنساوية يتكلمون بالفرنسية . طبعا . ولكنه بعد ذلك منبر
لانهم يستخدمون عربات لرش الشوارع باليابا . منبر لانهم
يجلسون على كراسى ولا يجلسون على الارض . منبر لانهم يحبون
النظافة ، مع انهم ليس عندهم « .. ذرة من الايمان » منبر لانهم
لا ياكلون بايديهم ، وانما يستخدمون شوكة وسكينا . منبر لانهم
ينامون على « .. شئ مرتفع يسمى سرير » . منبر لان المقاهى
عندهم « .. ليست مجتمعا للتحالفين ، بل هي مجتمع لارباب

الحشمة » • منبر لان لديهم » • • تذاكر يومية مسماة جرنالات
جمع جرنال • • ماذون فيها لسائر اهل فرنسا ان تقول ماخطر
لها » • •

ماذا حدث بعد مائة وخمسين سنة ؟ ماذا الآن ؟
ان الصورة تغيرت تماما • تغيرت جدا •
منذ عدة سنوات سافرت الى نيويورك - أمريكا - ومونتريال -
كندا • وفي كل مرة كنت اسمع في المدينتين هذه الكلمات : بونجور
• • جوتين تاج • • جود مورننج • • بونجورنو • • بوينوس ديلس
• • هالو • • جودا • • أوهايو • •

كلمات كثيرة بالفرنسية والالمانية والانجليزية والاطالية
والاسبانية والهولندية والدانمركية واليابانية

كلمات كثيرة - ولكنها كلها تعنى كلمة واحدة عربية صباح
الخير •

الآن تستطيع أن تسمع « صباح الخير » هذه - بلغتها العربية
هذه • • في تلك البلاد • • الآن سوف ترى مصريين هناك ،
مهاجرين هناك ، ناجحين هناك ، قلما بقلم • • مع كل الجنسيات
التي سبقتهم بالهجرة الى تلك البلاد •

اننى كنت ألتقى بهم يوميا - على امتداد الاشهر الاربعة التي
قضيتها في كندا وأمريكا • كنت أراهم في العمل • • في البيت
في خارج البيت • • وحدهم أو مع زوجاتهم • • وفي كل مرة كنت
ألتقى بهم كان السؤال الذى يثور فى ذهنى دائما :

هل هؤلاء المصريون يختلفون كثيرا فى انطباعاتهم عن رفاعة
رافع الطهطاوى ، الذى سافر كمبعوث وليس مهاجرا - منذ ١٥٠
سنة ؟

أقول الحق • •

انهم يختلفون • • ولا يختلفون •

ان الفارق مازال هناك • ولكن الانبهار بتلك الدنيا الاخرى
خارج الحدود أصبح مجرد دهشة • شعور بالدهشة • • ربما
يحس به المصرى لمدة خمس دقائق • بالكثير خمسة ايام • ليس
هذا هو المهم • ان المهم هو ان المصرى يدخل تلك المجتمعات

الفريضة عليه كرجل يستطيع ان يتعامل معها . انه ليس طفلا .
انه لا يحبو . انه لا ينبهر . انه - للحقيقة - قد ينهزم مرة ،
ومرتين .. سوف نعرف لماذا .. ولكنه في النهاية ينجح . انه
انسان متحضر ، مثقف . كل ما يريد هو الفرصة المتساوية للبدء
في السباق بغير سلاسل . الباقي عليه . الباقي مسئوليته .
اعطه الفرصة ، وسوف يبهرك هو . سوف يدهشك هو بما
يستطيع ان يفعله .

انك ربما تقرأ في هذا الكتاب عن مصريين سافروا - هاجروا -
بلا شيء في جيوبهم . لاشيء يذكر . لا شيء حتى في عقولهم ..
سوى مجرد حلم . أمنية . أمل . تجربة . مسألة لو حسبتها
بالقلم والمسطرة فسوف تحكم عليهم مقدما بالفشل . ولكنهم لم
يفشلوا . لقد نجحوا . وعندما نجحوا كان نجاحهم أكثر مما توقعوه
هم - حتى هم - لانفسهم .

وربما تقرأ في هذا الكتاب عن فتيات مصريات - ربما امرأتين
او ثلاث - هاجرن بغير رجل يشق لهن الطريق .. ولاكتف يدرفن
فوقها الدموع .. ثم نجحن .

وربما تقرأ في هذا الكتاب عن أستاذ جامعة مصرى ظل يدرس
٢٩ سنة لكي يحصل على الدكتوراه وعندما حصل عليها كانت كل
الوظيفة التي حصل عليها هي .. صبي يقال .. انه لم يشعر
بالبؤس ، بالشقاء ، بالمرارة بالهزيمة . لقد شعر بكل الرضا في
العالم . لهذا تحققت له بعد ذلك - بعد ذلك فقط - كل الاحلام
التي يريدونها

أكثر من ذلك .. ربما تقرأ في هذا الكتاب عن معلم ابن بلد .
رجل بجلباب وطاقية وصديري وقبقاب . آسف ، لم يكن في
قبعيه قبقاب . لم يكن لديه دولار واحد يشتري منه قبقابا .
ثم هاجر هذا الرجل .. ربما لم يكن يقصد ذلك . ربما لم يكن
يعرف . ربما لم يكن يتخيل . ولكنه هاجر على أي حال . هاجر
بغير كلمة واحدة يعرفها من اللغة العربية الفصحى - فما بالك
باللغة الانجليزية .. ثم .. نجح هذا الرجل في ان يصبح ..
نصف مليونير .

و .. و .. عشرات من القصص ومئات من النماذج التي
لم تتخيل انت - مثلما لم أتخيل انا - انها يمكن ان تحقق هذا النجاح

في بلاد تقع في النصف الآخر من الدنيا . انهم حقائق . ليسوا مجرد اشاعات .

ولكن .. قبل ان تتعرف على هذه النماذج - وبعد ان تتعرف على بعضها - ربما تتعرف على اشياء اخرى اكثر غراية في هذا الكتاب .

ربما تقرا مثلا عن مجتمعات لها قيم مختلفة، ومقاييس مختلفة، في النظر الى الامور . هنا أرجو أن انبهك الى نقطة هامة . هذه هي : اذا قرأت في هذا الكتاب عن ناس يعبدون الله كل يوم احد، ويعبدون النفود كل دقيقة .. اذا سمعت في هذا الكتاب عن امرأة تمارس الحب مع رجل وزوجته في سرير واحد .. اذا قرأت عن فتاة تريد أن ترفض معك قبل أن تاكل معها .. فارجوك .. لا تصدر احكاما اخلاقية ضدهم . لا تستنكر . لا تستغفر الله وتضرب كفا بكف متحسرا على الاخلاق التي ضاعت والانحلال الذي تفشى . أرجوك لا تتحسر . منذ ألف سنة ونحن نتحسر . لقد أردت بهؤلاء الناس - وبأشياء اخرى في الكتاب - ان اقدم لك اطارا عاما لافكار المجتمعات التي يعيش فيها المصريون المهاجرون . انه اطار عام .. نظارة طبية .. ميكروسكوب .. يكمل لك فجوة في الحديث عن المصريين المهاجرين بأمريكا وكندا . انهم نجحوا - بل نجحوا جدا - بنساء على تلك الشروط التي وضعت قبل وصولهم . بناء على تلك الافكار التي استقرت قبل هجرتهم . هذا معناه ان مهمتهم كانت صعبة . وهذا معناه ان جهدهم كان مضاعفا . واذا كان كل واحد منهم قد صنع لنفسه ألف دولار .. عشرة الاف .. مائة ألف دولار .. فان نجاحهم في حد ذاته - مجرد نجاحهم - هو الشيء الذي يستحق مليون دولار .

عزيزى القارئ ..

اقدم لك في هذا الكتاب مصريين مهاجرين . مصريين بمليون دولار .. بعشرين مليون دولار .. بخمسين مليون دولار .. باكثر من خمسين . اننى ساتركك معهم خمس دقائق في الفصل الاول .. ثم نلتقى من جديد في الفصل الثانى . دعنا نسرع اليهم انن . تحياتى ..

محمود عوض

بدأت حياتي في سن الخمسين !

ثلاث حكايات يرويها المهاجرون



* الحكاية الاولى :

●● « اسمى مصطفى .. »

ليس من المفيد أن أقول لك أن اسمى كاملا هو : مصطفى عزام ،
لأن هذا لن يجعلك تعرفني أكثر . في الواقع لا أحد يعرفني في مصر
الآن إلا حفنة أصدقاء ربما يكونون ما زالوا في الاسكندرية . حيث
عملت فترة ، أو زملاء الطفولة بالمنصورة .. التي ولدت بها . أن
المنصورة هي مدينة الطفولة والجمال والكورنيش والحوار والنيل
.. أن كل ميدان في المنصورة ، كل شارع ، كل حارة . تقفز الى
عقلي الآن فورا بمجرد أن ذكرت لك اسم « المنصورة » . انها
مدينة لا يمكن أن ينساها أحد .. الست معي في ذلك ؟ !

اننى احب المنصورة ، أعشقها ، ولكن الحياة تقذف بالانسان دائما الى حيث لايتوقع . هذا - على الاقل - ماحدث معى عندما اضطررت .. بحكم الدراسة .. ان التحق بكلية التجارة فى جامعة الاسكندرية . انت تطلب منى الدقة ؟ حسنا .

كنت طالبا شعبة المحاسبة بتجارة الاسكندرية ، الى أن تخرجت فيها فى سنة ١٩٦٣ ، حاملا البكالوريوس فى يدى اليسرى .. ولا شىء تماما فى يدى اليمنى . لاشىء سوى بعض قصاصات الصحف التى تتضمن اعلانات الوظائف الخالية بالشركات والمؤسسات العامة . لانهم اسماء الشركات ، فكل الوظائف مضمونها واحد بالنسبة لخريج الجامعة . انت تعرف العشرين جنيها . حسنا . عندما عينت فى بنك الاستيراد والتصدير المصرى كنت احصل على هذه العشرين جنيها كل شهر . لم تكن عشرين بالضبط ، ولكنها كانت ١٧ جنيها و ٤٢ قرشا و ١٤ مليما .

كيف ارفع هذا المرتب ؟

هذا اول سؤال فكرت فيه . أنت تعرف أن شابا فى هذه الايام لا يستطيع الحياة بسبعة عشر جنيها . ولكنك لا تعرف اننى كنت طموحا جدا . كنت أريد أن تصبح السبعة عشر جنيها عشرين ، خمسين ، مائة ! ولماذا لا .. ؟ ان الاحلام هى الشىء الوحيد الذى لا يخضع للوائح الشركات والبنوك ..

وبدأت أبحث عن حل . فكرت فى أن ادرس الماجستير . ولكن اللوائح تقول انه لا بد من الانتظار سنة بعد التخرج لكى يتم تسجيلى فى دراسات الماجستير . ثم هناك بعد ذلك ماهو اهم : كم جنيها سيضيفها الماجستير الى مرتبى ؟ جنيهان ؟ ثلاثة ؟ بالكثير ثلاثة .

اذن .. ماهو الحل ؟

هناك حاول كثيرة . ولكن حلا واحدا منها سيطر على افكرى : الهجرة . ولماذا لا ؟ ألم أقل لك من قبل اننى تعودت أن أحلم كثيرا ؟ ان الهجرة كانت بالنسبة لى حلما . أكثر من حلم . كانت مغامرة وقررت أن أقوم بهذه المغامرة : اذا نجحت فهو خير .. اذا لم تنجح فالعودة ممكنة الى السبعة عشر جنيها .

عند هذه النقطة بدأت افكر : الهجرة .. الى أين ؟ الى استراليا انها بلاد بعيدة جدا ؟ ولا نعرف عنها شىئا كثيرا . الى امريكا ؟ اننا نعرف عنها الكثير ليس مشجعا . الى كندا ؟ ممكن أن كندا هى أوربا زائد امريكا . ثم .. سافرت الى كندا !

عندما وصلت الى مطار مونتريال كان اليوم هو يوم خميس .
بالضبط كان يوم ٣٠ ابريل سنة ١٩٦٤ .

اذن .. هذه هي كندا ؟ ! لا . ليست هذه هي كندا بعد .
اتنى ما زلت فى مطار مونتريال بكندا . من المطار لا تستطيع ان ترى
كندا بعد . تستطيع ان ترى فقط اجراءات الجوازات والهجرة
ان الطائرة التى حملتنى كانت تحمل معى مهاجرين آخرين قادمين
من بلاد عديدة الى كندا . وبعد ان فحصوا أوراق كل واحد من
هؤلاء .. حدثت معى اول مفاجأة .. لقد قالوا لى ان الشهادة
الطبية التى احملها لا تصلح ، وانه لابد من اجراء كشف طبي جديد
على قبل ان يسمح لى بالدخول . موافق . بعد هذا الاجراء
اصبحت احمل تأشيرة الدخول الى كندا كمهاجر .

ولكننى فى الواقع بقيت فى المطار أنتظر اول طائرة تنجبه الى مدينة
تورنتو . السبب ؟ ان مندوب الهجرة فى سفارة كندا بالقاهرة كان
قد سألنى قبل سفرى عن المدينة التى اود الاستقرار بها عند
هجرتى الى كندا . وقتها ذكرت له اربع مدن : كوبيك سیتی ،
مونتريال ، أوتاوا ، وتورنتو . لقد حددت تلك المدن على اعتبار
انها تتمشى مع اللغتين اللتين أجيدهما : الفرنسية والانجليزية .
ساعتها قال لى مندوب الهجرة انه ينصحنى بالاتجاه اولا الى مدينة
تورنتو ، لان اقتصادها فى حالة انتعاش واستقرار . حسنا . انا
الان اتجه بالطائرة الى تورنتو .

هل تعلم كم كان معى عندما وصلت الى مطار تورنتو فى تلك
الليلة ؟

كان معى عشرة دولارات . اى والله . عشرة دولارات فقط ،
كانت هى كل ثروتى التى هبطت بها فى تورنتو . لقد خرجت من
مطار القاهرة ومعى اربعون دولارا فقط . الآن سمعت ان المهاجر
يحصل على اضعاف هذا المبلغ عند خروجه . المهم ، انه حتى تلك
الدولارات الاربعين ، لم تستمر فى جيبى حتى كندا . لقد انفقت
منها ثلاثين دولارا فى المطارات الاوربية التى هبطت فيها الطائرة
قبل وصولى الى كندا .

والان .. انا امام اول مشكلة . هذه هي كندا : بلاد لا اعرف
فيه شيئا ولا احدا . هذا هو جيبى : لا يحتضن من النقود سوى
الدولارات العشرة . لا يحتضن حتى عقد عمل ، او وعدا بعمل .
لهذا كان جيبى هو اول جزء فى ملابسى يحس ببرد كندا . ان عشرة

دولارات لا تكفى ابدا لخلق الاحساس بالدفع ، او الراحة ، او
الطمأنينة !

ولكن .. لم اقل لك من البداية انها كانت بالنسبة لى مغامرة ؟
انى اراك الان تعترض اراك تتحفظ على كلمة « مغامرة » هذه .
تقول ان هناك فرقا كبيرا بين المغامرة والمجازفة . وان ما قمت به
انا هو اقرب الى المجازفة منه الى المغامرة . موافق . ولكننى فى
الواقع لم اجازف . بينى وبينك انا كنت معدا نفسيا لتقبل كل
شئ . اسوأ شئ . لقد سافرت على اساس انى ساعطى لنفسى
مهلة سنة . فى هذه السنة اتفقت مع نفسى على ان اقبل اى شئ ،
وارضى بأية ظروف . لم يكن عندى مانع من ان اكنس ، اغسل
اطباق ، اعمل سائقا ، اعمل حملا ، فراشا ، ماسح احذية .. اى
شئ . لم يكن لدى أية توقعات .

لقد قررت مع نفسى ان اتوقع اسوأ الطول الممكنة ، اسوأ
الظروف الممكنة . اننى - حتى - لم احمل معى تذكرة عودة من
كندا ، لكى ارغم نفسى على اختبار قدرتى على التحمل والمعاناة
لمدة سنة . كل شئ - بعد الجوع - كنت مستعدا لتقبله . بل حتى
الجوع كنت مستعدا لمواجهة . اننى اعرف ان هذا هو الشرط
المهم عندما ينتقل الانسان الى حياة جديدة وظروف جديدة . لم
اكن اتوقع مساعدة من احد ، ولا حتى مجسرد نصيحة . لم اكن
اتوقع ان احكى همومى لاحد .. انا وحدى .. ضد ظروف لا اعلم
عنها شيئا بعد . كل ما اعلمه الان شيئا واحدا : اننى مازلت فى مطار
تورنتو . مازال فى جيبى عشرة دولارات . ما زال على ان ابحث عن
طريقة للتصرف . هذه هى : ذهبت الى ضابط الهجرة فى المطار
وسألته - ماهى المساعدات الممكنة التى يستطيع تقديمها لمهاجر
جديد مثلى مهاجر يعرف قليلا ويملك اقل ؟

وقال لى ضابط الهجرة : اطمئن . خذ هذه التذكرة . اتجه بها
الى فندق « فورد » فى المدينة ، وسوف يحسبون لك الليلة الواحدة
بدولارين فقط ، الى ان تتوجه فى الصباح الى ادارة الهجرة فى
تورنتو .

- جميل .. ولكن .. كيف اذهب من المطار الى « فندق فورد » ؟

رد الضابط : بالتاكسى ..

- كم يتكلف التاكسى .. تقريبا ؟

- ثمانية دولارات ..

– ثمانية دولارات؟! ان كل ما املكه في جيبى هو عشرة دولارات •
معنى ذلك أنه بعد دفع أجرة التاكسى لن يبقى معى سوى أجر البيت
ليلة واحدة ؟٠٠

هنا لم يستطع الضابط ان يرد . كانت دهشته اكبر من أى
كلمات يمكن ان تخرج من فمه . لقد اعتاد هذا الضابط على استقبال
مئات المهاجرين كل يوم • واعتاد على أن يرى عشرات من هؤلاء المئات
فى حالة يرثى لها . ولكنه لم ير أبدا – هكذا بدا عليه – مهاجرا
قادما بمجرد عشرة دولارات فى جيبه • هذه حالة تستحق الرثاء
تستحق العزاء • تستحق القتل • عشرة دولارات • • ؟ عشرة • • •
دولارات ؟ عشر • • ؟

ان الضابط لم يملك لحظات عديدة تالية – سوى أن يعبر عن
دهشة ، لم يبد من علاماتها شيء كثير على وجهه – مجاملة لمشاعرى –
ولكننى بالتأكيد كنت أحسها ، كنت أتوقعها ، انه لم يملك – بعد
لحظات أخرى سوى أن يقول لى : انتظر •

ودخل الضابط الى المكتب ليتشاور مع رئيسه فى هذه المشكلة
الفريدة • لحظات قليلة أخرى ، ثم عاد الى بتذاكر جديدة بدلا من
التذاكر الاولى •

قال لى الضابط : اعطه التذاكر الاولى من فضلك • أنها لا تصلح
فى مثل حالتك • خذ هذه التذاكر الجديدة بدلا منها • توجه الى نفس
الفندق • بهذه التذاكر تستطيع أن تبتي وتاكل فى الفندق مجانا •
الوجبة التى لا تتناولها فى الفندق تستطيع أن تحصل من الفندق على
ثمانى – دولار ونصف • أما أجر التاكسى فلا أستطيع التصرف لك
فيه • لابد أن تدفعه أنت •

ولم أكن محتاجا الى هذه الجملة الاخيرة من الضابط • طبعا
سأدفع أنا أجر التاكسى • لقد قدم لى الضابط أقصى مساعدة ممكنة
بروح من الفهم والتقدير • • لم أكن أتوقعها منه ، فبعد كل شيء •
هذه مشكلتى أنا • • وليست مشكلته هو •

× × ×

المهم • • وصلت الى الفندق ، فبعد أن نقصت الدولارات فى جيبى
من عشرة الى مجرد دولارين • مشكلة لابد أن أواجهها ابتداء من
الصباح التالى •

فى الصباح كنت أول من توجه الى مكتب الهجرة فى تورنتو •
طبعا كنت هناك من الفجر • تريد منى التفصيل هنا ؟ حسنا • مكتب

الهجرة هذا هو مكتب ضخيم ، يختص بكل ما يتعلق بالهجرة والمهاجرين . . ان به قسما خاصا بتشغيل المهاجرين الجدد . عندما تتوجه الى الى هذا القسم يحددون لك رقما . وموظفا لتسجيل بياناتك . يسمى ضبط الاستخدام . انه يفتح لك ملفا خاصا بك . من الان فصاعدا ، سوف تسجل فى هذا الملف كل بياناتك أولا بأول ، المؤهلات ، الخبرة ، السن (كانت سنى يومها اقل من ٢٤ سنة) ، البلد الاصلى ، الحالة الاجتماعية ، تاريخ الوصول ، نوع العمل المرغوب فيه . . وهكذا . . بعد ذلك يحاول رشادك الى كيفية الحصول على مسكن . فى نفس الوقت يعطيك مساعدة مالية حسب تقديره لحالتك المبدئية . فى حالتى انا اعطانى عشرين دولارا . ثم - الخطوة الهامة - هى البحث عن عمل . عند هذا الحد أمسك الضابط باحدى يديه مجموعة من اعلانات الوظائف الخالية بالصحف ، وباليدي الاخرى دليل التليفونات انه يتصل تليفونيا بكل شركة يمكن ان تناسبها مؤهلاتى وخبرتى وسننى ، فى النهاية اعطانى عنوان شركة تريد محاسب تكاليف ، وقال لى : توجه الى هذه الشركة . انهم سيجرون لك اختبارا شفويا لقياس مدى صلاحيتك للوظيفة التى يبحثون عن موظف لها . اذا لم توفق . . فعد الينا مرة اخرى . وبسرعة البرق . توجهت الى تلك الشركة . وبعد أن أجريت الاختبار قالوا لى سنرسل اليك الرد على عنوانك بالفندق . ولم أقتنع . . فى الواقع لم اكن اريد أن أنتظر . . لاوقت للانتظار ليس لدى يوم واحد اضيعه . ليست لدى ساعة ، دقيقة ، ثانية . . يمكن أن اضيعها فى غير المهمة الاولى العاجلة جدا : البحث عن عمل . .

لقد نزلت من الشركة واشتريت جريدة لأبحث فيها بنفسى عن اعلانات الوظائف الخالية بالشركات . وحتى من غير هذه الاعلانات بدأت أقرأ اللافتات فى الشوارع ، وأدخل الى مراكز الشركات . مركزا مركزا وشركة شركة . . لكى أبحث عن عمل . . لم أوفق . الان بدأت أراجع نفسى : انى انفقت آخر دولارين معى على المواصلات والصحف . لم يبق معى غير العشرين دولارا التى تسلمتها فى الصباح من ضابط الهجرة . ان كل شركة أتوجه اليها . . تسألنى عن عنوانى لكى يرسلوا الى عندما يحتاجوننى . اذن الخطوة الاولى بعد توفير الطعام - هى : البحث عن مسكن أستقر فيه .

ومن الفندق بدأت أسأل عن أرخص مسكن ممكن . وقبل أن يقترب النهار من نهايته عثرت عليه : حجرة صغيرة جدا ، صاحبته سيدة

عجوز من أصل مجرى • كم تريدن ياسيدتى ايجارا لهذه الحجرة ؟
- ١٥ دولارا فى الاسبوع •

- لا • لا • لا • هذا سعر مرتفع للغاية • تكفى عشرة دولارات •
ودت السيدة العجوز: اسمع •• اننى لم أعود هذه المساومة أبدا •
ومع ذلك ، تفضل •• الحجرة لك ، بعشرة دولارات !

وعلى الفور نقلت حقائبى الى الحجرة الجديدة بعد ان اعطيت للسيدة
عشرة دولارات • الآن لم يعد معى سوى عشرة دولارات أخرى • ان
هذه الدولارات لن تنام معى • قرارا اتخذته حتى لا أنعرض للجوع فى
الايام القليلة التالية • هذا ما اشتريته بها بالضبط •• عشر تذاكر
للمواصلات •• ستة بيض ، زجاجة لبن كبيرة ، خمسة أرغفة من
الخبز ، ثم •• لم يعد معى ولا مليم ، أقصد •• ولا سنت واحد !
لكن •• بعد أن توفر المسكن والطعام •• يستطيع الانسان أن ينام
مستريح البال حتى الصباح •

× × ×

فى الصباح عدت الى ادارة الهجرة • من هناك أرسلونى الى شركة
أخرى • شركة اسمها « ديهافيلاند » لصناعة الطائرات • وعندما
وصلت قالوا لى : عد الينا غدا •• لاجراء الاختبار •

مرة أخرى ، لم أقتنع • لقد خرجت من هذه الشركة لأواصل
البحث عن عمل فى شركة أخرى • كل شركة ، أى شركة ، أى عمل
•• لا يهم •• محاسبة ، احصاء ، ادارة أعمال ، غسل أطباق ••
لا يهم ••

هل تعلم كم شركة ذهبت اليها فى أول ٣٦ ساعة فى تورنتو ؟
٣٨ شركة • هل تعلم السؤال المشترك الذى كنت أسمعه فى كل
شركة •• هذا هو : هل عندك خبرة كندية ؟

- ماذا تقصد بـ « خبرة كندية » ؟

- تقصد ••• هل لديك خبرة سابقة فى العمل بكندا ؟

- لا •• طبعاً !

- اذن سوف نرد عليك بالبريد !

سؤال واحد كنت أسمعه ، اجابة واحدة كنت اقولها ، ونتيجة
واحدة كنت أخرج بها • فى كل حديث أجرите داخل قسم الاستخدام
بأى شركة • وحتى نهاية اليوم الثانى لى فى تورنتو - لم تكن هناك
أية بشائر بأنى سوف أحصل على عمل خلال فترة قريبة • كلهم
يصرون على حكاية « الخبرة الكندية » هذه ! ، وأنا لا أملكها بعد •

ال « خبرة الكندية » . اذن سوف « نرد عليك بالبريد » . أى :
لا عمل ! . لا وظيفة . لا طعام بعد يومين . لا مسكن بعد خمسة
أيام . لا حياة بعد أسبوع !

وفكرت . . لماذا لا أترك الشركات الكبيرة - وأبحث عن عمل فى
أى مكان آخر لماذا لا أقوم مثلا بغسل الأطباق أو الخدمة فى أى
مطعم أو بار صغير . ألم أتفق مع نفسى من البداية على أن أكون
مستعدا لأسوأ ظروف ؟ هذه أسوأ ظروف غسل أطباق أو مسح
أحذية . . لا يهم . . المهم الآن هو الحصول على مورد للحياة بسرعة .

ودخلت الى مطعم . انه مطعم صغير ، قرأت اعلانا فى واجهته من
الخارج ، اعلانا عن حاجته الى شخص يخدم ليلا ويغسل الأطباق
مقابل أربعين دولارا فى الأسبوع . أجر حقير جدا ، ولكنه فى
النهاية أحسن من لاشئ ، أحسن من العدم . أنا الآن فى حالة «عدم» !
ودخلت الى المطعم أعرض القيام بهذه الوظيفة . وظيفة غسل
الأطباق ، ولكننى فوجئت بنفس السؤال من جديد :

- هل عندك خبرة كندية ؟

- ياناس ! حتى غسل الأطباق يحتاج الى « خبرة كندية » :
نعم . هذا ما حدث . لقد كنت أتصور أن تواجهنى أية مشكلة ،
الا هذه المشكلة . ما هو الحل لهذه المشكلة . . ما هو الحل ؟ . .
هكذا نمت ليلتى الثانية وأنا أحس بسد عال يواجهنى اسمه
« الخبرة الكندية » ! عفريت طاردنى حتى فى أحلامى تلك الليلة !
وفى كل مرة - داخل الحلم - كان العفريت يبدو لى بملابس مختلفة ،
بأشكال مختلفة ، بأحجام مختلفة ، ولكنه هو هو فى كل مرة . .
وكلماته هى هى فى كل حلم : أنا الخبرة الكندية !

فى اليوم التالى ذهبت الى الموعد المقرر فى شركة « ديهافيلاند » ،
للمطائرات لاجراء اختبار القبول لوظيفة محاسب تكاليف فى قسم
صناعة الطائرات « دى س - ٩ » ،

وبعد أن ناقشنى المدير المختص فى مؤهلاتى وخبرتى قال لى :
- اننا سوف نرسل اليك الرد بالبريد . ولكننى أقولها لك من
الان بصراحة . . نحن لن نقبلك بسبب عدم توافر شرط أساسى فيك
وهو « الخبرة الكندية »

ها هو العفريت ، الشبح ، يعود ثانية الى مطاردتى . ولكننى
تمالكت نفسى وأنا أقول للرجل - بهدوء ولكن بفيظ مكتوم :
- سيدى ، اننى أحترم رأيك طبعاً ، ولكننى أطلب نصيحتك فى

هذه المشكلة : اننى لا أستطيع العمل فى كندا الا اذا كانت لى « خبرة كندية » . ولكن . . من ناحية اخرى . . كيف احصل على خبرة كندية . . دون ان اعمل فى كندا ؟ ثم . . نقطة اخرى لو سمحت - هل كانت أمامى طريقة للحصول على هذه الخبرة الكندية فى مصر . . قبل ان احضر الى كندا ؟

عند هذه النقطة بدأ الرجل يشعر بالحرج ، فالمشكلة تبدو فعلا بلا حل . البيضة من الفرخة أم الفرخة من البيضة . ولكننى استأنفت حديثى الهادى مع المدير الرقيق .

قلت : ما دمت ترى فعلا أنها مشكلة ، وأنه لا ذنب لى فى هذه المشكلة ، فانى اتقدم لك برجاء واحد : لماذا لا تعطينى فرصة متساوية مع الذين لديهم خبرة كندية فاذا أثبت فى الاختبار اننى فى مستواهم أو أحسن منهم ، حصلت على العمل . واذا ثبت أن افتقادی للخبرة الكندية يقلل من كفاءتى ، حصل على العمل من هو أكفا منى . انها تجربة . . أرجو باخلاص أن تحاولها . ولم يملك الرجل سوى أن يقول : معك الحق .

وعلى هذا الاساس سمح لى المدير بدخول امتحان المسابقة مع باقى المتقدمين لشغل هذه الوظيفة . كان عددهم ثمانية ، وأنا تاسعهم . هل تعلم ماذا كانت النتيجة . . اننى لم أكن التاسع ، ولا الثامن ، ولا حتى الخامس . لقد أصبحت أنا . . الاول . . نعم الاول على الثمانية ، كلهم لديهم « الخبرة الكندية » !

وبعد يرمين استدعانى المدير ليقول لى مبروك ! الوظيفة لك ! ان أى كلمات أقولها لك الآن لن تستطيع أن تشرح لك مشاعرى فى تلك الدقيقة . تلك اللحظة . اننى ما زلت أذكر الساعة ، الدقيقة التى قال لى فيها المدير تلك الكلمات الثلاث . ولا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم . كان يوم ثلاثاء . لو كنت فى مكاني ، لو كان نفس ذلك الشبح - شبح الخبرة الكندية - قد واجهك مثلى ، فهل كنت تنسى ذلك اليوم ؟ انه بالنسبة لى هو اليوم الذى توقف فيه الشبح عن ملاحقتى ومطاردتى حتى فى أحلامي . انه أهم عندي من اليوم الذى استلمت فيه العمل فعلا . . يوم ١١ مايو سنة ١٩٦٤ ، اليوم الذى بدأت فيه العمل بكندا لأول مرة ، فى وظيفة محاسب تكاليف: المرتب ٨٥ دولارا فى الاسبوع . هل تعلم ماذا حدث بعد ذلك .

فى خلال سنة ونصف ارتفع مرتبى بهذه الشركة الى ١٠٥ دولارات اسبوعيا ، بالإضافة الى أجرى عن العمل الاضافى بالشركة ثلاث ليل

أسبوعيا ، مما جعل المرتب يصبح ١٢٠ دولارا ، أى ٤٨٠ دولارا فى الشهر .

ولم يكن هذا هو كل ما أتمناه بعد . ولكنه كان يكفى لوجود درجة من الاستقرار فى حياتى ، فأرسلت الى مصر أستدعى خطيبتى التى كنت قد خطبتها قبل سفرى . لقد نسيت أن أحدثك عن خطيبتى . . . اليس كذلك ؟ لا يهم . انها ستغفر لى هذا النسيان . . . معلش ينادية . انها حاصلة على الثانوية العامة فرنسى . وبعد ان حضرت وانتهينا من عقد القران ، استطاعت أن تحصل على عمل بستين دولارا أسبوعيا .

ثم بدأت الحياة بعد ذلك تسير معنا سيرها الطبيعى : قدمت طلبا لجامعة تورنتو لدراسة الماجستير فى الاقتصاد . بعد عدة شهور قبلتنى الجامعة . ونظرا لأن دراسة الجامعة تحتاج الى تفرغ ، فقد حصلت من الحكومة على ألف دلاور كقرض أدفع منه مصروفات الجامعة عن مدة سنة (٥٥٠ دولارا) ثم أسدده بعد الحصول على الماجستير مقسطا على خمس سنوات .

وعندما وجدت أننى لن أستطيع الجمع بين العمل والدراسة ، استقلت من العمل . . . وتفرغت للماجستير . بالطبع لم يكن مرتب زوجتى يكفى للانفاق علينا نحن الاثنين ، فبحثت عن عمل بسيط يأخذ منى ساعات أقل ويعطينى أجرا أقل طبعاً . لقد وجدت هذا العمل فى مطعم وناد ليلى بمطار تورنتو لمدة ثلاث ليلال فقط فى الاسبوع - الجمعة والسبت والاحد . لقد كان هذا العمل عبارة عن مراقب للمطبخ نظير خمسين دولارا فى الاسبوع .

ورغم أننى انتهيت فى آخر السنة من اعداد رسالة الماجستير ، الا أننى كنت أريد تحقيق نتائج أكبر فى وقت أقل . ألم أقل لك من قبل أن طموحى أكبر منى . وأحلامى أكبر من طموحى ، ومشروعاتى أكبر من أحلامى !

نعم . هذه هى الحقيقة . فقبل أن انتهى من الماجستير الاول فى الاقتصاد . قدمت طلبا الى جامعة يورك للحصول على منحة دراسية لتحضير الماجستير فى ادارة الاعمال . قبلتنى الجامعة . أعطتنى منحة ١٥٠٠ دولار . وقبل أن ينتهى شهر ابريل سنة ١٩٦٧ - كنت قد حصلت على الماجستير فعلا .

ان الماجستير كان بالنسبة لى مجرد شهادة معلومات وخبرة ، فى فرع يحتاج اليه المجتمع . ان كل شركة هنا تعتبر أن نجاحها يعتمد أولا على نجاح تنظيمها وادارتها . لهذا لم يكن غريبا أن التحق - بعد

الماجستير - بشركة « أسو » للبتروول ، كخبير في التنظيم والاقتصاد ،
بمرتب ٧٠٠ دولار في الشهر ، وخلال سنة واحدة تمت ترقيتي
الى وظيفة رئيس مشروعات في التنظيم الاقتصادي بنفس الشركة
وارتفع المرتب هذه المرة الى ٨٥٠ دولارا شهريا .

ان الترقيات هنا لا تتم بالاقدمية ولا بالمجاملة ، ولا بالطابور ،
ولا بعدد الاولاد . لا شيء من هذا مطلقا . ان الشركة هنا - اي
شركة - تتوقع منك أن تعطيتها أولا حقها في العمل والانتاج ،
قبل أن تعطيك هي حقك في المكافأة أو التقدم . . . وعندما
يكون الانسان وافدا جديدا الى المجتمع الكندي - او حتى
أي مجتمع آخر - فانه محتاج الى أن يبرر نفسه مرتين : مرة
كغريب ، ومرة كشخص عامل منتج . لهذا كنت أحس دائما بأنه
اذا كان المواطن الكندي يعمل مرة ، فلا بد أن أعمل مرتين . اذا
كان عليه أن يكون كفاءا سبع ساعات ، فيجب على أن أكون كفاءا
٢٤ ساعة . ان الطموح كان دافعي الى الهجرة ، والكفاءة هي
طريقي الى الطموح . لهذا لم يكن غريبا على بعد ذلك أن أترك
العمل في شركة « أسو » ، لانني وجدت عملا بمرتب أكبر في
شركة أخرى ، هي أكبر شركة للطعمة هنا . شركة أسسمها
« جنرال فودز » ان عملي الجديد . الذي هو عملي الحالي ، هو
مستشار اقتصادي لدراسة التنظيم الداخلي واستثمارات السوق .
المرتب ؟ ١٤ الف دولار في السنة . ولكن دخلي السنوي هو في
الواقع أكبر من هذا ، لانني أقوم ببعض الاعمال الحرة الى جانب
عملي الثابت هذا . فمنذ حصولي على الماجستير في ادارة الاعمال
أقوم بتقديم بعض الاستشارات لبعض الشركات الصغيرة بعد وقت
عملي المعتاد . من هذه الاستشارات أحصل على دخل يدور حول رقم
الخمسة آلاف دولار في السنة . ان هذا يجعل دخلي السنوي الان
١٩ الف دولار ، أو أكثر قليلا من ١٥٠٠ دولار في الشهر . هل
أقول لك الحقيقة ؟ انني لست مقتنعا بعد بهذه النتيجة ، رغم انني
فخور بها انني ما زلت مؤمنا بأن المجال مفتوح أمامي لأحقق نتائج
أحسن ودخلا أكبر . والا ايه يانادية ؟ ! آه . . . ان نادية -
زوجتي - مشغولة الان مع انتاجنا المشترك : طفلتنا نيفين . لا
. . لا . . ان عمرها مجرد ثلاث سنوات ، والفضل في رعايتها
يرجع الى أم زوجتي ، حماتي يعني التي تقيم معنا الان في منزلنا
بقورنتو . الحكاية ، ان . . حماتي تحبني . حب متبادل طبعاً ،
والا ايه يا حماتي ؟ !

* الحكاية الثانية :

● ● راسب ابتدائية :

أرجو ألا تنزعج عندما أقول لك اننى راسب ابتدائية ! نعم ، لا تنزعج ، لان هذا ليس بعد أسوأ ما يمكن أن أقوله لك عن نفسى ! ان اسمى ليس : جابر كما قالوا لك . اسمى الاول هو جلال . نعم .. جلال محمود جابر .. وأنا مجرد الشخص الذى تراه أمامك الان . وهذا المحل الفخم الذى ترانى فيه .. أنا صاحبه . ربما اذا عدت فى مرة تالية فسوف تجدنى قد اشتريت العمارة كلها التى تقع فوق هذا المحل . اننى سأفعل ذلك ، لاننى أحب هذا الحي من مدينة أوتاوا . ان أوتاوا بالنسبة لى ليست مجرد عاصمة لكندا ، انها هى المكان الذى عشت فيه تلك الفترة المبكرة من حياتى . مكان حققت لى فيه الثروة ، والخبرة ، والاسرة ، والأطفال . ولكن .. هل أنت متأكد حقا أنك تريد ان تقابلنى أنا .. رغم أننى ساقط ابتدائية ؟! ورغم أننى جئت الى هنا - الى كندا - دون أن أعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية ، أو حتى الفرنسية ؟ ورغم أننى عملت هنا فى البداية ساعيا ، ومسائقا وخادما ؟ هل أنت متأكد ؟ هل أنت ... ؟ يجوز ... ! اذن .. دعنى أقول لك حكايتى من البداية .

« أنا ياسيدى مولود فى طره البلد . بالضبط مولود فى ١١ يونيو سنة ١٩٤٢ نحن ستة : الاب والام ، ثم أخ يعمل فى مصانع حلوان للنسيج ، وأخت أكبر منى ثم أخت أصغر . عندما يثست فى مصر من نجاحى فى الابتدائية ، عملت حلاقا . حلاق رجال أولا ، ثم حريمى بعد ذلك . أنت تعرف طبعا .. فلوس الحريم أكثر من فلوس الرجال !

لقد ظل عملى هو « كوافير » ، الى أن قرأت اعلانا عن حاجة وزارة الخارجية الى شخص يشغل وظيفة (ساعى) فى قنصلية الجمهورية العربية المتحدة بمدينة مونتريال . بينى وبينك ، لم أكن فى البداية أعرف ما هى مونتريال هذه . كل ما كنت أعرفه هو أنها مدينة تقع فى بلد اسمه كندا . وأن كندا هذه هى بلاد بعيدة عنا جدا . أبعد كثيرا من .. أسوان !

المهم .. أنهم قبلونى للعمل فى تلك الوظيفة «ساعى» . وسافرت فعلا الى كندا فى أواخر سنة ١٩٦٠ . مجرد شخص راسب فى الابتدائية ، عمرة ١٨ سنة ، يحاول ان يستوعب كل هذه الدنيا

الجديدة التى وجد نفسه فى وسطها . طبعاً كنت أعرف قليلا من اللغة الانجليزية . يادوب ثأنك يو جود مورننج تشرب قهوة ؟ لازم تشرب قهوة ؟ !!

فى البداية ، لم تكن هناك مشكلة . ان شخصا مثلى ، يعمل ساعيا فى القنصلية المصرية بمونتريال لابد ان يكون معظم تعامله اليومى مع مصريين مثله ، أو عن طريق مصريين يتحدثون لغته . ولكن من ناحية أخرى - فان العمل فى القنصلية له متاعبه أيضا ففى كل يوم يحضر عشرات من المصريين ليقوموا بتجديد جوازات سفرهم ، أو استخراج جوازات جديدة ، أو شهادات ميلاد ، أو تسجيل قران . وعندما يسمع الواحد منهم كلمة " تعال فى الاسبوع القادم " يكاد فقد أعصابه . طبعاً هذا . . . غلط ! هى الدنيا طارت ؟ يعنى أية لو تأخرت الاوراق أسبوع ؟ أو حتى شهر ؟! خلاص ؟! الصبر انتهى ! الواحد كان يتعب فى الشرح لهم . طيب . . . أقول لك ؟ الموظفين كانوا بيتعبوا جدا . يعملوا اللى عليهم . لكن - التعليمات . . . تعليمات - اللوائح . . . لوائح ! لازم اللوائح . . . لوائح ! لازم اللوائح والقوانين تنفذ لاستخراج كل ورقة . طيب . . . انت بنمترك . . . توافق على كسر اللوائح والتعليمات ؟ طبعاً لا . . .

على أى حال ، أنا ظللت فى القنصلية الى أن نقلت ساعيا بالسفارة فى أوتاوا العاصمة ، بعد أن تقرر اغلاق القنصلية فى مونتريال . ولكنى بعد فترة بدأت أفكر : أريد أن أستقر ، أن أتزوج ، أن أكسب ، أن أجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية . لقد حصلت من قبل على برنامج فى وزارة الخارجية بمصر لمدة ثلاثة شهور لتعليم مايمكننى من الانجليزى والفرنسى . ولكنى هنا - فى كندا - بدأت بحكم التعامل مع الناس التقط أكبر ما يمكن من الكلمات وأحفظها . وحتى عندما كنت أشاهد برامج التليفزيون ، كنت أتابع الكلمات فى الافلام وأحفظها . شهر بعد شهر . . . سنة بعد سنة . . . الى أن أصبحت فى سنة ١٩٦٨ أجيد التعامل بالانجليزية ، وقليل من الفرنسية ، ثم أننى كنت قد سافرت الى مصر فى أجازة سنة ١٩٦٤ . أجازة قمت فيها بعقد قرانى على احدى قريباتى . بنت خالتى . وعندما وصلت زوجتى الى هنا - الى أوتاوا - بدأت أحس فعلاً أننى رب أسرة . وعلى فكرة : ان زوجتى جاءت الى هنا وهى أيضا لا تعرف كلمة واحدة أجنبية . ولكنها للحقيقة استطاعت أن تدبر أمورها مثلما استطعت أنا فى البداية

المهم ، أنه عند هذا الحد قررت أنه من الضروري أن أجرب حظي في العمل خارج السفارة . أنت تعرف ان المرتب هو السبب طبعاً . كنت أرى الناس تكسب الالاف كل يوم . بينما مرتبي في السفارة مائة دولار في الشهر . لهذا قلمت استقالتى فى سنة ١٩٦٨ من العمل بالسفارة ، وتحولت الى مهاجر بعد أن استكملت أوراقى من مصر ثم من كندا .

و . . بدأت أبحث عن فرصتى داخل المجتمع الكندى . . فى البداية عملت فى مستشفى بأجر ٩٥ دولارا فى الأسبوع ، أى ٣٨٠ دولارا فى الشهر . بعد فترة عملت سائقا فى سفارة الأرجنتين هنا - فى أوتاوا - ورغم أننى كنت سائقا للسفير ، إلا أننى تركت هذا العمل بعد أسبوعين فقط . لقد أكتشفت أننى أترك وظيفة ، لأعمل فى وظيفة أخرى . وأن المرتب مضمون كل شهر ، ولكنه ثابت . كنت أريد أن يتغير دخلى مرة واحدة . قفزة واحدة . بخبطة واحدة . ان هذا لا يحدث فى الوظائف ، ولكنه يحدث فقط فى التجارة . فقررت أن أعمل فى التجارة

لقد ساعدنى فى الاقتناع بهذا القرار صديق فلسطينى موجود هنا فى أوتاوا . لقد ذهبت اليه أولا اطلب منه الاشتراك معى فى البحث عن شقة للإيجار . وخلال تجولنا اكتشفنا هذا المحل ، الذى ترأى فيه الآن . ان صاحبه هى سيدة لبنانية عجوز هاجرت الى هنا منذ فترة طويلة . وبعد مناقشة مع السيدة أكتشفت أننى أستطيع أن أستأجر المبنى كله بمائة وخمسين دولارا فى الشهر . مبنى من دورين كما ترى : محل تجارى فى الدور الارضى ، وشقة واسعة فى الدور العلوى . . و . . اتفقت مع السيدة اللبنانية على استئجار المبنى ، رغم أنه لم يكن فى جيبى ساعتها دولار واحد . . من أين اذن أدفع الإيجار ؟

بسيطة . . لقد ذهبت الى بنك . . وحصلت على قرض قدره ثمانمائة دولار بضمان شخصى . بهذه ال ٨٠٠ دولار بدأت حياتى من جديد . لقد دفعت إيجار المبنى للمالكة ، ثم أثبتت الدور الارضى كمحل تجارى ، أقصد محل بقالة أعمل فيه أنا ، ثم قمت بتأجير الدور العلوى حجرة حجرة . ان الدور فيه خمس حجرات . . بأربعين دولارا إيجارا للحجرة فى الشهر . . فتكون الحصيلة هى مائتى دولار فى الشهر . يعنى . . إيجار من الباطن ! بعد ستة أشهر بدأت حياتى تنتظم . . المحل التجارى يكسب . . الإيجار مدفوع ، حصيلة الحجرات الخمس مضمونة . ثم أننى

أعمل في المحل وحدي ليل نهار ، وأحيانا تساعدني زوجتي .
ونتيجة لهذا كله أخليت الدور العلوي من السكان ، وأقمت فيه
مع زوجتي والاطفال . لقد حدث هذا بعد أن أصبح كل مافى المحل
مملوكا لى . نعم ، كل ماتراه الان أمامك أنا صاحبه . بمعنى
آخر . . فان رأسمال هذا المحل الذى تراه ، هو الآن عشرة آلاف
دولار . أنا الان صاحب هذه العشرة الاف دولار . تعرف ليه ؟
لان المحل حقق أرباحا فى السنة الاولى قدرها ثمانية آلاف دولار .
أرباحا صافية بعد استبعاد مصروفاتى الشخصية . اننى أريد أن
تقفز الارباح هذا العام الى ١٢ ألف دولار . . ان شاء الله . .

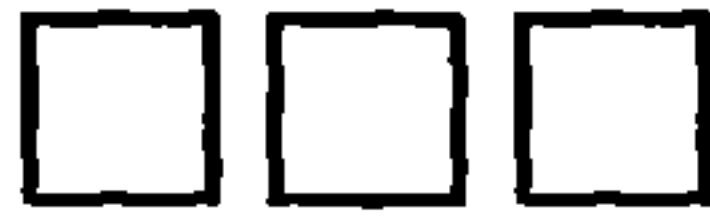
تعرف الحقيقة ؟ أنا فخور بما عملته ، فخور بأننى بدأت من
لاشئ . ولا حتى كلمة انجليزى . اننى فخور أيضا بزوجتى . لقد
ساعدتنى كثيرا . فى الواقع ان كلامنا ساعد الآخر كثيرا . ولكننى
أقول : ان كل هذا بتوفيق من الله . هل ترى هذه اللوحة
المعلقة داخل المحل . انها تقول باللغة العربية « يارب » . اننى
اتفأل بها ، كثيرا ، رغم أن زبائنى الكنديين لا يعرفون ما هى
هذه اللوحة أو ما هو مكتوب فيها . ولكنهم يعرفون هذه الصورة
المعلقة أمامك : صورة أبو الهول . انهم يفهمون أيضا هذه الصورة
الآخرى المعلقة : صورة مسجد السيدة زينب . الفاتحة لام هاشم .

x x x

هل تعرف ما هى المسألة التى تشغلنى الان ؟ أنها هذا المنزل
لقد تعاقدت مع صاحبه على استئجار هذا المبنى لمدة خمس
سنوات . ولكننى الان أريد أن أشتريه . أريد ذلك . . لاننى
أريد أن أحس أنه قد أصبح ملكا خالصا لى . هل تعرف كم
تريد فيه صاحبه ؟ ٢٨ ألفا و ٥٠٠ دولار ! لقد قلت لها ان هذا
السعر مرتفع ، ولكنها خفضت السعر الى ٢٢ ألف دولار فقط .
أنا عرضت عليها شراءه بعشرين ألفا فقط بالتقسيط . انها لم
توافق بعد . ولكننى متأكد من أنها ستوافق فى النهاية . ألا
ترى أن السعر الذى أعرضه عليها معقول ؟ أنه معقول . . طبعا !
انها لا تعرف أن عشرين ألف دولار كندى تساوى عشرة آلاف
جنيه مصرى بالسعر الرسمى !

على أى فائنى أتوقع أن صاحبة المنزل لو فكرت مرة أخرى
فستوافق . ولهذا لا أفكر فى هذه المشكلة كثيرا .
أما المشكلة الحقيقية التى تشغلنى أكثر فهى زوجتى . أنا لا
أقصد زوجتى شخصيا ، ولكنى أقصد اجراءات هجرتها . لقد

قلمت لها أوراق هجرتها في مصر منذ سنة ونصف سنة ولكنها حتى الآن لم تحصل على الموافقة . ان المسألة كلها اجراءات . تضييع وقت . احنا كده نعرف ؟ أنا الان عندي بنتين . بنت عمرها أربع سنونات ، وبنت أربعة أشهر . عندما ذهبت الى سفارتنا هنا لاسجل ورقة ميلاد بنتي الأخيرة ، اكتشفت أنه لابد أن أدفع عشرة دولارات ، ولابد أن أغلق المحل ساعتين على الأقل لانني أعمل فيه وحدي . و . . . ياريت الورقة تخلص في يوم ، أو حتى في أسبوع . لازم تضرب لهم تليفونات ، وتسأل كل يوم . . . لازم تسأل بأدب . . . لازم تنتظر . . . لازم تنفس اجراءات طويلة معقدة . . . كأننا في الكعبة مش في سفارة ! أنا عارف لوائح ايه دي ؟ موظفين ايه دول ؟! لامؤاخذه ! أنت معاك الاستاذ عادل الخضري من السفارة . لكن الاستاذ عادل ممتاز . انما تعمل ايه في الباقيين ؟ تعمل ايه في اللوائح ؟ أصلهم معذورين برضه . . . لكن مش في كل حاجة . بتضحك ؟! أهو احنا كده ! عاوز تمشي ؟ ليه ؟ ياأخي الواحد فرحان عشان شايف واحد من مصر . والنبي تقعد . لازم ناكل سوا . ماتخافش على مواعيدك . أنا حاوصلك بعرييتي . أقعد ياشيخ . يعني حاتروح فين ؟ ميعادك في السفارة؟ يعني هي السفارة كعبة ؟! طيب ياسيدي . . . أمرك ! ،



* الحكاية الثالثة :

●● أهلا وسهلا ! . . .

قبل أن نتكلم . . . ماذا تفضل أن تشرب ؟ اطمئن . كل شيء موجود . لابد أن نشرب شيئا . لابد أيضا أن أسمع منك أولا . اننى أريد أن تحكى لى عن مصر . لقد أوحشتنى مصر جدا . ان حياتى كلها ، ذكرياتى كلها ، صداقاتى كلها مازالت في مصر . . . لهذا أرجوك أن تحكى لى أكثر ما يمكن الآن عن الحياة في مصر . عن شمس مصر ، ناس مصر ، ياأخي تعرف ؟ الواحد هنا زاد حبه لمصر . حب أكبر جدا مما يمكن أن تتخيل . اننى أدخر أجازاتى هنا كي أستطيع ان اسافر الى مصر تسعة أسابيع كل ثلاث سنونات . ولكن مصر توحشتنى ألف مرة في الثلاث سنونات ! أنت تعرف اسمى طبعاً . . . ولكن اسمى كاملا هو : حسين محمد صالح . هل من الضروري أن أذكر لك تاريخ ميلادى ؟

أقول لك : عندما جئت الى كندا - منذ أربع سنوات - كان عمري هو ٤٤ سنة . انها من متأخرة كما تقول . ولكن هذا ما حدث على كل حال .

لقد جئت الى هنا لمجرد البحث عن فرصة . لمجرد التغيير . هذا كل شيء . لم أحضر لاننى فشلت فى مصر . بالعكس . لقد كنت - بالمقاييس العادية - شخصا ناجحا فى عملى . فمئذ حصلت على ليسانس الحقوق من جامعة فؤاد الاول فى سنة ١٩٤٥ وأنا متقدم فى عملى . لقد بدأت حياتى بالعمل فى النيابة العامة - وكيلا لنيابة الدرب الاحمر - الى أن خفضوا سن القضاة فى سنة ١٩٥٠ فتحولت الى السلك القضائى ، كنت قاضيا فى محكمة مصر فى البداية ، ثم رئيسا لمحكمة بعد ذلك .

وفى سنة ١٩٥٥ عرضت على شركة « شل » للبتترول أن أعمل بها وكيلا لادارة القضايا ، فاستقلت من القضاء ، والتحققت بهذا العمل . . الى أن أصبحت فى سنة ١٩٦٦ مديرا عاما لادارة القضايا فى الشركة . المرتب ٢٤٥ جنيها فى الشهر . مرتب ضخيم ؟ طبعا . . ولهذا تقرر تجميده عندما طبقت اللوائح الجديدة فى الشركة ثم . . بدأت أفكر فى الهجرة . . فى البداية فكرت فى الهجرة الى استراليا أو أمريكا الجنوبية ، أو الولايات المتحدة أو كندا ، طبعا استبعدت استراليا لاننى سمعت أن تكاليف الحياة فيها مرتفعة . . استبعدت أمريكا الجنوبية لانهم لا يتكلمون الانجليزية أو الفرنسية . . استبعدت الولايات المتحدة لاننى شخصا لا أحب الأمريكين . . اذن أهاجر الى كندا . .

هكذا جئت الى كندا فى سنة ١٩٦٦ . جئت بعد أن تركت كل شيء فى مصر . . منزلى ، ابنتى ، حياتى . جئت لا أعرف أحدا على الاطلاق فى كندا . ولكننى عندما توجهت الى مدينة تورنتو ، التقيت بأصدقاء مصريين قدامى سبق أن هاجروا الى كندا واستقروا فى تورنتو . طبعا أصروا على أنام عندهم . . طبعا هذا حدث .

من اليوم الثانى بدأت المهمة الصعبة . . مهمة البحث عن عمل وبسرعة ظهرت أمامى مشكلة ضخمة واجهتنى فى كل شركة أحاول أن أعمل بها . مشكلة الخبرة الكندية . . ففى كل مرة أتقدم لشركة ، يرفضون لانه لا توجد لدى « خبرة كندية » ، أى خبرة سابقة فى العمل بكندا . شهر ، شهرين ، شهرين ونصف . . وأنا ما زلت عاطلا بلا عمل .
والعمل ؟

حاولت أن أعمل محاميا . ولكنني اكتشفت عقبتين .. فأولا هم لا يعترفون هنا بشهادتنا الجامعية .. ان النقابات سبب في ذلك . وثانيا لا بد لي - بناء على ذلك - من دراسة القانون من جديد هنا للحصول على الليسانس من جديد .

ولكى أكون صريحا معك .. فلا بد أن أقول لك أنه قد مرت على أيام قاسية هنا - في البداية . أيام تحس منها أنك وحدك أمام المشاكل . وحدك ضد الظروف . أنك تريد أن تضع قدما واحدة - مجرد قدم واحدة - في مكان ما داخل عجلة المجتمع . ثم لا تستطيع ..

كان القدر الذي يحكمني في تلك الفترة هو شعور بالهزيمة ، بخيبة الامل ، بالحسرة أحيانا ، حسنا ، أنا لا أحب أن أفشل ، من منا يحب لنفسه الفشل ؟ ولكن كراهييتي للفشل تحولت عندي الى تحد .. الى رغبة في التغلب على الظروف ، على العقبات ، على المشاكل .

لهذا لم أياس ، ظللت أقدم عشرات الطلبات الى الشركات والمؤسسات .. وفي كل مرة أتلقي عشرات الردود بالرفض . عشرات الردود ، ولكن السبب واحد : عدم وجود الخبرة الكندية . اننى سوف أريك الآن اثنين وسبعين خطابا من شركات مختلفة خطابات يعتذرون فيها عن تشغيلي لنفس هذا السبب . خطابات ما زلت أحتفظ بها للذكرى .

ثم .. لم أستطع في النهاية سوى العمل مندوبا لشركة تأمين . هذه لا تعتبر وظيفة ، لانها عمل .. مقابل عمولة . كل بوليصة تأمين أنجح في عملها لشخص ما .. أتقاضى عنها عمولة .. ومن متوسط العمولات لم يصل دخلي بعد سبعة شهور الى أكثر من ٦٠٠ دولار في الشهر . انها مهنة شاقة . انك تمسك في يدك بمجموعة من بوالص التأمين ثم تدور بها على الناس في عملهم أو منازلهم تحاول اقناعهم بالتأمين على حياتهم بواسطتك و .. بيني وبينك .. فان معظم بوالص التأمين التي عملتها في البداية كانت لمصريين . ربما اشتراها بعضهم بحكم المجاملة . ربما بحكم تفهم الظروف ، وربما لاي سبب آخر .. المهم اننى بعد عدة أشهر بدأت أحصل من هذه الوظيفة على دخل يكاد يكون ثابتا .. تلك الـ ٦٠٠ دولار التي ذكرتها منذ دقيقة . تعرف ؟ أول شيء اشتريته من كندا كان جهاز راديو قوى .. راديو لأسمع به اذاعة القاهرة ..

ان صوت القاهرة بالنسبة لى كان سحرا . شىء لا أنام الا على صداه فى أذنى .

ولكن عقلى كانت تشغله مهمة أخرى فى نفس الوقت . انها ما زالت نفس المهمة . البحث عن عمل . اننى - رغم الرفض المستمر - لم أتوقف عن تقديم طلبات العمل فى أى شركة . بل أكثر من هذا - اننى فكرت فى البحث عن وظيفة فى الحكومة . . لكى أتفادى مشكلة عدم توافر « الخبرة الكندية » التى تشترطها الشركات .

ان التعيين فى جميع وظائف الحكومة هنا يتم بمسابقات . لا أحد يتم تعيينه فى وظيفة الا اذا ثبت أنه أصلح المتقدمين لها . بل ان الترقيات لدرجة أعلى تتم هى الاخرى بمسابقات ، وبغير مراعاة لأية أقدمية ، أو أية اعتبارات أخرى غير مصلحة العمل . وفى مقابل ذلك ، فانه اذا رقى أحد موظفى الحكومة الفيدرالية الى وظيفة أعلى ، ورأى موظف آخر زميلا له ان كان أحق بالترقية . فانه يستطيع أن يعترض ويرفع دعوى تقرر فيها المحكمة أيهما كان فعلا أحق بالترقية على أن اشتراط امتحان المسابقة للتعين فى الحكومة لم يكن هو المشكلة بالنسبة لى . ان المشكلة هى أنهم - عند التعيين فى وظائف الحكومة هنا - يفضلون طبعا الشخص الكندى الجنسية عن الشخص غير الكندى . هذا أمر طبيعى .

وبالنسبة لى ، فاننى لم أكن قد حصلت بعد على الجنسية الكندية . لهذا قدرت أننى لا أستطيع الحصول على وظيفة حكومية الا فى حالة واحدة : أن أثبت لهم أننى أكفأ من أى شخص آخر . وهذا ، قدرته فعلا . لقد قرأت اعلانا فى الصحف عن حاجتهم الى شغل وظيفة فى الحكومة الفيدرالية . وظيفة خبير فى الكفاية الانتاجية . وقررت أن أتقدم للامتحان فى المسابقة الخاصة بهذه الوظيفة . قررت ذلك رغم أنها لا تتمشى مع دراستى ، وان كانت تتمشى مع خبرتى ، والبرامج التى حصلت عليها فى التنظيم والادارة اثناء عملى فى شركة « شل » بالقاهرة . وفى نفس الوقت تقدم معى ٢٢ شخصا آخر لشغل نفس الوظيفة . كلهم كنديون طبعا .

و . . حصلت على الوظيفة !

حصلت عليها لاننى أصبحت الاول على المتسابقين لشغلها . ساعتها فقط قرروا تعيينى . . ساعتها فقط بدأت أحصل على

أول مرتب منظم ، تسعة آلاف دولار في السنة - وهو مرتب الوظيفة الجديدة . . من يومها وأنا أعمل في هذه الوظيفة ، وأحصل على ترقية بعد دخول المسابقات التي تجرى لهذا الغرض . والنتيجة هي التي تراها أنت الآخر . . اننى أصبحت مستشارا للحكومة الفيدرالية بأوتاوا في الكفاية الانتاجية ، بمرتب ١٦ ألف دولار . . وقد حدث أكثر من مرة أخيرا أن انتدبتنى الحكومة لرئاسة لجان خاصة لدراسة البرامج الجديدة لتنظيم القوى العاملة ، أو قياس خطط رفع الكفاية الانتاجية .

ان الصورة التي أمامك هذه هي صورة نشرتها جريدة « نيو أوبتيمست » في صفحتها الاولى منذ سنة . . بينما كنت أختبر كفاءة بعض العاملين في الحكومة . . . صورة ضخمة منشورة على ثلاثة أعمدة كما ترى بعرض الصفحة الاولى من الجريدة . . لا . . لا تأخذها أرجوك . هذه هي النسخة الوحيدة المتبقية عندي من ذلك العدد . اننى طبعا أريد الاحتفاظ بها ، لاننى أعترز بهذه الصورة . ان قيمة هذه الصورة عندي ضخمة طبعا . انها بالنسبة لى رمز يمثل الفارق بين النقطة التي بدأت منها حياتى فى كندا . . ثم النقطة التي وصلت اليها . انا لا أقول ان هذا أحسن ما يمكن أن أعمله . فما زال طموحى ضخما بالنسبة لما يمكن أن أحققه فى المستقبل ، وبالنسبة للفرص التي يتيحها المجتمع الكندي لى شخص يثبت كفاءته . اننى أقول فقط أن عملى الحالى هو على الاقل خطوة فى الطريق الذى بدأت به . طريق لم أكن أتصور فى البداية أننى يمكن أن أسير فيه ، أو الاستمرار فى السير فيه ، أو التغلب على العقبات التي صادفتنى خلاله .

اننى منذ أول يوم والى الآن - أصر على أن أعطى كل وقتى . . أكثر من وقتى . . لعملى اننى هنا لا أحصل على إجازات . فى الحقيقة أن إجازتى السنوية هي ثلاثة أسابيع . ولكننى أدخر هذه الاجازات حتى يتجمع لدى تسعة أسابيع كل ثلاث سنوات . قلت لك هذا من قبل تسعة أسابيع أسافر فيها الى مصر . آه . يا أخى أنت منذ قدومك الى شقتى هذه مع الصديق عادل الخضرى . . وأنت تقودنى فى حديث لا أريده عن نفسى . . الآن جاء دورك أنت لابد أن تحدثنى أنت الآن عن مصر . أرجوك . . اننى أريد أن تحكى لى عن هذا السحر الذى يعيش فى داخلنا جميعا ، عن مصر . هل تتحدث معى بتفصيل . . بأسهاب . . بإفاضة ؟ اتفقنا . تشرب ايه . . خلى الكلام يحلى !

الفصل الثانى :

عرب فى كندا :
المليونير .. والموظف .. والنصف نصف !



مع أن المصريين يشكلون الان جالية ضخمة نسبيا فى كندا ،
الا اننا لو حسبنا عددهم بالنسبة لمجموع سكان كندا ، فسوف
نكشف هذه الحقيقة : انه من بين كل الف مواطن كندى .. هناك
مواطن مصرى واحد يعيش فى كندا كمهاجر .. ان هذا معناه ان
المصريين فى كندا يزيد عددهم قليلا على عشرين ألفا . انهم بذلك
يشكلون أول جالية مصرية ضخمة خارج حدود مصر . جالية
ضخمة ، ولكنها مازالت اقلية داخل المجتمع الكندى نفسه . ولو
وسعنا دائرة اهتمامنا بحيث ننظر الى كل المهاجرين العرب
المستوطنين فى كندا .. فان النسبة فى هذه الحالة سوف ترتفع .
هذه هى : من بين كل الف من سكان كندا .. هناك أربعة من

أصل عربي .. مازالت هذه النسبة اقلية ضمن المجتمع الكندي .. في الواقع انها اقلية ضئيلة جدا .

ولكن .. لو نظرنا للامور من زاوية اخرى .. فسوف نكتشف ان الجالية العربية في كندا كانت اقل من ذلك جدا ، اقل من نصف عددها الحالي - منذ عشر سنوات فقط ان السبب في ذلك هو ان لبنان وسوريا كانتا تمثلان المصدرين الرئيسيين للهجرة العربية الى كندا حتى وقت قريب . ومنذ سنوات قليلة فقط أصبحت مصر تشكل مصدرا ثالثا .. مصدرا رئيسيا للهجرة العربية الى كندا ..

وقد أدى اتجاه المصريين الى كندا الى تغيير كبير في طبيعة تكوين الجالية العربية هناك . انه أولا تغيير عددي ، فاعتبارا من سنة ١٩٦٢ بدأ المصريون يصبحون ستة أشخاص من كل عشرة عرب يهاجرون الى كندا ، بالإضافة الى اثنين من المغرب ، واثنين من باقى الدول العربية .

ان وصول المصريين أدى الى رفع عدد الجالية العربية فى كندا من ٦١ ألفا الى ٨١ ألفا . هذا تغيير عددي . ولكن هناك أيضا تغييرا نوعيا ترتب على اتجاه المصريين الى الهجرة الى كندا .

فلو نظرنا الى احصائيات الهجرة والسكان التى تصدرها حكومة كندا ، فسوف نكتشف الحقيقتين التاليتين :

أولا - ان النسبة الكبرى من المهاجرين المصريين هم مهنيون ومتخصصون .. لهذا فقد أصبحوا هم الفئة الاعلى تخصصا والاكثر احترافا بين المهاجرين العرب . ان ٣١ ٪ من المهاجرين المصريين الى كندا يتجهون أساسا الى الاعمال المهنية أو النصف مهنية ، مقابل ٩ ٪ فقط من المهاجرين اللبنانيين . أما السوريون فانهم يحتلون مكانا وسطا بين الاثنين . ان هذا معناه ان المصرى الذى يتجه الى كندا هو غالبا : مدير ، مهندس ، محام ، طبيب ، جراح ، كيميائى ، صيدلى ، مدرس ، رسام ، محاسب ، أو خبير فنى .

ثانيا - ان المهاجرين المصريين هم الاقل بين المهاجرين العرب اتجاها الى احتراف الاعمال اليدوية : فبينما نجد من الاحصائيات الكندية أن حوالى نصف اللبنانيين والسوريين يتجهون الى هذه الاعمال ، نجد أن نسبة من يتجه اليها من المصريين هى اقل من الربع . أما باقى المصريين الذين لا يعملون كمهنيين أو يدويين ،

فانهم يتجهون الى الاعمال الكتابية مثل : صراف ، مخزنجى ، مختزل ، مترجم ، ميكانيكى . الخ .

وهذا الاتجاه الذى تمثله الهجرة المصرية الى كندا ، يمثل فى الواقع تغييرا نوعيا كبيرا طرأ على تكوين الجالية العربية هناك .

ان الجالية العربية فى كندا يصل تقديرها الى ٨١ ألفا من بينهم ٢٠ ألف مصرى ، أما الباقون فهم أساسا لبنانيون وسوريون .

ان اللبنانيين والسوريين بدأوا يتجهون الى كندا قبل بداية القرن العشرين بقليل . ان الجيلين الأولين من المهاجرين العرب الى كندا جاءوا من الشام ، تلك المنطقة التى تسمى الآن سوريا ، ولبنان ولقد ظلت السمة المشتركة لهذين الجيلين هى نفسها حتى الحرب العالمية الثانية . انهم يتميزون بتعليمهم المحدود ، وخبرتهم الفنية الضئيلة ، وحرفتهم اليدوية ، وممارستهم للتجارة ، ورغبتهم فى الشراء .

أما الجيل الثالث - من المهاجرين اللبنانيين والسوريين فقد اتجه الى كندا بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو يتكون أساسا من أسر وأقرباء الجيلين الأولين ، الذين كانوا قد استقروا فى كندا قبل الحرب .

واعتبارا من الجيل الرابع فقط ، بدأ مستوى المهاجرين اللبنانيين والسوريين المتجهين الى كندا يضم الكفاءات التى أحرزت مقدما كل مقومات الهجرة . ولكن هذا الاتجاه لم يتأكد نهائيا الا بعد أن بدأ المصريون يتجهون الى الهجرة الى كندا فى موجات متتالية غير منتظمة خلال ستينات هذا القرن .

ان هذا الاختلاف الزمنى والفرعى بين اتجاه اللبنانيين والسوريين والمصريين الى كندا ترتب عليه نتائج فرعية كثيرة ، هى التى تلمسها الآن فى قدرة الفئات الثلاث على تربية جذور عميقة داخل المجتمع الكندى . . . فبينما المصريون ما زالوا حديثين كمهاجرين فى كندا . فان اللبنانيين والسوريين أصبحت لهم جذور أكثر عمقا داخل التربة الكندية . جذور تلمسها من مظاهر كثيرة ، منها هذه الظاهرة مثلا : أنه يوجد فى كندا ٢٥ مليونيرا من أصل لبناني وسوري !

وفى الواقع كان أول نماذج ثلاثة من العرب الذين قابلتهم فى كندا يعبرون بوضوح عن قيمة هذه الجذور ، وأستطيع أن أخص هذه النماذج فى الصور الثلاث التالية :

الصورة الاولى :

عندما نزل الأب مع أسرته الى شاطئ كندا منذ سبعين سنة بالضبط ، لم يكن هناك ما يبشر بأن هذه الارض سوف تكون في يوم ما أرض المستقبل . الارض عبارة عن صورة تمهيدية للجحيم . انها في منتهى البرودة عندما يحل الشتاء . وهي في منتهى القسوة عندما تصبح باردة ، وهي لا ترحم عندما تكون قاسية . انها باختصار أرض ترفض الانسان .

وظل الرجل يكافح . . الى أن مات .
مات وأكبر أولاده لا يزيد عمره على ١٧ سنة . واضطر الشاب الى أن يدرس نصف الوقت . . ويعمل في النصف الآخر . . واضطرت أمه الى العمل كمصممة أزياء .
ثم أصبح الشاب مهندسا . . وتخصص المهندس في الجيولوجيا وبدأ حياته داخل المناجم ، شهرا هنا وشهرا هناك .

ومرت السنوات ، في الواقع مرت سبعون سنة منذ هاجر الأب مع أولاده الى كندا . سبعون سنة ، أصبح الشاب المهندس بعدها أباً لثلاثة أولاد ، بنتين وولد في السنة النهائية بالمدرسة الثانوية . وأصبح رئيساً لشركة ضخمة اسمها « مؤسسة الاسبيستوس المتحدة » ، ومقرها الرئيسي مدينة مونتريال بكندا ، انها شركة تتولى عمليات استخراج الرصاص والذهب واليورانيوم والاسبيستوس في مناطق واسعة من العالم من بينها فرنسا . بقيت نقطة واحدة عن هذا الرجل . ان ثروته الآن ٢٨ مليون دولار . . أكرر ثمانية وعشرون مليوناً من الدولارات أي ما يقرب من ٢٣ مليون جنيه .

نقطة أخرى : ان الرجل اسمه فيليب معلوف . لبناني . هاجرت أسرته الى كندا سنة ١٩٠٠ . مات أبوه سنة ١٩٢٠ يعيش الآن في مدينة مونتريال بكندا . أعمار بنتيه وولده هي : ٢٢ ، ١٩ ، ١٧ سنة . الجميع مع والدهم - جنسيتهم الان كندية . . انهم لا يتكلمون اللغة العربية ولكنهم يفهمونها .

وعندما قابلت فيليب معلوف في مقر شركته بالدور التاسع من شارع دورشستر بمدينة مونتريال قال لي : اننى أحاول أن أربط اولادى ببلدهم الاصلى - لبنان - بعد ان أصبحت الظروف تمكننى من ذلك الان . ان الولد يريد أن يتخصص - بعد تخرجه

- في أعمال البنوك - انا اريد ان يتولى اعمالى من بعدى . ان
عمرى الان ٥٧ سنة . اننى لم اتعب بعد لاننى حريص على عملى .
لقد جئت حالا من رحلة الى جنوب افريقيا وكينيا وتنزانيا ..
اننى تعلمت اترحال من اهر .. ان أبى هو الذى جاء بنا الى
هنا .. أبى جاء الى استراليا أولا فى سنة ١٨٨٥ ، ثم جاء بنا
الى كندا فى سنة ١٩٠٠ ، اننى لم أزر لبنان ، ولا مرة حتى
الآن .. قريبا سأفعل ذلك ..

الصورة الثانية :

هذا ثانى نموذج قابلته فى كندا ، نموذج مصرى هذه المرة .
هذا النموذج هو هنرى حشيمة * مصرى عمره خمسون سنة
ظل يعمل فى مصر الى أن وصل الى وظيفة مدير لبنك القاهرة
فى مدينة الاسكندرية . ولكنه ترك هذه الوظيفة ليهاجر الى كندا
سنة ١٩٦٢ .

انه الآن يشغل وظيفة عضو مجلس الادارة المتدب بشركة
(انترافينا) ، وهى شركة كندية لتمويل عمليات التجارة الخارجية
مرتبه ٢٥ ألف دولار سنويا (أكثر من ١١ ألف جنيه مصرى)
.. متزوج ولديه ولد وابنتان (أحدهما سنتعرف عليها بعد)
.. أخته أيضا تعمل فى مدينة مونتريال ، وهى متزوجة من
مهندس الكترونيات مصرى يعمل فى مونتريال ودخله السنوى
٢٢ ألف دولار ..

وبعد أن نجح هنرى فى عمله ذهب اليه شقيق زوجته الحاصل
على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة وبعد أن حصل على
الماجستير فى الحقوق من كندا اكتشف أن العمل بالمحاماة صعب ،
فحصل على بكالوريوس فى التربية ثم عمل استاذا فى أحد المعاهد
التعليمية ، ثم عضوا بمجلس الادارة . وبعدها حصل على منحة
دراسية لدراسة الدكتوراه فى فرنسا .

الصورة الثالثة :

مصرى أيضا .. هذا النموذج الثالث .. اسمه مصطفى
محمد الهلالى .

ان الدكتور مصطفى مهاجر مصرى بالصدفة .. لقد بدأ
كمجرد مغترب يعيش فى كندا ، انه ذهب الى كندا فى أول يوليو
سنة ١٩٦٥ ليحصل على الدكتوراه فى جراحة المسالك البولية

بعد أن حصل على الماجستير في مصر . ومع أن مصطفى له قصة أخرى ربما أكتبها فيما بعد ، إلا أنه يكفينا الآن أن نعرف أنه يعمل حالياً استاذاً مساعداً لجراحة المسالك البولية في جامعة (شيربروج) بكندا ، بالإضافة الى أنه طبيب اختصاصي في المستشفى التابع للجامعة . . . انهم اختاروه في هذه الجامعة بالذات ، وهذا المستشفى الحديث بالذات . بعد أن اعتبروه هناك واحداً من أكفأ وأبرز جراحى المسالك البولية .

و . . . هذه أول ثلاث صور مختلفة من أعضاء الجاليات العربية الذين قابلتهم في كندا ، بعد أن نجحوا في الحياة داخل المجتمع الكندي . انهم مجرد ثلاثة نماذج من الـ ٨١ ألف عربي الذين هاجروا الى كندا ويعيشون فيها الآن . بعضهم اكتسب الجنسية الكندية ، وبعضهم لم يكتسبها بعد .

حتى تكون الصورة أمينة تماماً فلا بد أن أضع تحفظاً كبيراً هنا . هذا هو : ان النماذج الثلاثة السابقة - النموذج اللبناني والنموذجان المصريان - لا يمثلون القاعدة بالنسبة للمهاجرين العرب في كندا . انهم ليسوا كذلك - لا هم ولا النماذج الثلاثة التي تحدث عنها الفصل الاول من هذا الكتاب . . . بمعنى أنه ليس من اللازم بالضرورة أن كل مهاجر الى كندا سوف يحقق نفس هذه النتائج في نفس هذه المدة القصيرة . . . بل انه ربما توجد في مقابل ذلك حالات فشل سوف نناقش اسبابها ، ونستعرضها فيما بعد ولكن النتيجة الرئيسية بعد هذا كله هي : ان النجاح . . . الخارجي أحياناً - هو أمر ممكن دائماً بالنسبة للجالية العربية في كندا . .

والواقع ان النماذج الثلاثة تعطينا صورة تشمل كل العناصر المميزة للجالية العربية في كندا . فاللبنانيون مثلاً هم - كما ذكرت من قبل - أول المهاجرين العرب الى كندا . ان هجرتهم الى هناك بدأت في وقت مبكر من نمو المجتمع الكندي . . . وبالتالي فاتهم أكثر اندماجاً فيه وأكثر قدرة على النجاح . . . وهذا معناه ان تتوقع وجود مليونيرات بينهم مثل المليونير فيليب معلوف الذي اشرت اليه منذ قليل .

وفي مقابل ذلك فان السوريين هم ثانية مجموعة عربية بدأت تهاجر الى كندا بعد اللبنانيين أما المصريون فهم - كما عرفنا في الصفحات السابقة - أحدث من هاجروا الى كندا . . . ومع أن عددهم في كندا ينمو الآن بسرعة ، إلا أن هذا العدد له خصائصه المشتركة . . . بل وحتى يكاد يكون له نفس الأعمال المتشابهة . .

فنحن نجد أن المصريين المهاجرين الى كندا هم عادة موظفون .. اساتذة في الجامعات والمدارس ، مهندسون ، أطباء ، مديرو بنوك . ولكن .. ما زالت هذه كلها أعمال موظفين ، أقول هذا من خلال الشهور التي قضيتها في لقاءات بالمئات منهم في كندا . وهذا في مقابل ان اللبنانيين نادرا ما يهاجرون للحصول على وظيفة . لقد اكتشفت في كندا أنه من النادر جدا أن أجد لبنانيا يعمل موظفا في مصلحة حكومية مثلا .. قد أجد اللبناني موظفا في شركة - رئيسا لمجلس ادارة مثلا ولكنه في نفس الوقت .. صاحبها ! ..

وعندما تذهب الى مدينة أوتاوا - عاصمة كندا - أو الى مدينة مونتريال .. أكبر مدن كندا .. فانك ستجد على الفور حوالى ثلثي المطاعم وربع المحلات التجارية يملكها أو يديرها لبنانيون وسوريون . ولا يمكن أن تجد مطعما مفتوحا في مدينة أوتاوا مثلا يومى السبت والاحد الا اذا كان صاحبه لبنانيا أو سوريا . وعندما سأنت واحدا من هؤلاء عن سر هذه الظاهرة قال لى : « المسألة بسيطة . المسألة تبدأ دائما بواحد فقط من الاسرة يأتى الى هنا مهاجرا .. وحيث أنك تستطيع الحصول على قروض ضخمة من البنوك هنا ، فان أسهل عمل وأسرع ربحا هو أن تفتح مطعما . ان هذا العمل له مزايا كثيرة .. فأولا المنافسة فيه ممكنة ، ليس فقط من حيث مستوى الاطعمة . ولكن من حيث ساعات العمل . فكل المحلات هنا تغلق ابوابها في الخامسة مساء بينما نحن نظل نعمل الى ساعة متأخرة من الليل . وكل المحلات تغلق يومى السبت والاحد حيث العطلة الاسبوعية هي شيء مقدس ، بينما نحن كشرقيين معتادون على العمل ساعات أطول وعددا أكبر .. ثم .. عندما ينجح احدا هنا فانه يرسل لاحضار عائلته أو اقاربه لكي يعملوا معه .. وهكذا تبدأ العجلة في الدوران .. ان المتكلم هنا اسمه يوسف راشد .. لبنانى .. صاحب مطعم بمدينة أوتاوا عاصمة كندا هاجر الى هناك منذ ١٥ سنة .. بدأ حياته بالعمل بأجر أسبوعى لا يزيد على ٣٥ دولارا ولكنه الان يملك مطعما ربحه الصافى الفا دولار شهريا ، بالإضافة الى منزل قيمته الحالية مائة وخمسون ألف دولار . منزل كان قد اشتراه منذ عدة سنوات بـ ٦٥ ألف دولار .

× × ×

ان اللبناني اذن من بين أعضاء الجالية العربية في كندا - تجده دائما يمارس أعمال التجارة عندما يهاجر الى هناك .. وهو عادة

يبدأ حياته بطريقة متواضعة للغاية .. وعندما يفامر فته كثيرا ما يفشل ويخسر كل ما يملك .. ولكن اللبنانيين لديهم مثل شعبي يقول : تقتل اللبناني .. يطلع تاني ، - وهذا صحيح الى حد كبير - فالبناني .. مثل أى تاجر لا يعترف بالهزيمة مطلقا .. ويحاول دائما ان يبدأ من جديد . السوريون أيضا في كندا نجدهم غالبا يمارسون أعمال التجارة ولكن السوريين يقعون في منتصف المسافة بين اللبناني من ناحية والمصرى من ناحية اخرى ومن الطريف هنا اننى كنت كلما دقت النظر في حياة المهاجرين العرب كلما ذهبت الى كندا، كنت اكتشف أن الجميع هنا في كندا - يحملون صفات شعوبهم . يحملونها كل هذه المسافة .. وهى تطاردهم طوال هذه المسافة ..

فالمصرى يبحث عن العلم .. والسورى يبحث عن الشهرة ..
واللبناني يبحث عن المال ..
المصرى يريد الاستقرار .. والسورى يريد التغيير ..
واللبناني يريد الثروة ..
المصرى يحلم بالامن .. والسورى يحلم بالنفوذ .. واللبناني يحلم بمليون دولار ..
المصرى يتمنى راحة البال .. والسورى يتمنى راحة القلب ..
واللبناني يتمنى راحة الجيب ..
المصرى يعمل بعقله .. والسورى يعمل بصوته .. واللبناني يعمل بعقله ويده واسنانه ..
المصرى مثقف .. والسورى مجادل .. واللبناني متعب ..
المصرى يعبد الله .. والسورى يعبد الله وأسرته .. واللبناني يعبد الله ومحفظته ..
المصرى مطيع للسلطة .. والسورى متمرد على السلطة ..
واللبناني ثائر ضدها ..
المصرى قنوع .. والسورى متطالع .. واللبناني مجازف ..
المصرى مشدود الى ماضيه .. والسورى مشدود الى سمعته ..
واللبناني مشدود الى رصيده في البنك ..
المصرى في غناه يشتري منزلا .. السورى يشتري أرضا ..
اللبناني يشتري أسهما ..
المصرى ينفق الى آخر مليم في جيبه .. السورى ينفق الى آخر مليم في جيب أسرته .. اللبناني ينفق الى آخر مليم في جيوب الآخرين ..

المصري قد يحمل في جيبه صورة لوالدته .. السوري صورة
لابنه .. اللبناني لا يحمل صورة على الإطلاق ..
المصري يرضيه الثبات .. السوري يرضيه التطور .. اللبناني
ترضيه الفوضى ..
المصري موظف غالبا . والسوري تاجر أحيانا .. والنبناني
تاجر دائما ..
المصري محافظ عادة .. والسوري مغامر نادرا .. والنبناني
مغامر أبدا ..

فتأون نتيجة هذا كله هي :

اللبناني يفشل أحيانا . وينجح غالبا . والسوري .. ينجح
أحيانا .. ويفشل نادرا .. والمصري يعيش .. يعيش فقط !
و ... هذه هي أول نتيجة خرجت بها بعد التأمل في حياة
الـ ٨١ ألف مصري وسوري ولبناني .. الذين يعيشون في كندا .
وانت تلمس هذه النتيجة في طبيعة الأعمال التي يتجه إليها
أعضاء الجالية العربية في كندا : فاللبنانيون يمارسون الأعمال
التجارية ، ابتداء من البنوك والبورصة والمضاربة .. إلى إدارة
المطاعم والفنادق . والمصريون هم غالبا أساتذة في الجامعات ،
والمعاهد والمدارس ، وموظفون في الشركات وبعض مصالح الحكومة
.. أما السوريون فهم بين بين .

والواقع أن سمعة المصريين في كندا هي أمر يفخر به كل
مصري . فبشهادة رئيس وزراء مقاطعة كويبك نفسه ، فإن
الكنديين يرون أن المدرسين المصريين هناك هم أكفأ المدرسين
والاطباء المصريين هم أكفأ الاطباء وأبرزهم . وقد رأيت في مدرسة
واحدة بمدينة مونتريال ١٢ مدرسا مصريا .. من مجموع
المدرسين البالغ عددهم ٣٧ مدرسا !

بل انه حدث منذ خمس سنوات أن عمل طبيب مصري في
أحد المستشفيات القريب من مدينة مونتريال . وبعد خمس
سنوات وصل عدد الاطباء المصريين في المستشفى إلى ١٧ طبيبا .
لقد أصبح المستشفى « مستعمرة » مصرية خارج الحدود !
ان السبب في هذا بسيط : لقد أعجب مدير المستشفى بكفاءة
وأمانة الطبيب المصري الأول .. فطلب منه أن يرشح له طبيبا
مصريا ثانيا . وثالثا ورابعا .. مكان كل وظيفة تخلو في المستشفى
.. مما أدى في النهاية إلى هذه النتيجة .

x x x

والواقع ان هذه الظاهرة ترجع الى سببين :
فأولا : المصرى بطبعه موظف ممتاز . هذا عيب كبير فى المدى
الطويل ، ولكن هذا موضوع آخر . المهم .. ان المصرى منظم فى
عمله ، متقن له .

وبالإضافة الى هذا فان الثقافة المصرية أكثر شمولاً من ثقافات
أخرى كثيرة . فالمقارنة هنا تمثل المقارنة بين الثقافة الأوروبية
والثقافة الأمريكية . الأولى أكثر شمولاً والثانية أكثر تخصصاً .
الأولى تعطيك منقفيين والثانية تعطيك فنيين . الأولى تمتاز فى
العلوم الانسانية والثانية تمتاز فى العلوم التطبيقية والعملية .
وثانياً : يرجع السبب أيضاً فى ظهور كفاءة المصريين الى طبيعة
المجتمع الكندى نفسه . انه مجتمع يحترم الكفاءة ويتيح لها مجالا
واسعاً للعمل والتقدم . ونظراً لانه عبارة عن مجتمع من المهاجرين
فان المعيار الوحيد المعترف به لتمييز الافراد هو كفاءتهم .

وانت تلمس هذا فى أى مكان تتجه اليه فى كندا ، مع انك لن
تجد المصريين والعرب عموماً - فى أى مكان فى كندا .

ان العرب يتركزون فى مقاطعات معينة داخل كندا ، فى مدن
معينة داخل هذه المقاطعات .

انا نعلم ان كندا مقسمة سياسياً الى عشر مقاطعات هى :
نيوفاوندلاند - جزيرة برنس إدوارد - نوفا سكوتيا -
نيوبرونسويك - كويبك - أونتاريو - مانيتوبا - ساسكاتشوان
- البرتا - كولومبيا البريطانية ، ثم منطقتان إداريتان بعد ذلك
تديرهما الحكومة الفيدرالية ، ومن بينها المناطق الشمالية .

ومن بين المقاطعات العشر السابقة فاننا نجد بصفة عامة ان
معظم التركيز العربى يوجد الآن فى مقاطعة كويبك ، وبالذات فى
مدينة مونتريال . اما التجمع العربى الثانى فيوجد فى مقاطعة
أونتاريو . والتجمعان العربيان الثالث والرابع موجودان فى مقاطعة
البرتا ومقاطعة نوفا سكوتيا . ان ثمانية من كل عشرة مواطنين
عرب فى كندا يعيشون فى واحدة من هذه المقاطعات الأربع .
وبالنسبة للمهاجرين المبتدئين فان ٩٠ ٪ منهم يختارون عادة
مقاطعة كويبك أو أونتاريو بالذات مقراً لاقامتهم .

ومن بين العرب فى كندا ، نجد ان المصريين بالذات يتجهون
غالباً الى الحياة فى المدن ، وبالذات مونتريال .. تورنتو .. أوتاوا
.. ويندسور ، لندن ، أونتاريو ، أوفانكوفر .
ان هذا التركيز ساعد الجاليات العربية فى كندا على تنظيم

نشاط اجتماعي مستمر ومنتظم بين أعضائها . ان هذا لم يحدث بعد بصورة فعالة بالنسبة للمصريين ، ولكنه حدث بالنسبة للبنانيين والسوريين .

ونحن نستطيع ان نتابع هذا النشاط الذي تقوم به الجالية السورية اللبنانية بكندا في عدة مجالات بالتحديد ..
فاولا : هناك النشاط الاجتماعي الواسع ، الذي تلمس مظاهره في الحفلات التي يقيمها اللبنانيون والسوريون في مناسبة الاعياد القومية لبلادهم او في المناسبات العامة .

وثانيا : هناك الجريدة التي يصدرونها في كندا باسم (الشرق الاوسط في كندا) جريدة تصدر باللغات العربية والانجليزية والفرنسية ويمتلكها لبناني اسمه جوزيف لحود . صحيح انها جريدة بدائية جدا ولقتها ركيكة جدا وتدار بطريقة تجارية جدا .. ولكنها جريدة على أي حال !

وثالثا : هناك اللقاءات التي تتم في عطلة الاسبوع وحفلات عطلة الاسبوع والتي يكون مكانها المفضل هو الكنائس العربية والمساجد الاسلامية . ونظرا لان المساجد ما زالت نادرة جدا هناك فاني سوف اتحدث الان عن نشاط الكنيسة اولا .

× × ×

ان اول مايلفت النظر في نشاط الكنيسة العربية في كندا هما شخصيتان بالذات .. أولهما الاب جورج كورياتي ، ممثل الكنيسة الكاثوليكية اللبنانية في كندا . والثاني هو الاب روفائيل ممثل الكنيسة المصرية هناك .

ان القس كورياتي يعرف عددا كبيرا من العرب في كندا ، وبالذات معظم المقيمين في مدينة مونتريال . انه يقيم في كنيسة بمونتريال كنيسة ضخمة مسجل فيها ٢٥٠٠ أسرة أي ١٢٥٠٠ شخص تقريبا . والواقع ان وجود الاب كورياتي هناك ادى الى حل مشاكل كثيرة بالنسبة للمصريين بالذات الذين هاجروا الى كندا - مسلمين او مسيحيين .

فاولا - بالنسبة للمشاكل التي تواجه المصري المهاجر خلال ايامه الاولى من حيث الاقامة او الطعام يوفرون له مكانا مريحا للاقامة ووجبات رخيصة تسدد قيمتها عندما يبدأ في العمل .
وثانيا - بالنسبة لترجمة الوثائق الرسمية - الشهادات الجامعية وشهادات الزواج وال الميلاد مثلا - لابد من ترجمتها من

اللغة العربية الى اللغتين الانجليزية او الفرنسية او العكس .
عملية تتكلف ٢٥ دولارا للشهادة الواحدة . ولكن الاب كورياتى
يقوم بها مجانا والحكومة الكندية تعترف رسميا بترجمته . وقد
تبدو هذه المسألة تافهة ، ولكن لا يدرك مدى قيمتها الا من
هاجر فعلا واحتاج اليها عدة مرات .

ولقد قال لى الاب كورياتى عندما قابلته فى كنيسة بمونتريال
« اننا استضعفنا هنا مرة رئيس وزراء مقاطعة كويبك . ولقد عبر
الرجل فى خطابه يومها عن تقديره للثقافة الواسعة والكفاءة الممتازة
التي يتمتع بها المهاجرون المصريون . وقال فى خطابه ايضا ان
الرجل العادى فى كندا احس - من خلال المهاجرين المصريين - بأن
الشعب المصرى فعلا شعب صاحب حضارة عظيمة ويتمتع بثقافة
عالية . وانه يمتنى لو تضاعف عدد المهاجرين المصريين » .

ومن المؤكد أن السبب الرئيسى فى ذلك يرجع اولا الى تركيز
المصريين فى وظائف معينة وهامة داخل المجتمع الكندى ، منها مثلا
التدريس ، ففى وزارة التعليم هناك الآن خمسمائة مدرس عربى -
معظمهم مصريون - يقومون بتدريس اللغة الفرنسية فى مقاطعة
كويبك وحدها . هذا الرقم على مسئولية الاب كورياتى .

ولكن اذا كانت جذور المصريون فى كندا قد امتدت فقط الى
المدارس واجهزة التعليم ، فان اللبنانيين والسوريين - بسبب
هجرتهم المبكرة الى كندا - قد امتدت جذورهم الى اعماق من ذلك
ان احد المهاجرين العرب مثلا - الذين هم من اصل سورى قد
اصبح عضوا فى البرلمان الفيدرالى ، واسمه بير دبانى .

وهناك عضو اخر بمجلس الشيوخ الفيدرالى من اصل لبنانى
واسمه ميخائيل باشا . وقد اخبرنى الاب كورياتى ان الحكومة
الكندية اختارت قاضيا من الجالية العربية للفصل فى النزاع الذى
يكون أحد أعضاء الجالية طرفا فيه - على خلاف النظام المعمول
به هناك ، وذلك تعبيرا عن تقديرهم للجالية العربية فى كندا .

× × ×

**والشخصية الثانية المتصلة بالجالية المصرية بالذات على نطاق
واسع هو الاب روفائيل الذى اوفدته بطريركية الاقباط فى مصر
الى كندا سنة ١٩٦٧ لرعاية احوال المسيحيين الموجودين فى شمال
أمريكا . ان القس روفائيل حاصل على الدكتوراه فى الاجتماع من
فرنسا ، ويقوم حاليا بتمثيل الكنيسة المصرية فى كندا والولايات
المتحدة .**

وعندما زرت القس روفائيل في المرة الاولى بعد وصوله الى كندا بسنة واحدة ، كان مايزال مقيما في شقة ضيقة ، وبامكانيات محدودة للغاية . ثم زرته مرة أخرى بعد ذلك بسنتين . . فوجدته قد انتقل الى منزل جديد . منزل من دورين وسط مدينة مونتريال ، مجهز بالامكانيات اللازمة له لمباشرة عمله . وبعد أن كن يبحث عن المصريين المسيحيين في المرة الاولى ، أصبحوا هم يبحثون عنه في المرة الثانية ، وأصبح لديه جدول بالزيارات اليومية التي يقوم بها ، ومواعيد سفره المنتظمة الى المدن التي يتجمع فيها المصريون كل يومى سبت واحد .

وبالطبع مازالت هناك فجوة ضخمة بين النشاط الذي تستطيعه الجالية المصرية ، والنشاط الذي تستطيعه الجالية السورية واللبنانية . أن ضعف الامكانيات المادية ، وقلة العدد نسبيا ، وقصر المدة في كندا . . هي أسباب رئيسية في ذلك . ان الجالية اللبنانية السورية نفسها لم تبدأ نشاطا اجتماعيا موحدا الا بعد أن قضت في كندا أكثر من ثلاثين سنة .

لقد شكل اللبنانيون والسوريون جمعية لهم في سنة ١٩١٩ . لممارسة النشاط الاجتماعي والثقافي . جمعية احتفلت في سنة ١٩٦٩ بيوبيلها الفضى . وفي هذا الاحتفال بمرور خمسين سنة اقامت الجمعية عدة حفلات للطعام والرقص وجمع التبرعات ، وأصدرت كتابا اتيقنا ضخما اراه بين يدي الان . كتابا يبيعونه للاعضاء بأربعة دولارات . ويضم دليلا بعناوين وتليفونات أربعة الاف سوري ولبناني من أعضاء الجمعية المتمركزين في مونتريال ، أوتاوا ، وتورنتو .

والكتاب يبدأ بصورة خطاب من جون درابو عمدة مونتريال . . موجه الى رئيس الجمعية اللبنانية السورية الكندية . في الخطاب يقول العمدة ((اننى سعيد بالمشاركة مع الاصصدقاء العديدين بالجمعية اللبنانية السورية الكندية في تقديم التهاني القلبية منى ومن زملائي المواطنين في مناسبة العيد الخمسين لتأسيس هذه الجمعية . ان زملائي المواطنين نوى الاصل اللبناني والسوري قد ساهموا دائما في تقدم ونمو مدينتنا . ان احتفالاتهم بهذا العيد سوف تشهد بغير شك تقييما لانجازاتهم واملا في التحرك نحو اهداف جديدة . ان الجمعية اللبنانية السورية الكندية في كوبيك قد لعبت - من خلال نشاطاتها المتنوعة - دورا ديناميكيا في كثير

من الحركات الاجتماعية والثقافية . اننى اتمنى لها نجاحا دائما ومستمرًا .

ان نشاط الجمعية السورية اللبنانية في كندا لا يتم فقط من خلال ناديها في مونتريال ، وانما أيضا من خلال الجمعية المتفرعة عنها للسيدات اللبنانيات والسوريات في كندا . جمعية خيرية تشكلت هي الاخرى في سنة ١٩٣٠ .

وعندما قابلت رئيسة هذه الجمعية في مونتريال - واسمها مسز ايلي ابو سمرة قالت لى : « ان الحديث حول تشكيل هذه الجمعية بدأ في سنة ١٩٢٩ . حديثا بدأ على أساس حاجة الجالية اللبنانية السورية الى جمعية خيرية تقوم بتقديم المساعدات للأسر الفقيرة الموجودة . أو ارشاد ومساعدة المهاجرين الجدد الذين يصلون من الوطن . وقد تقرر تشكيل هذه الجمعية في اجتماع خاص حضرته ثلاثون سيدة ، برئاسة المرحومة السيدة نجلاء . وفي ذلك الاجتماع أعلنت السيدات ان هدفهن هو مساعدة المحتاجين من أسر المهاجرين السوريين واللبنانيين ، وانتخبن مسز ونيس عبد النور رئيسة لهن ، ومسز سليم الشامي نائبة للرئيس وحلدن رسم الاشتراك في الجمعية بثلاثة دولارات سنويا ، مع استخدام نادى الجمعية اللبنانية السورية في مونتريال مقرا لاجتماعاتهن نصف الشهرية »

واضافت مسز ايلي ابو سمرة : « اننى الان انتخبت رئيسة لجمعية السيدات هذه . لقد ارتفع رسم الاشتراك السنوى الى خمسة دولارات ، واصبح عدد عضوات الجمعية في مونتريال فقط يقترب من المائتى سيدة ، النسبة الاكبر منهن نشيطات ونشاط الجمعية يتم تمويله عن طريق الحفلات التى نقيمها للطعام والرقص وجمع التبرعات » .

وقبل أن أنسى ، أريد أن أسجل أن مسز ايلي ابو سمرة كانت تحدثنى معظم الوقت باللغة الانجليزية . انها حاولت في البداية التحدث باللغة العربية ، ولكن بعد كلمة او كلمتين استنجدت باللغة الانجليزية . انها تمثل الجيل الثانى من المهاجرين اللبنانيين في كندا . انه جيل ذاب أكثر في المجتمع الكندى ، ولا يحتفظ بصورة واضحة لوطنه الاصلى الا من خلال والدته . صورة تتركز معانيها دائما في الشعور بالحنين والشوق نحو الوطن الاصلى .

ومع انها سيدة خفيفة الدم جدا ، ومع انها الان مواطنة تحمل الجنسية الكندية - وتملك مع زوجها شركة ضخمة في مونتريال - الا ان اول شيء طلبته منى هو : قل لى آخر نكتة ! طلب تقليديا تسمعه من اى عربى عندما تقابله ، فالنكتة هى فن السخرية .. والحياة فى كندا لا تعطى وقتا حتى للسخرية !

ان الحياة فى كندا تعطى فقط وقتا للعمل ثم الراحة من العمل . وحتى الراحة من العمل هى فى الوقت نفسه استعداد لعمل اليوم التالى . انه مجتمع للمتحررين فقط .. العاملين فقط . النشطين فقط . انه مجتمع من المهاجرين ، والمهاجر بطبعه شخص نشيط كفاء ، متحرك ، ويحلم بثروة اكبر او مناخ افضل . ان ادراك هذه الحقيقة كان سببا فى اتجاد اللبنانيين والسوريين . ثم المصريين مؤخرا . الى كندا .

وكلما تعمقت اكثر فى حياة أعضاء الجاليات العربية فى كندا .. فان هذه الاعذار سوف تختفى من مسامعك : ممتاز ، ولكن متعبا متفوق .. لكن صغير . متطلع .. لكن مجازف . كفاء .. لكنه مغامر . ان النماذج السابقة من الاشخاص يرفضها مجتمعنا كثيرا انه يفضل عليها نماذج اخرى بلاطعم ولا لون .. ولا خطأ .. يفضل من لا يجرب ولا يفامر ولا يجازف ولا يثير مشاكل .

ولكن هذه النماذج نفسها هى التى تنجح فى كندا . ان المجتمع هناك يطلب منك ان تعمل اولا . العمل شاق . اذا عملت .. فستكافأ اذا تعلمت .. فستكسب .. اذا تفوقت .. فستتقدم اذا فكرت فستنجح .

اما اذا لم تفعل فبالوظيفة مقبرتك والجحيم مصيرك . ساعتها لن ينتظرك احد . لن يرحمك احد ، ساعتها لن تستطيع التقدم ، ولا حتى التراجع الى بلدك .. لكى يرحمك فيها احد .. و .. نحن الان قد بدأنا نتحدث عن المجتمع الكندى نفسه انه حديث طويل يحتاج الى فصل اخر لمناقشته .

نظرة على المجتمع الكندي يحدث في كندا فقط !



باختصار شديد، هذه هي كندا : الجد هندي .. الاب انجليزى .. الام فرنسية .. الابن المانى .. والزوج أمريكى . انه زواج بعقد عرفى . زواج غير موجود رسميا - حتى لا يردد الناس الاشاعات - ولكنه زواج فعلى . انه حقيقة ، امر واقع ، قدر لا مفر منه !

ان كندا اخذت ارضها من الهنود الحمر ، واخذت دستورها من بيطانيا ، ونشاطها من فرنسا ، ونظامها من المانيا ، ونقودها من أمريكا !

ان ميراثها هندي ، افكارها انجليزية ، طعامها فرنسى ، شوارعها المانية ، ثم حياتها كلها بعد ذلك .. أمريكية !
ان الحياة في كندا معناها في الواقع الحياة في أمريكا .. دون ان

تكون موجودا في واحدة من الولايات الخمسين بأمريكا . ان كندا هي الجار الشمالي للولايات المتحدة الأمريكية ، ومع ذلك فأنك في كندا تحس - مثلما أحس أنا - بأنك ما زلت في أمريكا .

فالرجل العادي بكندا يتحدث بلهجة أمريكية ، ويركب سيارة بويك أو بليموث أو ثندربيرد ، ويسير بها على طرق سريعة ، ويملأها بنفس نوع البنزين ، ويذهب الى السينما بسيارته ، وياكل الهامبرجر والسجق والفشار ، ويشاهد مسابقات الكرة في التليفزيون - أحيانا على نفس القناة الملونة التي تشاهدها أمريكا ، ويعيش في منزل مكيف ، بمطبخ عصري مجهز ، مطبخ تجد فيه دائما الثلاجة والسخان والخلط والبوتاجاز الاوتوماتيكي وغسالة الملابس وغسالة الاطباق ، ثم .. بعد هذا كله .. يحمل معه في أجازته مشواة لاعداد الطعام على الشاطيء .

ان الرجل الكندي يعيش اذن كأمريكي .. دون أن يكون أمريكيا حياة تتيح له امتيازات كثيرة ، ولكنه يدفع ثمنها أيضا . فالاجور أقل من أمريكا قليلا ، والجو أبرد من أمريكا قليلا ، والدولار الكندي أقل في قيمته من الدولار الأمريكي قليلا .

ومع ذلك .. فهذه هي الصيفة التي اختارتها كندا للحياة بجوار العملاق الأمريكي . لقد تزوجت كندا بأمريكا . زواجا مع وقف التنفيذ . ان الزوج والزوجة يعيش كل منهما في بيت مستقل . دولة مستقلة . الزوج يدفع الاموال ، والزوجة ترد اليه الارباح كل سنة . ارباحا ضخمة . ان حجم الاستثمارات الأمريكية في كندا وصل الى ثلاثة الاف مليون جنيه خلال السنوات العشر السابقة فقط .

فحينما تكون كندا هي الجار الشمالي للولايات المتحدة ، وحينما يكون شعبها عشرين مليونا .. بجوار شعب أمريكي يزيد عدده على ٢٠٠ مليون ، فلا بد أن يؤدي هذا الوضع الى وجود تأثير مستمر لصالح الدولة الاكبر ، وهي الولايات المتحدة . ولا بد أن تلاحظ هذا التأثير في مظاهر الحياة اليومية بكندا ، عندما تسافر اليها أول مرة .

× × ×

ان كندا بلد بعيد عنا بما يعادل ١٧ ساعة بالطائرة . انها تقع في قارة أمريكا الشمالية . سقف أمريكا وتقع شمال الولايات المتحدة الأمريكية . ان كندا هي ثاني بلاد العالم من حيث المساحة . معنى ذلك أن مساحتها اكبر من مساحة الصين الشعبية مثلا ، واكبر من

مساحة الولايات المتحدة نفسها . بل ان مساحة كندا تكاد تتساوى مع مساحة جميع الدول العربية ، بينما سكانها هم خمس سكان الدول العربية .

باختصار : مساحة كندا عشرة ملايين كيلو متر مربع وسكانها عشرون مليونا .

ان هذا العدد الضئيل من السكان لا يكاد يوحى بأن كندا يمكن ان تصبح ذات شأن في المستقبل . ولكن الحقيقة عكس ذلك تماما فلو استمر المجتمع الكندي بمعدل تقدمه الحالى فان القرن القادم سوف يكون قرنهم . حقيقة كانوا يلقنونها لاطفالهم فى المدارس منذ سنوات . المستقبل سوف يكون لهم . هذه الحقيقة تتأكد سنة بعد أخرى .. بالرغم من المشاكل الحضارية التى يواجهها شعب كندا .

من هذه المشاكل مثلا .. تعدد الثقافات التى تسعى للسيطرة على العقلية الكندية . هناك الثقافة الفرنسية من جانب والثقافتان الانجليزية والامريكية من جانب آخر . ونتيجة لهذا التنافس أصبحت كندا جسرا فوق الفجوة الثقافية بين أوروبا وأمريكا . أصبحت حلا وسطا بين الحضارة الأوروبية والتكنولوجيا الأمريكية ولكنه لم يصبح حلا الا مؤخرا فقط . فمن قبل ظلت المشكلة تواجه كندا لسنوات طويلة .

فالصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجلو سكسونية على أرض كندا يرجع الى ثلاثة قرون سابقة . ان كندا كانت أرضا مجهولة حتى نهاية القرن الخامس عشر . ثم بدأ الناس يذهبون الى كندا قادمين من أوروبا .. بحثا عن الثروة وأسلوب جديد فى الحياة . الفرنسيون ذهبوا أولا ، ثم الانجليز - لقد بدأ كل منهم يكتشف هذه الأرض المجهولة الواسعة ويضع لها الخرائط . وخلال فترة قصيرة أصبح خليج سنت لورنس فى كندا مدخلا لامبراطورية فرنسية جديدة فى أمريكا الشمالية .. بينما بريطانيا تقيم هى الأخرى امبراطورية ثانية لها فى الشمال الغربى من كندا .

وكان لابد فى النهاية ان يقع الصدام بين الامبراطوريتين . بين المهاجرين الفرنسيين والمهاجرين الانجليز أولا ، ثم بين الدولتين الحاميتين .

ان كندا - المولودة حديثا - هى موضوع هذا الصراع . لقد اختلف الأب - الانجليزى - مع الأم الفرنسية خلافا أدى الى

الطلاق . عندما وقع الطلاق بين الام والاب بدأ الخلاف على النقطة الرئيسية : من منهما له حق الوصاية على الطفل ، على كندا ؟ .

وبعد صراع طويل ومنافسة حادة بين بريطانيا وفرنسا .. انتهى الخلاف على مائدة مفاوضات . لقد ظهر خطر جديد قادم من الجنوب - من الولايات المتحدة - التي كانت تخوض غمار الحرب الاهلية بين شمالها وجنوبها ، وبدأ يلوح في الافق احتمال قيام الولايات المتحدة بغزو اراضي كندا او ضمها .. كعقاب لبريطانيا ضد مساعدتها للجنوب في الحرب الاهلية . عند هذا الحد أصدرت بريطانيا تشريعا سمي « قانون أمريكا الشمالية » بعد هذا القانون بدأ الاتحاد التدريجي بين المقاطعات الكندية . اتحاد فيدرالى انتهى الى قيام دولة كندا من المحيط الاطلنطى شرقا الى المحيط الباسيفيكي غربا .

ان هذا القانون صدر في اول يوليو سنة ١٨٦٧ . انه قانون تذكره كندا اليوم باعتباره يحمل قرار ميلادها . ان هذه - على ما اعتقد - هي اول دولة تحتفظ بشهادة ميلادها فى ارشيفها .. مكتوبة بالساعة والتاريخ !

× × ×

ومع ذلك .. فان شهادة الميلاد لم تحل المشكلة تماما . فحتى اليوم ما زلت تلمس فى كندا ذلك الصراع المستتر بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية . وفى وقت قريب انتشرت فى مقاطعة كويبك - أغلب سكانها من أصل فرنسى - دعوة للانفصال سياسيا عن كندا . وهذه الدعوة الحادة - هذا الخلاف الساخن - أدى الى وجود لغتين رسميتين الان فى كندا : الانجليزية والفرنسية . وأدى الى اعطاء فرصة متساوية للثقافة الفرنسية .. تواجه بها نفوذ الثقافة الانجلو سكسونية فى كندا . بل أنه حدث منذ سنوات قليلة أن قامت حكومة كندا بتغيير اسم شركة طيرانها من « ترانس كندا ايرلاينز » الى « اير كندا » لارضاء الفرنسيين .

ان هذا التعدد اللغوى والثقافى ليس هو المشكلة الوحيدة فى التعريف بكندا . فى الواقع أن التعريف بكندا هو امر صعب من نواح كثيرة . صعب لان كندا بلد واسع جدا ، متنوع جدا ، شعب مختلف فى أصوله جدا ، متعدد فى أسلوب حياته جدا .

ان حدود كندا مثلا تطل على المحيط الاطلنطى شرقا ثم المحيط الباسيفيكي غربا والمحيط القطبى شمالا .. عشرة ملايين كيلو متر

مربع . لهذا تجد ان الكنديين يسجلون اكبر رقم مكالمات تليفونية في العالم . هناك تليفون لكل شخصين ونصف شخص من السكان! ودرجات الحرارة في كندا متنوعة . اقلها ٢٥ تحت الصفر في أقصى الشمال ، واعلاها ٤٥ درجة مئوية (أى اكثر من حرارة أسوان) في الجنوب . تستطيع اذن ان تجد الصعيد في كندا .. او تجد القطب الشمالى .

والسكان في كندا مختلفون . انهم عشرون مليوناً - هذا صحيح ولكن ٤٠ ٪ منهم هم من اصل بريطانى .. ومن ثم فلفتهم الاولى هى الانجليزية ثم ٣٠ ٪ من السكان هم من اصل فرنسى .. ومن ثم فلفتهم الاولى هى الفرنسية . باقى السكان من جنسيات اخرى متعددة . الجالية الالمانية مثلا هى ثالث مجموعة سكانية من حيث الحجم .

ولقد كان يقال فى الماضى ان الانجليز والفرنسيين هما « الجنسان المؤسسان » لكندا . عبارة مضللة لان كلا من الفرنسيين والانجليز ينتميان للجنس القوقازى . وهى مضللة ايضا لان كندا - قبل الاكتشاف الاوروبى لها - كان يقطنها مجموعة من الهنود والاسكيمو .. كل منهم يعتبر جزءا من الارض مملوكا له .

ولان الانجليز والفرنسيين والالمان هم أهم ثلاث مجموعات سكانية فى المجتمع الكندى .. فان كلا منهم نقل الى كندا صفاته الاصالية . التى كنت اواجهها هناك من وقت لآخر .

والفرنسى : فردى ، عاطفى ، صافى الذهن ، متمرد ، تحصل منه على كل شىء عن طريق اعتزازه بكرامته .

والانجليزى : روتينى ، عنيد ، هادىء ، صبور ، لا يؤمن بالثورة ، يعبد التقاليد ، يتظاهر بأنه غبى ، وتحصل منه على كل شىء عن طريق شعوره بتأدية الواجب .

والالمانى : متشائم ، مطيع ، منطو ، حىوى ، كفاء ، محب لوطنه ، يعبد القوة .. وتحصل منه على كل شىء عن طريق شعوره بالمسئولية الاجتماعية .

لهذا أصبح المجتمع الكندى المعاصر خليطا مشتركا من هذه الشخصيات الثلاث ، زائد الشخصية الأمريكية .. التى سنتناولها بالتفصيل فيما بعد . وهنا يأتى الدور على عدة ملاحظات :

فاولا : مع أن مساحة كندا تغطى أكثر من نصف قارة أمريكا الشمالية .. إلا ان معظم سكان كندا بصفة عامة (٧٠ ٪)

يعيشون داخل مائة ميل فقط في جنوب كندا وشمال الولايات المتحدة . لان هذه المنطقة اكثر دفئا بالطبع واكثر قربا لامريكا .
وثانيا : ان مقاطعتي كويبك واونتاريو هما اكثر مقاطعتين في كندا ازدهاما بالسكان ، حيث يتركز فيهما حوالى ٦٤ ٪ من مجموع سكان كندا كلها .

وثالثا : ان معظم السكان القادمين من اصل فرنسى يتركزون في مقاطعة كويبك بكندا بينما معظم القادمين من اصل انجليزى يتركزون في مقاطعة اونتاريو ، ومقاطعة كولومبيا البريطانية .
والواقع ان بريطانيا تعيش في كندا في اكثر من هاتين المقاطعتين ولكن مقاطعة كولومبيا البريطانية بالذات تستطيع ان تلمس مظاهر الحياة الانجليزية امامك يوميا : شاي الساعة الخامسة في الابريق الفضية ، اطباق الكعك ، لعبة الجولف على مدار السنة .. الح .. ان السياح الامريكيين الذين لا يستطيعون عبور القارة ثم عبور الاطلنطى لزيارة انجلترا يجيئون الى هنا كبديل عن زيارة لندن .

اما فرنسا فانها تعيش داخل كندا في مقاطعة كويبك ، وبالذات في مدينة مونتريال بمقاطعة كويبك . ان مونتريال هى اكبر مدينة في كندا ، وهى رابع مدينة في قارة امريكا الشمالية كلها ، وهى اكبر مدينة في العالم تتحدث الفرنسية بعد باريس . في الواقع انهم يسمونها احيانا « باريس امريكا الشمالية » . ربما .
فالفتيات في مونتريال اجمل واكثر اناقة منهن في اى مكان آخر بكندا . والطعام في مونتريال هو ايضا احسن واكثر تنوعا ويقال ان عدد مطاعم مونتريال يصل الى اربعة آلاف مطعم ، بعضها له سمعة دولية . وحياة الليل في مونتريال هى ايضا اكثر تنوعا منها في كندا كلها .

وبالاضافة الى ذلك فان مونتريال فيها اكبر انتاج من اجهزة التليفزيون الفرنسية في اى مكان في العالم . وفيها ايضا يقام مهرجان دولى للافلام ينافس مهرجان نيويورك وسان فرانسيسكو وفيها ثلاث جامعات : جامعة ماكجيل ، وهى الاقدم وتتحدث الانجليزية .. ثم الجامعة الفرنسية الضخمة « جامعة مونتريال » .. ثم الجامعة الحديثة « جامعة السير جورج ويليامز » ذات المباني العصرية التى تشبه دكاكين البقالة .

ان مونتريال هى المدينة الوحيدة في كندا التى تستطيع ان تقف على قدم المساواة مع لندن ، نيويورك ، باريس ، طوكيو ،

أو سان فرانسيسكو .. كمدينة دولية مشيرة تحيا فيها بمتعة .
 انها مدينة يقل عمرها عن ٣٥٠ عاما ، ومع ذلك فهي واحدة من أسرع
 المدن تغيرا وتطورا في العالم . ان سكانها لايزيدون على ربع سكان
 مدينة نيويورك ، ومع ذلك فانها تصدر سنويا نفس عدد تراخيص
 البناء التي تصدرها مدينة نيويورك . ان مونتريال مدينة تتطور
 بسرعة ، تتغير بسرعة ، انها حقا لا تتغير - انها تنفجر ! ان
 المباني تنطلق فيها الى ارتفاع اربعين طابقا . تنطلق من الثقوب
 في الارض لتصبح ناطحات سحاب خلال اشهر قليلة .. ان رائحة
 غبار الاسمنت هي دائما في انفك حينما تسير في شوارع مونتريال
 ان منطقة المحلات التجارية في وسط مونتريال تختفى تدريجا
 لتصبح تحت الارض ، في حالة طلاق بينها وبين زحام السيارات
 وزحام الناس فوق الارض . وفي احد هذه المراكز المبنية تحت
 الارض - بلا سفل ماري - نجد المطاعم والمحلات والمسارح
 والمقاهي .. موجودة امامك تحت الارض بعيدا عن السيارات
 والاتوبيسات المتزاحمة في الشوارع فوق رأسك . ان احدت
 بورصة في العالم موجودة هنا - في مونتريال واحداث الطرق
 السريعة موجودة هنا - تحيط بمونتريال من جميع الاتجاهات .
 واسرع طريق الى نيويورك تستطيع ان تسير فيه من هنا (..)
 ميل ، واظرف السيدات تجدهن هنا ، مرتديات بلاطي الفراء
 يتجولن في المحلات ثم يشترين الشاي مساء في ريتز . من
 البلاطي التي ترتديها هؤلاء السيدات صنع احد الرجال ثروة
 ضخمة ، ثم مات . اسمه جيمس ماكجيل .. تاجر الفراء الذي
 ترك امواله لتأسيس جامعة سميت باسمه وهي الآن من
 احسن جامعات امريكا الشمالية .

ان مونتريال هي رمز لماضي كندا ، ففيها بدأ اول بنك واول
 سكة حديد ، اول باخرة .. وهي ايضا رمز لمستقبل كندا ..
 حيث احدث بورصة .. اكثر سكان .. احسن تعليم ..
 انشط ادارة ..

وتكن .. مع هذا كله .. فان مونتريال ليست هي كل كندا .
 في الواقع ان كندا تختلف كثيرا جدا عن مونتريال .. بل ان كندا
 الحالية تختلف جدا عن كندا التي سخر منها المفكر الفرنسي
 فولتير يوما عندما قال انها .. مجرد افلنة من الثلج .

ان الوحدة التقليدية للحياة في كندا هي القرية ، وليست
 المدينة .. صحيح ان هناك عددا من المدن الكبيرة في كندا ، ولكنها

تمثل استثناءات على قاعدة عامة . القاعدة هي انتشار القرى الصغيرة .. أو على الأصح .. المدن الوسط بين العاصمة والقرية بل أن مدينة أوتاوا - عاصمة كندا - هي مجرد قرية كبيرة . في مثل هذا المجتمع لا يمكن أن تكون غريبا .. فانت لا يمكن أن تشعر بالغربة داخل قرية صغيرة .. أن الصحف المحلية تنشر صورتك عندما تستخرج رخصة قيادة سيارة أو عندما تتزوج .. كخبر هام يستحق اهتمام الناس ..

أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تفاهم بها الكنديون مع مشكلة الحجم الضخم لبلدهم . أن الاحساس بأن شعب كندا هو شعب من التجمعات الصغيرة .. احساس يتأكد لديك كلما مررت خلال عدد من المدن الصغيرة عبر أطراف كندا .

تقد عشت عدة أيام في إحدى هذه المدن الصغيرة - مدينة شيربروج . عشت في منزل صديقي المعروف هناك الدكتور مصطفى الهلالي .. وبعد أن عشت في هذه المدينة الصغيرة بدأت أحس بمزايا جديدة .

ففي شيربروج ، مثلما في أي مدينة صغيرة أخرى في كندا ، تستطيع أن تجد الأسواق المحلية ، الجريدة المحلية ، الإذاعة المحلية ، أن هذه الإذاعات المحلية هي كلها نسخ كربونية متكررة من البرامج والإعلانات التجارية .. ومع خروجك بالسيارة من مدينة ودخولك إلى مدينة أخرى .. يختفى صوت إذاعة المدينة السابقة تدريجاً ، وتبدأ في سماع صوت الإذاعة المحلية الجديدة للمدينة التالية .. أنها تقول لك في إعلانها اشتر سيارة كبيرة بالسعر العادي .. وسوف نعطيك معها سيارة صغيرة مجاناً .. هكذا تحصل على سيارتين بسعر سيارة واحدة ، هكذا يقدمون لك الإعلانات المستمرة في المجتمع الكندي .

أن الحياة في المدن الصغيرة قد تكون أمراً مريحاً لأناس كثيرين ولكن بالنسبة لي شخصياً ، كان الملل يتسلل إلى بسرعة بعد عدة أيام . وفي كل مرة يحدث هذا ، كنت أحس أن أحسن شيء أستطيع أن أفعله هو أن أنزل إلى الشارع الرئيسي وأسير متفرجاً على الناس ..

وفي إحدى هذه المرات اقترب من رجل عجوز سألني : هل أنت متعلم ؟ ولم أعرف بماذا أرد ، فالسؤال يبدو غريباً . - هل أنت متعلم ؟ .. هكذا كرر الرجل سؤاله مرة أخرى .

ولاول وهلة تصورتها طريقة جديدة في الشحاذة ! ولكن الرجل
عندما يش من الحصول على اجابتي سألني : كم تساوى اربعين
عندما نجمعها اربع مرات ؟؟

وعندما فلت للرجل ((مائة وستين)) .. بدا عليه السرور
والانشراح .. لقد نركنى وهو يكرر لنفسه مندهشا مائة وستين
.. مائة وستين .. مائة وستين .. ما و .. !

وربما كانت هذه هى المرة الوحيدة التى سمعت فيها هذا
السؤال فى كندا .. فالتعليم فى كندا - التعليم المستمر - هو
شئ حيوى جدا .. ان صوت الراديو يعلن لك بانتظام ..
« لا تخلف » .. هذا شعار يتردد كثيرا .. ان الراديو يقول لك
« ان التعليم معناه النقود » .. تخرج من المدرسة العليا وسوف
تكسب أكثر .. ان الحكومة تقول لك سوف تدفع لك ستة
دولارات شهريا اعانة عن كل طفل لك تحت سن العاشرة . ثمانية
دولارات عن كل طفل تحت سن السادسة عشرة . بعدها سنوقف
الاعانات .. ولكن .. اذا استمر ابنك فى التعليم بعد سن السادسة
عشرة ، فسوف ترفع اعفاءاتك الضريبية بمقدار ٥٥ دولارا فى
السنة ! .

ان التعليم الابتدائى والثانوى مجانا فى كندا ، ومع ذلك فانهم
يقدمون هذه الاميازات لاغراء الناس على مواصلة التعليم انك
تلمس هذه النظرة العلمية للتعليم جنباً الى جنب مع بقايا النظرة
العاطفية للأمور . وهناك .. بقايا كثيرة من هذه العواطف فى كندا
اننى ما زلت اذكر شخصا معينا كنت اقابله فى الفندق الذى
نزلت به فى مدينة أوتاوا .. انه جرسون يعمل فى مطعم الفندق
وفى كل مرة اتناول فيها طعاما كان هذا الرجل يأتى الى ،
بابتسامة واسعة على شفثيه قائلا تحت أمرك يا سيدى . هذه
كلمات عادية . ولكن غير العادية هو ما يقوله بعد ذلك :
« هل أنت غريب يا سيدى . أهلا بك هنا .. هذه هى ارض
المستقبل .. أنت الآن فى كندا . ارض الاحلام . كلهم امامك هنا
يحلمون بشئ ما . ولكن قل لى او سمحت .. هل يعجبك طعامنا
هنا ؟ هل يعجبك حقا ؟ ثم .. هل تعجبك كندا ؟ ارجو أن تعجبك
يا سيدى ! انها لم تعجبني أنا عندما هاجرت الى هنا فى البداية ،
ولكننى بعد ذلك أحببتها ، عشقتها .. »

ان جورج - هو اسم الجرسون على ما أتذكر - كان يسألنى
كل يوم نفس السؤال بحماس شديد : ما رأيك فى كندا ؟

انه يقول السؤال .. ثم يدقق النظر في وجهى مراقبا اقل
تعبير ، اقل تغيير ، اقل اشارة ، اقل علامة .. كرد فعل ..
لسؤاله ، كما كان يقول لى سؤاله لاول مرة .. او كما لو كانت
الاجابة التى ساردها اقوالا ماثورة !

ولكن الكنديين هم عدد كبير من جورج هذا . انهم شغوفون
بمعرفة راي الآخرين فيهم ، انهم يسألونك على الطريقة الانجليزية
ويسمعونك على الطريقة الالمانية ، ويردون عليك على الطريقة
الفرنسية .

وربما كان هذا الاهتمام منهم بمعرفة راي الدنيا فيهم .. هو
بقايا لانعزالهم عن العالم .. انهم لم يعودوا منعزلين ، ولكنهم
كانوا كذلك فى وقت ما .. ان هذا الانعزال اثر على أشياء كثيرة
فى حياتهم . وحتى فى تفكيرهم ، ان الشخص الكندى العادى
يستطيع ان يجعل عقله مجموعة غرف مستقلة تماما عن بعضها
البعض فى كل غرفة موضوع او مشكلة .. وفى الغرفة المجاورة
موضوع مختلف تماما او مشكلة اخرى جدا ..

انك تلمس هذه الظاهرة اكثر فأكثر على المستوى الشخصى ..
لقد حدث لى مرة ان ركبت القطار من مونتريال الى اوتاوا . وفى
القطار جاء مقعدى بجوار سيدة شابة .. سيدة متزوجة ..
عمرها لا يزيد على الثلاثين .. عندما جلست انا كانت هى تقرا
كتابا وجهها جاد جدا ، عيناها على الكتاب تماما . عقلها مع كل
سطر تقرأه ، اصابعها على كل صفحة قلبها .

بعد خمس دقائق رفعت السيدة عيناها من على الكتاب .
وبدأت تسألنى . الان وجهها مشرق جدا ، عيناها لامعتان جدا ،
ابتسمتها واسعة جدا . خمس دقائق .. ثم الى الكتاب مرة
اخرى ، بعد عشر دقائق .. اغلقت السيدة الكتاب .. فى هذه
المرة اغلقتها نهائيا .. وبدأت تتحدث معى .. حديثا بدأ جادا
جدا .. وانتهى غير جاد جدا !

وفى كل مرة كنت اتحدث مع الشخص الكندى العادى كان يتأكد
عندى نفس الاحساس .. الاحساس بأنه سوف يقول .. الان
دعنا نضحك « فنضحك » .. الآن دعنا « نتناقش » اذن -
لا نضحك .. !

ربما كان الانعزال الجغرافى الذى عاشت فيه كندا قبل فترة
سببا فى ذلك .. ربما لم يكن . ولكن احساسى الشخصى ان له

علاقة . لقد ذهب الى كندا في البداية كل شخص مرفوض من
مجتمعة ومن ظروفه . لقد عاش هناك يصنع ظروفًا جديدة ..
عاش على ارض عذراء . وفي طقس يرفض الانسان ، طقس يرغبك
نصف السنة على أن تعيش في عزلة وتفكر في عزلة .

لقد ذهبت الى كندا اول مرة في شهر نوفمبر . ثانی مرة في
شهر يونيو .. فرق شاسع بين المراتين وبين الشهرين . في المرة
الاولی بداية الشتاء ، في المرة الثانية بداية الصيف .. بداية
الخروج الى الشوارع والاختلاط بالناس والحياة خارج المنزل .
هذا يحدث في الصيف فقط . أما في الشتاء فأنت وحدك داخل
غرفتك . داخل منزلك .. بعيدا عن البرد القارس في الشارع .

أذكر وأنا في أوتاوا اننى كنت احب كثيرا ان انظر من نافذة
غرفتي الى الشارع قبل لحظات من سقوط الظلام . ان السماء
تمطر ثلجا . والثلج على الارض ينعكس عليه لون اقرب الى
الزرقعة ، اقل قليلا من زرقة السماء . اننى ارى في الشارع اناسا
قليلين يسرون ببطء . سيارات كثيرة تعدو بسرعة .. ومن مكاني
في حجرتي كنت اشاهد المباني المواجهة . نوافذ زجاجية مغلقة
على ستائر خفيفة .. ستائر يبدو من داخلها قليل من الضوء في
لون برتقالي شاحب . لم يكن هناك صوت مجرد ثلج يتساقط .
مجرد سيارة تعبر الشارع بين لحظة واخرى .. وللحظات
قليلة في كل مرة أتصور نفسي في موسكو وليس في أوتاوا .
هكذا يصفون جو موسكو في الشتاء ..

ولقد كنت أتصور اننى عرفت شتاء كندا هذا : ثلج يلعب .
هواء تقى ، نسيمات جافة ولكننى لم أدرك كم كان هواء الشتاء هنا
جافا .. الى أن تركت قطعة خبز مرة في الغرفة ليلا . وفي
الصباح رايت قطعة الخبز ما زالت جافة .. ولكنها أصبحت
أكثر جفافا . أكثر جفافا من قطعة حديد !

وعندما كنت أشعر بالجفاف في فمى كنت اشرب كوبا من المياه،
أو انزل لاشرب كوبا من البيرة . ان الفندق الذى أنزل فيه به
مرقص وبار في الدور الاوضى .. انه كل ليلة مزدحم بالناس
والموسيقى والرقص .. ولكننى كرهت الاعتذار من عدم الرقص
كل ليلة ، ثم كرهت قدح البيرة ثم المنظر كله الذى يتكرر كل مساء
.. في هذه اللحظة يحس الانسان بالملل . وعندما لا يكون لدى فى
الحجرة ما أقرأه ، وعندما لا يمر على صديق . فأننى كنت أشعر
بوحدة قاتلة ..

ان هذا الشعور بالوحدة - هذا الاحساس بالعزلة - هو اول احساس يكتشفه المصرى فى نفسه عندما يذهب الى كندا مهاجرا ، او حتى زائرا . انه احساس يلزمه فى ايامه الاولى بالذات ، ايام البحث عن وظيفة ، عن فرصة عمل .

ولكن المصرى المهاجر لن يكون وحده الذى يشعر بهذا الاحساس . هناك مليونان ونصف مليون شخص آخر هاجروا الى كندا فى السنوات العشرين الاخيرة . وبدأوا حياتهم بهذا الاحساس . ان هذا العدد الضخم من المهاجرين - فى مثل تلك المدة القصيرة - جاءوا من مثل هذا العدد الكبير من الدول (٦٠ دولة) .. ربما لم يحدث فى تاريخ أى دولة أخرى .. الا كندا ان المغناطيس الذى جذب هؤلاء كان أولا : قطعة ارض . ثم بعد ذلك أصبح أسلوب حياة ، أسلوب تنظيم ، نظام عمل . ان الوصفة السحرية التى جذبت تلك الجنسيات المتنوعة الى كندا هى وصفة بسيطة بقدر ما هى معقدة : اعمل .. تكافأ ! اعمل اكثر .. تكافأ اكثر . تعلم .. تكسب . فكر . تتقدم .

لقد اكتشف المجتمع الكندى ان هذه الوصفة السحرية هى الحل الوحيد المتاح امامه لى يتقدم - فلاته مجتمع متنوع جغرافيا .. مختلف سكانيا .. متغير طبقيا .. فان المعيار الوحيد المفتوح امامه للتفرقة بين سكانه هو مقدار عملهم .

ان معنى ذلك بسيط : ان كل خبرة جديدة يكسبها المهاجر او المواطن فى كندا .. سترتب عليها أوتوماتيكيا زيادة فى دخله .. كل برنامج تعليمى يدخله .. يترتب عليه ترقية .. كل برنامج تدريبي ينجح فيه معناه فرصة اكبر ووظيفة افضل .

ولكن هذا معناه فى نفس الوقت : انك اذا لم تعمل ، اذا لم تتعلم ، اذا لم تتقدم ، اذا لم تنجح ، فلن يرحمك احد . لاوساطة لا اقدمية . لا اعذار . ان العمل مطلوب أولا ، ثم بعد ذلك المكافأة . التضحية أولا .. ثم تأتى النتيجة هل تريد مثالا على ذلك ؟ حسنا ..

ان أى مهاجر .. أى مواطن هنا - فى كندا - يستطيع امتلاك أى مساحة يريدونها من الارض مقابل دولار واحد . نعم بدولار واحد تستطيع ان تمتلك خمسين فداناً ، مائة فدان ، مائتى فدان .. انت ورغبتك .. هذه هى النتيجة . ولكن قبل الوصول الى هذه النتيجة هناك شروط .. فطبقا لقوانين تعمير الاراضى هنا فى كندا .. يستطيع أى شخص امتلاك أى مساحة

من الاراضى البعيدة عن المدن - حسب المناطق التى يحددها القانون - بشرط أن يعمرها بشكل ما خلال ثلاث سنوات . ان التعمر يبدأ من مجرد بنسء كوخ بسيط ، وينتهى الى زراعة هذه الارض الجديدة . هذا هو السبب فى انهم لن يحصلوا منك على ثمن لهذه الارض سوى دولار واحد . انهم يريدون تعمير المناطق البور . انها ليست مناطق نائية ، فبعضها لا يبعد عن مدينة مونتريال مثلا سوى ثلاثين كيلومترا . ولكن تعمير الاراضى الجديدة . امتلاك الاراضى الجديدة بدولار واحد .. هو نتيجة التضحية التى قمت بها انت مقدما . تضحية الحياة بعيدا عن القرن العشرين . بعيدا عن الحضارة ، بعيدا عن الاضواء والدفء والناس فى مونتريال .. بثلاثين كيلو مترا !

بهذه الطريقة اسبح لديهم فى كندا الان ١٧٤ مليون فدان من الاراضى المزروعة . اكرر : مائة واربعة وسبعون مليونا من الافدنة .. (لاحظ أن كل المساحة المزروعة فى مصر هى ستة ملايين فدان) .. ومع ذلك فان هناك ٤ مليون فدان اخرى من الاراضى الجاهزة للزراعة . ونظرا لضخامة الرقم ، فانى سأقوم من الان فصاعدا بكتابة الارقام بالحروف .. حتى لا يتصورها القارئ اخطاء مطبعية !!

القول : انه - بعد استبعاد المائة والاربعة والسبعين مليون فدان المزروعة فعلا والتى تمثل ٨ ٪ فقط من مساحة كندا الاجمالية، هناك أربعون مليون فدان فى كندا صالحة للزراعة فورا .. وعلى ذلك لا يزرعها أحد . وهناك بعد هذا كله ستون مليون فدان اخرى قابلة للاستصلاح الزراعى . وعلى ذلك ، لا أحد يزرع .. ولا أحد يستصلح .. السبب : نقص السكان . كيف يستطيع مجرد عشرين مليونا من السكان تعمير عشرة ملايين كيلو متر مربع ؟ مستحيل بعشرين مليونا !!

ان القرن العشرين يعطيهم فى كندا حلا جزئيا لهذا المشكلة . لقد أصبحت الزراعة فى كندا هى زراعة ميكانيكية وليست يدوية معنى ذلك أن الزراعة فى كندا هى مجرد صناعة اخرى . ونتيجة لذلك ، فانه منذ مائة سنة كان الحجم المتوسط للزراعة الواحدة فى كندا ٩٨ فدانا . الآن أصبح حجم المزرعة فى المتوسط ٣٥٩ فدانا . أن الميكنة والاستعانة بالالات هما السبب فى ذلك . ان تحول الزراعة الى صناعة هو سبب . فالزراعة فى كندا لا تعنى مجرد زراعة ، ولكنها تمتد لتشمل صناعات ضخمة قامت عليها .

صناعات مثل منتجات الالبان والدواجن والفواكه والخضراوات، انها زراعة - وصناعة تعتمد على الزراعة - لا تستخدم مجرد زراعة .. انها تستخدم اساسا متخصصين .. ابتداء من المهندسين الزراعيين الى العمال الفنيين .

لهذا السبب أصبحت كندا هي مخبز العالم : أكبر انتاج من الحبوب ، أكبر صادرات من المواشى .. أكبر صناعات غذائية .

ومع ذلك .. فان الزراعة ليست هي أهم مجال اقتصادي في كندا . في الواقع ان الزراعة لا يعمل بها في كندا سوى ٩ ٪ من القوى العاملة . انها - حتى - ليست أحسن مجال متاح للعمل داخل الاقتصاد الكندي .

ان الاقتصاد الكندي متنوع بقدر ما هو ضخم . انه يبدأ من تربية الماشية وصناعة الالبان وقطع الاخشاب الى استخراج الذهب والنحاس والفحم والبترول واليورانيوم ، الى صيد الاسماك وتوليد الكهرباء الى بناء السفن وصناعة السيارات والصلب

ان مثل هذا الاقتصاد ، مثل هذا التنوع الصناعي . يحتاج الى درجات متنوعة من الكفاءات . يحتاج مثلا الى محاسبين ، معماريين كيميائيين ، أطباء ، أطباء أسنان ، رسامين ، أمناء مكتبات ، ممرضات ، مهندسين ، صيادلة : مدرسين ، جيولوجيين ، علماء في الرياضة ، الذرة .. الخ ..

ومن ناحية أخرى .. فان التنوع يستدعي أيضا درجات عالية من الخبرة والتخصص . ولكن هذه ليست مشكلة في كندا . فهناك برامج تدريبية وعلمية متنوعة تعطيك الخبرة المطلوبة في كل شيء .. ابتداء من آخر تطورات صناعة الصلب .. الى آخر تطورات صناعة الأزياء ! .

ان البحث عن عمل في كندا اذن ليس هو المشكلة . فاذا كانت القضية هي البحث عن عمل - أي عمل - فان كندا بها الاف الاعمال الشاغرة التي تستوعب مائة مليون مهاجر جديد على الأقل ، وبالإضافة الى العشرين مليوناً الموجودين حالياً .

هناك أعمال في كل مدينة ، كل قرية ، كل شارع ، كل ركن . لقد تعرفت عند مهاجر مصري وزوجته بفتاة كندية اسمها كريستين . عمرها ١٦ سنة . طالبة في المرحلة الثانوية . ان مرتبها مائتا دولار في الشهر . كل ما تفعله هو الوقوف ٤ ساعات

كل يوم في موقف سيارات بمدينة مونتريال . تأخذ منك سيارتك لكي تدبر لها مكانا وسط السيارات الواقفة . هذا هو كل شيء . مع ملاحظة أن المائتي دولار لا يدخل فيها البقشيش الذي يدفعه لها أصحاب السيارات .

وإذا كانت القضية هي البحث عن - أي عمل - فانك تستطيع شراء أو استئجار قطعة أرض في أي مدينة لكي يستعملها الناس كموقف للسيارات . لامباني ولا استثمارات . مجرد قطعة تنتظر فيها السيارات وتدفع رسوما بالساعة في مقابل انتظارها . إذا نجحت في إيجاد مثل هذه الأرض . فالنتيجة هي دخل شهري لا يقل عن خمسة آلاف دولار .

وإذا كانت القضية هي البحث عن وظيفة - أي وظيفة - فانك تستطيع أن تعمل سكرتيرا - أو سكرتيرة إذا كنت فتاة . كل الشروط المطلوبة هي أن تكون درستك حتى الثانوية وأن تجيد الانجليزية والفرنسية وتعمل من الساعة التاسعة صباحا حتى الخامسة مساء ، مع اجازة يومين في الاسبوع . الاجر في هذه الحالة أربعمائة دولار شهريا . هكذا فعلت فتاة مصرية اسمها منى تعمل حاليًا في أوتاوا ، بالإضافة الى زوجها المهندس .

المهم . . ان البداية ليست مشكلة . وهي عادة ما تكون بداية متواضعة جدا ، الى أن يستطيع المهاجر أن يندمج في المجتمع الكندي . القضية انن ليست العمل . . ولكن القضية هي : أي نوع من العمل ؟ ان الهجرة فن . . أو مشكلة . ان استعداد المهاجر مقدما للاندماج في المجتمع الجديد . . ان دراسته السابقة لحضارة هذا المجتمع وعاداته وتقاليده . . ان تمكنه من اللغات السائدة في هذا المجتمع . . ان استعداده للعمل الشاق المضني المتواصل وعدم الاستقرار لمدة سنة على الأقل . . كل ذلك يجعل الهجرة بالنسبة له في النهاية خطوة الى الامام .

ولكن المهاجر الجديد لن يستطيع التقدم الى الامام الا اذا عرف أولا : كيف يبحث عن عمل .

لقد قابلت عددا من الذين فشلوا بعد هجرتهم في الحصول على عمل . عدد قليل ولكنهم فشلوا على أي حال . وفي كل مرة كنت أجد أسبابا خاصة بكل حالة - طبعا - ولكن هناك دائما أمرا مشتركا ان البحث عن عمل هو في حد ذاته . . فن ! انه فن يختلف من مجتمع الى مجتمع ، ولكن جوهره في النهاية يبقى واحدا . ان

البحث عن عمل معناه انك تبحث عن مشتر لكفاءتك ، لخبرتك
لأوهلاتك . ومادام انه عملية بيع وشراء . . فلا بد أن يتوقف سعر
البيع في النهاية على مدى دراسة البائع مقسما لحالة المشتريين
وظروفهم واحتياجاتهم . . بالإضافة الى فهمه للظروف العامة ،
والافكار العامة في هذا المجتمع كله .

— لقد رايت في كندا وأمريكا مكاتب متخصصة في التدريب على شيء
واحد : كيف تبحث عن عمل . انها مكاتب متخصصة والاقبال عليها
ضخم . . انها لا تبحث عن عمل . . ولكنها تعلمك كيف تبحث أنت
لنفسك عن عمل . انها مكاتب منتشرة — ليس فقط لان هنالك
سيلا مستمرا من الذين يريدون العمل لأول مرة ، ولكن لان معظم
الناس . . حتى الذين يعملون فعلا . . يواجهون في وقت ما من
حياتهم مشكلة البحث عن عمل أفضل ، أو تغيير لعملهم الحالي .

ولقد دفعني حب الاستطلاع مرة الى دراسة المحاضرات التي
يعطونها في أحد هذه المكاتب بمدينة مونتريال في كندا . ان جوهر
المحاضرات يعتمد على نقاط قليلة .

انهم أولا يقنعونك بأن فرصة العمل هي دائما موجودة في السوق .
فما دام لا يوجد كساد ، فان هناك وظائف جديدة ، وظائف تخلق ،
وظائف تتغير .

انهم يقنعونك ثانيا بأن البحث عن عمل ليس بحثا ، ولكنه عمل
في حد ذاته . انك لا تستطيع أن تعتبر أيام بحثك عن عمل أيام
أجازة . . او حتى نصف أجازة . انك عندما تعمل في وظيفة . .
فانك تعمل فيها . ٤ ساعة أسبوعيا . . وعندما تبحث عن وظيفة
فيجب ألا تعمل . ٤ ساعة فقط ، ولكن خمسين ، ستين ، سبعين .

انهم يقنعونك بعد ذلك بأن عليك أن تحلل خبرتك وقدرتك .
لا بد أن تعرف بالضبط ما الذي تستطيعه ، وما الذي لا تستطيعه .

ويقنعونك أيضا بأن عليك دائما أن ترفع مستواك وخبرتك
وتدريبك . ويشرحون لك فائدة ذلك هكذا : ان الشاب العادي الذي
وصل عمره الى ٢٥ سنة أمامه في المتوسط ثمانون ألف ساعة
عمل باقية في عمره المتوقع . والرجل العادي الذي يبلغ عمره ٤٥
سنة ، مازال أمامه أربعون ألف ساعة عمل . انك اذا استطعت
— بالتعليم والتدريب — أن ترفع أجرك عن الساعة الواحدة

بمقدار دولار واحد فمعنى ذلك أنك سترفع دخلك بمقدار ثمانية آلاف دولار ! .

وهم ينبهونك بعد ذلك الى أن من المهم جدا أن تكتب ملخصا لمؤهلاتك وخبرتك . ملخصا تكتبه في ورقة أو ورقتين على الآلة الكاتبة . ملخصا تكتبه على أساس أنه قائمة بأعمالك ومهارتك . وتعهده بشكل تعرض فيه نفسك وخبرتك . . الخبرة اللاحقة تكتبها أولا ، والاقدم تكتبها أخيرا . مع ملاحظة أنه من الضروري أن تذكر أشياء محددة . . ومختصرة .

وهم يطلبون منك بعد ذلك أن تدرس سوق العمل واقتصادياته . . فانت حينما تملك خبرة ، تريد بيع هذه الخبرة المحددة لطرف آخر وتكسب منها . ولو تصورت أنك المشتري فلا بد أن تتذكر أنك عندما تشتري سلعة من محل ما . . فأنك تشتريها لأنك تحتاج إليها . . وليس لأنك تريد مجاملة البائع . وهكذا ، فلن أى شركة لن تعطيك عملا ، الا اذا كانت تحتاج خبرتك .

وفي النهاية يقولون لك نقطة هامة : لا تكتف بالذهاب الى مكاتب الاستخدام أو وكالات التوظيف . ان كل بناء جديد تراه في الطريق ، كل صديق تعرفه ، هو مصدر لك للسؤال عن الاعمال الجديدة أو الاعمال الشاغرة .

X X X

هذا هو جوهر ما يدرسونه في تلك المكاتب التي دخلت بعضها في أمريكا وكندا . ان ما يقولون لا يزيد عن مجموعة من البديهيات . . ولكنها بديهيات ينساها كثير من الناس الذين يهاجرون الى الخارج . ناس قابلت بعضهم هنا - في كندا .

ومع ذلك . . فانتى افترض ان دراسة حالات الذين نجحوا في العمل ، الذين نجحوا فعلا ، هي التي يمكن أن تعطينا خبرة بالمشاكل التي أحصرها ، والنتائج التي وصلوا اليها أيضا تعطينا فكرة محددة عن مدى استعداد الشخصية المصرية للتكيف مع ظروف وافكار مجتمع أجنبي .

عند هذا الحد . . يصح أن تنتقل من فحص المجتمع الكندي . . الى فحص حالات المصريين الذين نجحوا فعلا داخل المجتمع الكندي .

امراة .. بعد منتصف الليل !



منتصف الليل هو قطعا وقت غير مناسب لزيارة امرأة محترمة تعيش وحدها في منزلها . انه وقت غير مناسب ابدا . ماذا يقول الناس .. ماذا يقول الجيران ؟ أى قدر من الضرر يصيبها في سمعتها عندما يهمس جيرانها لبعضهم البعض . لقد فتحت نادية بابشقتها امس لشاب .. بعد منتصف الليل ؟ !

وليت الناس يقولون عن نادية هذه الكلمات فقط .

فلكى اجعل انا الامور اسوأ بالنسبة لها ، طلبتها في التليفون قبل منتصف الليل بساعة واحدة وقلت لها : اننى لا اعرف الطريق الى منزلك . لهذا سوف اصحب معى اثنين من اصدقائى . الان اصبحنا ثلاثة . تصور ؟ ثلاثة رجال يزورون امرأة شابة

في منزلها بعد منتصف الليل ؟ ومع امرأة مثل نادية .. امرأة
بمثل هذا الشباب ، مثل هذا الجمال ، مثل هذا الصوت الرقيق
في التليفون .. فلا بد أن يتوقع الإنسان اعتراضات كثيرة من
الناس عليها . اعتراضات من الناس .. وهمسات من الجيران ..
واشاعات من الاصدقاء .

ان افكارا كهذه كانت تدور في راسي وأنا متوجه مع صديقي في
السيارة الى منزل نادية ، ان نادية هي امرأة مصرية تعيش
وحدها مع طفليها الصغيرين في شقة تستأجرها بضواحي مدينة
مونتريال . امرأة في سن التاسعة والعشرين او امرأة مصرية تهاجر
وحدها الى كندا .

ولم يكن هناك مفر من أن اذهب الى نادية في منزلها في منتصف
الليل . فلقد كنت على موعد لمغادرة مونتريال في الصباح المبكر من
اليوم التالي .

ولم يكن هناك مفر ايضا من أن اذهب اليها مع صديقي ..
فالطريق من مونتريال الى الضاحية التي تسكن فيها نادية يستغرق
ثلاثة ارباع الساعة بالسيارة .. « تطلع على طول .. تدخل شمال
.. ترجع لليمين .. بعد الميدان الى الطريق السريع .. من المدخل
السادس تتجه يميننا .. ثم يسارا .. ثم » .. لست اعرف شيئا
في هذا كله .. خذ يا أحمد التليفون لو سمحت ، واعرف هذا
العنوان .. لا مؤاخذه يا نادية .. ان أحمد صديقي .. وسوف
أحضر في سيارته مع صديق ثالث .. »

ولم تستطع نادية أن تقول شيئا . لم تقل نعم ، ولم تقل لا .
أمر واقم . لقد قالت العنوان لأحمد في التليفون بكلمات مترددة
وصوت أقرب الى الندم منه الى الثقة .

ان المرأة التي تعيش وحدها لا توافق على زيارة رجال غرباء لها
في شقتها في مطلع النهار ، فما بالك بمنتصف الليل ؟!

ولكن كنت أعلم انني تركت هذه الاخلاقيات المريضة خلفي في
مصر . لقد تركتها أنا كزائر . ولكن نادية تركتها كمهاجرة .. وهذه
بالضبط هي النقطة التي بدأت عندها حياة نادية تلفت نظري .
ان نادية - هكذا يحلو الحديث مع فنجان شاي داخل شقتها
الانيقة في الطابق الثاني من العمارة - تتمتع بطول ملحوظ في قوامها
وتقاطيع متناسقة في وجهها وشعر طويل على رأسها ومسئولية
ثقيلة على اكتافها .

انها من مواليد الاسكندرية . واحدة من هؤلاء الفتيات الجميلات التى كانت المجلات فى مصر تنشر صورها على الغلاف فى اعداد الصيف . انها بحكم رغبتها - التحقت بكلية آداب الاسكندرية . وهى - بحكم جمانها - تزوجت مبكرا وهى ما تزال فى السنة الثانية . تزوجت فى سنة ١٩٦١ من عضو مجلس ادارة فى شركة السيوف للاراضى بالاسكندرية وقبل ان تحصل ناديه الليسانس فى يدها سنة ١٩٦٥ كانت قد شعرت بالحمل فى داخلها مرتين - فأنجبت طفلين : سامى ، وزيزى . هل تستطيع الفتاة ان تكون اما فى تلك السن المبكرة ؟ هذه الايام ؟ لست ادرى .. ولكن هذا ما حدث فى حالة ناديه . فى الواقع ان ما حدث لها بعد ذلك كمن أسوأ .. فبعد سنة واحدة من تخرجها توفى زوجها .. توفى سنة ١٩٦٥

انها الآن أرملة . انها أرملة فى سن الخامسة والعشرين ، هذا عمرها يوم مات زوجها . من هنا بالضبط سوف تنقلب حياتها رأسا على عقب . لقد كانت سعيدة مع زوجها ، سعيدة مع أسرتها ، سعيدة مع مجتمعها . ولكن .. مادام زوجها توفى .. وما دام الرجل اختفى من حياتها ، فيجب ان يعود المجتمع الى محاسبتها كامرأة .

ولكنها الان ليست مجرد امرأة . انها أرملة . واحدة من هؤلاء السيدات اللاتى يتوقع منهن المجتمع اسلوبا خاصا فى الحياة ، وطريقة خاصة فى الحديث .. وقيودا خاصة فى التعامل مع الناس

من الآن فصاعدا أصبحت ناديه أرملة . واحدة من هؤلاء اللاتى يراقبن المجتمع ٢٤ ساعة فى اليوم .. ويفرض عليهن حصاره وازمهن بوصاياه .. ويطلب منهن طاعته .. ويسحب منهن حق الحياة ٢٤ ساعة فى اليوم .

من الآن ، من هذه الدقيقة .. منذ أصبحت ناديه أرملة .. فان المجتمع سوف يحاسبها فى كل يوم مرتين : مرة كامرأة ومرة كأرملة . ان الحياة بالنسبة لها يجب ان تقتصر على أربعة جدران . يجب ان تقتصر على مجرد الطعام . انها تأكل جيدا ، تلبس جيدا ، وهذا يكفى .. انه يكفى من وجهة نظر المجتمع فى مصر .. لكى تكون المرأة مستريحة البال فى سن الخامسة والعشرين . انها نصف حياة ، ريع حياة ، انها ليست حياة على الاطلاق .. ولكن هذا لا يهم .. ليس من حق المرأة فى أى شئ أكثر من العلف الذى يعطيه لها المجتمع .. فالمرأة هنا - فى مصر - يجب ان

تعلم أن مهمتها .. كل مهمتها في الحياة - هي أن تطبخ ..
تغسل .. تكنس .. تنظف .. تلبس .. ترعى الاولاد ..
وتغشى الله .. واشاعات الناس . اذا خرجت الى الشارع
فالحراس بجانبها ، والرقباء خلفها ، وكلام الناس في ذيلها .
اذا تحدثت مع شخص غريب .. فالخطيئة هدفها ، والجحيم
مصريها والنار جزاؤها والحبس عقابها .. ان هذه الوصاية من
المجتمع هي شيء تفرضه التقاليد ، شيء يفرضه الناس ، يفرضه
القانون .

ان نادية أرملة .. وأم لطفلين .. ولكن الوصاية على طفلها
لا بد أن تكون بحكم القانون .. من حق أهل زوجها أن الاولاد
هم اولادها هي ، انها أمهم ، ولكن من قال ان الأم تستطيع أن
ترعى اولادها ؟ من قال ان الأم تستطيع أن تهتم بأولادها ؟ ان
القانون في مصر لا يقول ذلك .. يقول فقط ان أهل الزوج
يستطيعون رعاية الاولاد أفضل من أمهم .. ويقول أيضا ان الأم
اذا أرادت أن تسافر الى الخارج - مجرد زيارة - فلا بد أن يوافق
أهل الزوج .. كتابيا وأمام شهود .. على سفر الاولاد معها ..
القانون .. قانون . ان القانون يعرف عن الاولاد أكثر مما تعرف
أمهم .. ان الأم مثقفة تخرجت من الجامعة .. ولكن القانون
ليست فيه الجامعة . انها تريد أن تسافر في الصيف مرة الى
لبنان .. ولكن القانون ليس في لبنان .. القانون فيه فقط :
الاسكندرية !!

ان شيئا من هذا القبيل كان يدور في رأس نادية وهي تستقل
الطائرة .. مع اولادها - متجهة الى زيارة قصيرة في لبنان .
زيارة سياحية . ان الاولاد معها في الطائرة . سامي وزيزي .
ولكن هذا لم يحدث الا بعد مفاوضات ومناقشات ومداولات مع
أهل الزوج . مداولات انتهت الى تنازل خطير من أهل الزوج :
لقد قرروا أن يوافقوا على سفر الاولاد مع أمهم بشرط أن تكون
المدة هي ١٥ يوما فقط . مبروك !

ولكن نادية فكرت كثيرا بعد الـ ١٥ يوما . فكرت قبل أن
تعود مع اولادها الى الاسكندرية . هل تعود من جديد لكي تصبح
أما .. مع وقف التنفيذ ! هل تعود من جديد الى كلام الناس
وهمسات الناس واشاعات الناس ؟ ممكن .. غير ممكن ..
غير ممكن .. نعم .. غير ممكن .. القرار : لا عودة .. القرار :
العمل في الخارج . القرار : الهجرة . القرار : الهجرة الى كندا !

هكذا بدأت نادية تعد أوراقها للهجرة الى كندا . انها تخرجت من قسم اللغة الانجليزية بآداب الاسكندرية . ولا بد انها سوف تجد - بشكل ما - عملا تعمل به طفلها في كندا . لقد استطاعت أن تعمل في لبنان - معلمة في مدرسة داخلية ببيروت حتى تستكمل أوراق هجرتها الى كندا . ألن تستطيع ذلك في كندا ؟ شيء واحد يحسم الموضوع كله : طائرة الى كندا .

هكذا ذهبت نادية الى كندا . الى مونتريال في كندا . كان اليوم هو ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ ، يوم الثلاثاء . يوم مشرق ، مشمس ، مبشر بالامل .

ان نادية هي - فيما أعلم - أول امرأة تجيء الى هنا طالبة الحرية بدلا من الزواج . انها هنا . هنا فقط - يجب ان تتعلم كيف تعيش بغير زوج . بغير رجل ، بغير كتف تبكي عليها . لا أحد هنا يبكي على أحد . الناس هنا - في كندا تعمل فقط . تعمل او تموت !

وبشعور الامل هذا بدأت نادية تبحث عن عمل في مونتريال بكندا . انها تفعل ذلك دون أن تعرف احدا على الاطلاق ، او شيئا على الاطلاق في كندا !

ان أول شيء حدث معها في الايام الاربعة العظيمة الاولى لها في كندا كان - لا شيء . لا عمل ! مصيبة . كارثة . انها ليست كارثة بالنسبة لها فقط . ولكن - أهم من ذلك جدا - انها كارثة بالنسبة لطفلها . سامي الذي أصبح عمره الآن خمس سنوات ، ويزي . ثلاث سنوات . ان نادية هنا - في مونتريال تستطيع أن تحصل على الحرية ولكنها - أيضا تستطيع أن تحصل على الجوع . على الفقر . انها ربما تستطيع لأول مرة أن تجوع . ولكن الاولاد ؟ الاولاد . انهم هم ثقل . عبء . مسئولية . ان هذه المسئولية هي كل ما يشغل رأسها في كل مرة تبحث فيها عن عمل بشركة او مؤسسة في مونتريال . لقد تحولت مسئولية الاولاد في رأسها الى مفص . نعم . مفص تشعر به يوميا . مفص . وتقلص في الامعاء . وصراع مستمر .

ولكن نادية تذكر شيئا هاما . لقد تذكرت ان الاستقلال عن الرجل - الاستقلال عن شخص يحمل همومها - هو امر يتطلب صمودا وشجاعة . ان المرأة لا تصبح شجاعة بمجرد

نصيحة تسمعها من الآخرين • انها تصبح شجاعة ، حرة ، مستقلة ، لانها تريد أن تكون شجاعة ، حرة ، مستقلة • • • عندما يصبح الانسان حرا ، مستقلا ، فانه لا يقبل التنازل عن استقلاله أبدا • • لا يمكن • • مستحيل • •

عند هذا الحد فقط بدأت نادية تحس بطاقة جديدة في داخلها • طاقة تدفعها الى عدم اليأس • الى الامل ، الى مواصلة البحث عن عمل • • ان البحث عن عمل هو الآن • • عملها • • انها تتصرف كما لو كانت تملك عشرة رؤوس وعشرين يدا ، مع انها لا تملك سوى عقل واحد • • عقل امرأة • • ويدين اثنتين ، كل واحدة منهما تمسك بواحد من طفليها •

ولان الله يعلم قوانين الاحوال الشخصية في مصر • • فقد رزقها بعمل في خلال أسبوع واحد من وصولها • • انها لم تستطع أن تعمل مدرسة ، فالمدارس مغلقة بسبب أجازة الصيف • ولكنها استطاعت أن تعمل سكرتيرة • نعم سكرتيرة بمرتب ٣٧٥ دولارا في الشهر • • هذه أول ٣٧٥ دولارا - أول دولار واحد - تحصل عليه هنا من عملها هي • • انه ليس مبلغا تأخذه من جيب زوجها • • ليس نفقه تأخذها بحكم القانون ، ليست اعانة • • انه مرتب • • قيمة عمل • • الآن فقط تستطيع نادية أن تقول انها مستقلة • • الآن فقط تستطيع أن تقول انها حرة ولكن • • مع الحرية يأتي ضيف آخر • • ضيف لا بد منه • • مع الحرية تأتي • • المسئولية ان تصبح حرا معناه في نفس الوقت أن تكون مسئولا • • ان نادية الآن حرة ولكن حريتها تعني أيضا انها أصبحت مسئولة عن نفسها ، وعن اولادها • مسئولة عن الحصول على احترام الناس لها كإنسانة ، قبل أن تحصل على اعجابهم كامرأة •

ان شيئا من هذا كان يدور في رأس نادية عندما قدمت طلبات للعمل كمدرسة • الى أن استطاعت بعد ثلاثة شهور أن تصبح فعلا مدرسة • • بسبعة آلاف دولار مرتبا سنويا • • انها اذن تعيش في شقتها الخاصة مع طفليها • • شقة في إحدى تلك العمارات المتناثرة في شارع « سبرنج جاردن » إحدى ضواحي مونتريال « نفس الشقة التي ذهبت اليها فيها مع صديقي المصريين المقيمين بمونتريال » • ولقد ذهبت الى نادية فقط بعد أن سمعت عنها ما يدعونني الى احترامها سمعت ذلك من الاب روفائيل ممثل الكنيسة المصرية في

مونتريال . وسمعت ذلك ايضا من الناس . ان الناس هنا لا يشهشون سمعة بعضهم . الناس هنا . ناس .. لا وقت هنا للثرثرة او الاشاعات او الهمسات . وحتى لو ذهبت الى ناديه في شقتها بعد منتصف الليل ، مع رجلين آخرين غريبين ، فان المجتمع لن يلوك سمعتها بالسنته في الصباح التالي . ان المجتمع هنا يهتم بالمضمون فقط .. والجوهر فقط ، وليس الشكل .

ان سمعة ناديه هنا ، في مونتريال - هي مزيج من الاثنين . الشكل والجوهر . انها هنا نموذج لامرأة مصرية . امرأة عادية . انها عادية عندنا ، ولكنها لم تكن عادية عندهم هنا ابدا ماواوها في مدرستها . ان زميلاتنا المدرسات تعجبن قائلات لها : « مصرية ؟ .. هل أنت مصرية ؟ هل في مصر نساء يتكلمن الانجليزية هكذا ؟ انك .. حتى تلعبين بينج بونج .. هسل تعرفين في مصر البينج بونج ؟ .. مش معقول ؟! »

ولكن ناديه فعلت في مونتريال اشياء كثيرة غير معقولة . او - على الاصح - اشياء لم تكن تبدو لها معقولة من قبل . انها الآن تستطيع أن تعتمد على نفسها . وتستطيع ان تأخذ الأولاد في نزهة يومى السبت والاحد وتستطيع ان تتحدث معك كرجل لرجل ولكنها لاتستطيع القدوم الى مصر في زيارة ! نعم لاتستطيع .. لأنه لابد لها - هكذا تعتقد - ان تأخذ موافقة كتابية على صحبة اولادها عند خروجها من مصر عائدة الى كندا . نعم لاتستطيع .. فالقوانين في مصر لاتصبح قوانين الا عندما تتعلق بالمرأة . قبل ان يتعلق القانون بالمرأة . يمكن ان يتحول الى اى شيء .. ولكن مع المرأة فقط . يصبح القانون .. قانونا .. انه قانون لايعرف في كندا ، ولا مونتريال بكندا . قانون لايرحم .. وناس لايرحم

- « .. أرجوك .. لا داعى لان تكتب عنى في مصر .. لن يصدق الناس . انهم يصدقون الاشياء السيئة فقط » !!
وقلت لنادية : « ان الناس ام تقل عنك شيئا سيئا في كندا . هل يفعل الناس ذلك في مصر ؟! »

في الواقع اننى لم اكن اوجه السؤال لنادية ، ولكننى كنت اوجهه لى نفسى .. فعندما تذكرت فقط اننى ارتكبت جريمة . تذكرت اننى اصطحبت معى رجلين غريبين ، واننا جميعا زرنا ناديه في شقتها بعد منتصف الليل ، واننى فوق هذا كله تكلمت عنها باعتبارها ناديه .. فقط .. ناديه .. ثم نقطة بعد ذلك !

ولكن . .

بعض الناس تستطيع أن تناديهم فوراً باسمهم الأول . ان ناديه واحدة منهم . . انها واحدة من هؤلاء الذين تنجذب اليهم بسرعة . ليس لانك تعرفهم من قبل . . ولكن لانك تحترمهم . انك تحترمهم من قلبك . . بحيث يصبح لديك - مثلى - حب استطلاع . انك تعود اليهم مرة ومرة لكي تدرسهم . وكلما درستهم اكثر ، نشأ في داخلي شعور بالتعاطف معهم . شعور كان غائبا عني في البداية ولكنه استمر معي حتى اللحظة الأخيرة . حتى الثانية صباحا . . عندما خرجت من شقة ناديه مودعا لها في هسلوء . . حتى لا يستيقظ طفلاها من نومهما .

هكذا عدت الى السيارة مع صديقي المصريين اللذين صحبتهما معي . . عدنا الى السيارة انبحث من جديد عن طريق عودتنا الى مونتريال : الى الامام حتى الطريق الرئيسي - ثم يسارا ، ثم اتجه يمينا من المدخل السادس . . الى الطريق السريع حتى الميدان . . ثم يمينا . . فأما . . فيسارا الى . . الى . . الى أين ؟! هكذا بلدنا نتشاور . . أنا وصديقاى اللذان يحيطان بى كساندويتش داخل السيارة ساندويتش من الأزواج ، فإكرام واحمد كلاهما متزوج . . انهما اثنان من المصريين المهاجرين الناجحين المقيمين في مدينة مونتريال . إكرام ، سمسار في البورصة . . واحمد مدرس ثانوى .

وفي لحظة واحدة اتفقنا جميعا : نذهب الى بيت إكرام . .

انفقنا على ذلك ، لان هناك مهمة عاجلة تنتظرنا في بيت إكرام . . مهمة عاجلة جدا وضرورية جدا . . سماع اسطوانات أم كلثوم ! ان اسطوانات أم كلثوم موجودة في أماكن مصرية كثيرة في مونتريال . ولكن أهمها بالنسبة لى مكانان اثنان ؟ أحد المطاعم المملوكة للعرب . ولكنه مطعم مغلق بعد منتصف الليل ، والمكان الثانى هر منزل صديقى إكرام . . ان إكرام سمسار صباحا . . ومستمع لام كلثوم ليلا . . هذه وظيفته . .

اننى سوف أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى لقاءنا كل ليلة في المطعم العربى ، ولقاءنا تلك الليلة في منزل إكرام . . ان شقة إكرام صغيرة . . ولكنها كانت في تلك الليلة كبيرة جدا بالنسبة لنا ، لان إكرام يمتلك عدة شرائط سجل عليها أحدث أغانى أم كلثوم . (أحدث هنا تساوى عشر سنوات مضت ؟)

لقد وصلنا الى شقة اكرام ، أحمد وأنا .. ثم .. بدانا .. كما يحدث دائما في المطعم العربي ، بدانا نستمع الى صوت أم كلثوم . شيء واحد اجمعنا عليه : ان بلادنا كلها تعيش في هذا الصوت . نيل مصر ، جبال لبنان ، تلال الاردن ، لهيب الجزائر ، سحر المغرب حضارة بغداد ، وتاريخ القاهرة بعمق المحيط ، صفاء ، السلاء اتساع الصحراء ..

واحيانا كان هذا كله يختفى عندما يتعطل جهاز التسجيل . لحظتها يسكت هذا كله . يتحول الى صدى . ذكرى . أمل . والى أن ينجح احدنا في اصلاح الجهاز .. فان كل لحظة كانت تزن فوقنا كجبل .. ثم .. يعود الصوت . تعود بلادى ، بلاده .. بلادها ، بلادنا ..

« أرجوك .. » هكذا يقول لى اكرام وأحمد في لحظة واحدة . « أرجوك .. ان تكتب عن أملنا هذا . لقد لمست بنفسك في زيارتك لاعضاء الجالية العربية هنا : ان أم كلثوم بالنسبة لنا ليست مجرد مطربة تغنى .. انها قطعة من بلادنا . انها رمز لبلادنا اننا نرجوك ، لو رأيت أم كلثوم .. ان تنقل اليها رجاءنا بان تقيم لنا حفلة هنا .. اننا ٨١ ألف مغترب .. ولكن حفلة واحدة لام كلثوم هي تحقيق ل ٨١ ألف أمنية - ٨١ ألف أمل . ان أم كلثوم بالنسبة لنا ليست قضية غنائية .. انها قضية وطنية .. »

ان الوطنية هي التي دفعت أحمد البطريق - صديقى الجالس معنا الآن - الى الدخول مرة في معركة بالايدي هنا - في مونتريال مع حفنة من اليهود الصهيونيين المغتصبين . بالمناسبة : في كندا ربع مليون يهودى .

ان المعركة التي خاضها أحمد كانت مع ١٢ يهوديا صهيونيا . معركة كانت فيها اصابات ونزيف ودماء وبوليس و .. و .. ولكن أحمد لم يفعل ذلك الا بعد وصوله الى كندا بثلاث سنوات .. نعم .. ثلاث سنوات ..

قبل هذه السنوات الثلاث كان أحمد موظفا بشركة السكر بالحوامدية في الصعيد . مجرد موظف . انه رئيس لاحدى ورديات انتاج السكر في الشركة .. ولكنه موظف .. هذا ما كان أحمد يحلم به على أى حال .. طوال دراسته بمدرسة الليسيه في مصر الجديدة ومعهد الساليزيات الايطالى في القاهرة . كان أحمد يريد الوظيفة لان عقله كان مع شيء آخر .. مع لعبة كرة اليد . انها هوايته . هواية اصبحت فيها لاعبا دوليا يمثل بها مصر في بطولة البحر الابيض

المتوسط وفي الدورة العالمية بموسكو وفي كل منتخب مصرى دولى يسافر الى الخارج .

ولكن الرياضة لاتستطيع ان تكمل لاحمد النقص فى مرتبه . . ان مرتبه فى شركة السكر وصل الى ٣٢ جنيها . هذا هو الرقم الذى تزوج عنده احمد فى بداية سنة ١٩٦٤ . الآن اصبح زوجا ، اصبح عليه ان يتأكد كل يوم من ان النقود مازال فى جيبه . عندما كان احمد اعزب لم تكن المسألة تهم كثيرا . انه يأكل وينام مجانا عند والدته و « . . برضه لما الحكاية تزق قوى الواحد يأخذ من ماما اسعافات مالية » . . اسعافات لاترد طبعا .

ولكن هذا لا يحدث حينما يكون الانسان زوجا . . حينما تصبح زوجا ، تصبح رب أسرة تصبح مسئولا فلا بد ان تشغلك كثيرا مسألة المرتب . انها تشغلك ٣٢ يوما كل شهر و ٢٥ ساعة كل يوم . . ولان احمد هو مجرد موظف ، فالمرتب محسوب مقدما محسوب لمدة سنة قادمة ، عشرين سنة قادمة ، عشرين سنة قادمة . . ! ثم . . فكر احمد فى الهجرة . . عندما فكر فى الهجرة الى كندا كانت المسألة فى رأسه بمثل هذه البساطة « . . الواحد يروح يعمل قرشين ويرجع ثاتى بعد كام سنة » .

كانت هذه هى الفكرة التى تحل راس احمد . رغم انه وصل بخمسة عشر دولارا فقط فى جيبه ، الى مونتريال يوم ١٤ مايو سنة ١٩٦٤ . . لقد وصل وهو لا يملك سوى اللغة الفرنسية التى يجيدها بسبب دراسته ، وخبرته فى شركة السكر ، وال ١٥ دولارا التى يحملها فى جيبه . . انه لم يخرج من مصر ب ١٥ دولارا . فى الواقع انه خرج بمائتى دلاور . . ولكن مثلما يحدث دائما مع كل مهاجر . . لم يستطع احمد ان يحتفظ بالمائتى دولار فى جيبه حتى يصل الى كندا . . عندما توقفت الطائرة فى بلجيكا نزل احمد هناك ليقضى اسبوعين كسائح . اسبوعين لم يبق معه بعدهما سوى خمسة عشر دولارا كيف يفعل ذلك ؟ كيف يجرؤ على ذلك ؟ هل ينهل احد ذلك ؟ نعم . المصريون يفعلون !! ان هذا عمل جنونى بالنسبة لشخص مهاجر . . شخص مازال امامه مستقبل مجهول لم يواجهه بعد . . شخص لابد ان . . ان . . ولكن مافائدة ذلك الان ان مافات مات ! هذا ما حدث مع احمد على اى حال !

ان ما حدث مع احمد بعد ذلك شبيه فى قصة سابقة بطلها مصطفى عزام (تذكره) ؟ . . ولكن الفارق هنا بسيط : ان احمد استطاع بمساعدة ادارة الهجرة فى مونتريال . . ان يجد عملا بعد ثلاثة ايام

فقط من وصوله .. مسألة شاذة لأتحدث الا نادرا ، ولكنها .. حدثت ..

الآن أصبح أحمد موظفا .. انهم جديد رئيس ووردية، ولكن في ادارة كهرباء كوبيك انها ادارة حكومية .. والمرتب فيها ٧١٠٠ دولار في السنة . ولكن .. لكن .. احمد يريد أن يعمل مدرسا . بالذات .. مدرس ! .. لماذا يا أحمد تصر على التدريس بالذات انه وظيفة متعبة .. ؟

« نعم .. متعبة .. ولكنها مضمونة .. فيها استقرار ، وفيها أمن . عندما تصبح مدرسا فانت تصبح فعلا موظف حكومة . مرتبك غير قابل للخصم وانت غير قابل للفصل و .. انت تفهم طبعاً !! »
نعم .. انا افهم .. ألم اقل من قبل ان المصرى قد يطوف العالم كله ، قد يغير عمله ومستقبله ، قد يسافر ، يهاجر . ولكنه فى النهاية يريد ان يكون موظفا !! ان احمد حصل على وظيفة التدريس بعد سنة ونصف من عمله فى ادارة الكهرباء . عندما بدأها أصبح مرتبه ٦٩٠٠ دولار فى السنة ، مرتب اقل من مرتبه فى ادارة الكهرباء .. ولكن هذا لا يهم .. ان المهم فقط هو انها وظيفة حكومية .. وظيفة فى ادارة المدارس الحكومية بمونتريال .. وظيفة تسمح لاحمد باعطاء ١٨ حصة فقط فى الاسبوع .. وثلاثة اشهر اجازة صغيرة كل سنة .

عند هذا الحد فقط ، بعد هذا الضمان فقط ، يستطيع أحمد أن يحس الاستقرار بالطمأنينة ، عند هذا الحد يستطيع أن يستدعى زوجته التى تركها خلفه فى القاهرة .

ان ماتوقعه أحمد أن يحدث معه ، ولم يحدث ، حدث مع زوجته . لقد وصلت الى مونتريال . شهر . شهران .. ستة اشهر .. سنة و .. لا عمل ! انه هو الذى لا يريد ان يعمل . يكفى ان يعمل هو . ولكن .. ان الزوجة . ترى كل من حولها يعمل ، لا أحد حولها .. لا زوجة .. ولا أم ولا فتاة .. تبقى فى المنزل طوال اليوم فى انتظار زوجها .. ان الحياة هنا تصبح كومة هائلة من الملل عندما يكون هناك عمل ! . الطبخ ليس عملاً ، الكنس ليس عملاً ، الغسيل ليس عملاً ، تنظيف البيت ليس عملاً .. انها جميعا اعمال تنجزها الآلات فى ساعة واحدة .. ماذا تفعل الزوجة الآن فى ال ٢٣ ساعة الباقية كل يوم ؟! لابد من عمل .. لابد من عمل ..

هكذا وافق أحمد أخيراً على أن يعمل زوجته .. من الاسبوع التالى مباشرة كانت الزوجة تعمل مضيغة فى فندق هيلتون مونتريال، أربعة آلاف دولار مرتب فى السنة .

نعم . . بدأ المجتمع هنا يفرض طابعه على الزوجين . . لا أحد هنا يتوقف أبداً على ماهو عليه . لابد أن تتعلم كل يوم شيئاً جديداً ، تكسب مهارة جديدة . تحصل على خبرة جديدة هكذا التحقت الزوجة لمدة تسعة أشهر ببرنامج علاجي للأمراض الجلدية والتحق الزوج ببرنامج تدريبي في التربية البدنية بجامعة مونتريال للحصول على شهادة تعادل البكالوريوس . النتيجة غيرت الزوجة عملها لتصبح معالجة في مستشفى « جريجورى » بمونتريال . زاد المرتب الى ٥١٠٠ دولار في السنة .

النتيجة الثانية : زاد مرتب أحمد في المدرسة الى ٧٩٠٠ دولار في السنة .

النتيجة الثالثة : حصل أحمد على عمل اضافي بالمعرض الدولي في مونتريال . عمل يقوم به في غير وقت عمله الصباحي كمدرس . لقد عمل مشرفاً على أجنحة عديدة . أجنحة من بينها : جناح بورما ، تايلاند ، الجزائر ، المغرب ، وجناح الجمهورية العربية المتحدة . المرتب : ١١ ألف دولار في السنة .

ثم . . عندهذه النقطة تذكر أحمد شيئاً هاماً . تذكر أنني صامت خلال الدقائق الخمس الأخيرة .

— لماذا أنت صامت ؟

هكذا سألتني . ولكن لم أستطع أن أجيب على السؤال . قطعاً كان هناك شيء ما يشغلني عن الكلام . لم يكن مرتب أحمد وزوجته هو ما يشغلني . مرتب يدخل في مجموعة الى ٢٤ ألف دولار في السنة . ولم تكن النتيجة التي حققها أحمد وزوجته هي التي شغلتنى . نتيجة تستحق التقدير .

ان ما شغلني قبل هذا كله كان شخصية أحمد نفسه وهو يتكلم انه يتكلم ، ويتكلم وجهه البريء . . وشعره القصير . . وحاجباه الكثيفان . . ونظارته الطبية . . وجسمه الممتلئ . . انه جسم مصارع أكثر منه جسم مدرس . داخل هذا الجسم ، تحت هذا تستطيع أن تكتشف في أحمد انساناً آخر . انساناً طيباً . انساناً صريح الكلمات ، صافي القلب ، أمين التعبير الى درجة مدهشة ، انه مصري . بالضبط — فلاح مصري . ليس هذا ذماً . هذا منتهى المدح . فمع ان أحمد — من مواليد محافظة الشرقية بالذات من الابراهيمية في الشرقية ، الا انه تعبير حي عن الشخصية المصرية التقليدية التي تقابلها في الطريق كل يوم . انه بسيط ، ساخن الدماء ، بوجهه طفل فوق جسم شاب وعقل عجوز .

انه يقول لى : « تعرف انا تعبت هنا فى البداية من ايه ؟ كل واحد فى حاله .. فى مصر كنا غير كده . كنا شلة اصدقاء كأننا اخوات .. اللى فى جيبى فى جيبك . هنا مفيش كده . الصداقة هنا هى مجرد زمالة .

» .. انا اول عمارة سكنت فيها لم اسمع جارا يقول لى عندما اقبله . صباح الخير ! تسعة شهور مضت قبل ان اسمع هاتين الكلمتين : صباح الخير ..

» .. انا يا اخى مش عارف ليه احنا وقفنا الاشتراك فى المعرض الدولى بمونتريال جناحنا كان شىء يفرح .. الواحد كان بيعس بالفخر كلما دخل رأى صورة عبدالناصر فى المدخل .. بينى وبينك ، انا اتعمدت اعلقها فى مدخل الجناح علشان تغيظ اليهود .. دلوقت مفيش جناح .. طيب ياناس ؟ الصورة ؟ احنا عاوزين الصورة .. « تعرف .. ؟ اليهود هاجمونا فى الجناح المصرى مرة فى شهر يونيو سنة ١٩٦٧ . كان رابع يوم الحرب .. الساعة كانت سبعة مساء . وفجأة ١٢ واحد دخلوا يهاجمونا فى الجناح . كنا ثلاثة . صديق مدرس مغربى اسمه على حسين ، وصديق ثان وانا .. اول مادخلوا بدأوا يكسروا فى الجناح و .. نزلوا فىنا ضرب .. لكن .. مع مين يا أخ ؟ وشرفك .. كلها ثلث ساعة كنا مشرحينهم ! ولما وصل البوليس شافهم مليانين جروح ونزيف والارض كلها دم .. دمهم طبعا .. « انا صحيح اخذت الان الجنسية الكندية ، ولكن ما زلت مصرياً ... »

هكذا بدأ احمد حديثه عن شلة الاصدقاء ، وانتهى به الى الجنسية الكندية ، جنسية حصل عليها بعد خمس سنوات من عمله فى كندا ، والواقع انه لم تكن هناك جنسية كندية منذ حوالى ربع قرن مضى .. فقبل ان تصدر كندا قانون الجنسية فى اول سنة ١٩٤٧ ، لم تكن كلمة « كندى » تعنى شيئاً محدداً ، او واضحاً . فى البداية كان المواطن الكندى يعتبر فى حكم الرعايا البريطانيين ، واحياناً لم يكن يعتبر كذلك .

ولكن ، منذ سنة ١٩٤٧ - اصبحت الشخص الكندى « هو الشخص الذى يولد فى كندا ، او يولد فى الخارج لاب كندى ، او يتجنس بالجنسية الكندية . لكى تحصل على الجنسية الكندية ، لابد ان نقيم فى كندا خمس سنوات على الاقل ، بشرط ان تكون مقيماً فى كندا بصفة دائمة فى السنة الاخيرة .

ان هذا الوقت الذى استغرقه تنظيم الجنسية الكندية كان فى الواقع رمزا لمشكلة « تحقيق الشخصية » التى عاشتها كندا حتى

فترة قريبة فقط . فالدولة - أي دولة - لا يمكن أن تستحق هذه التسمية لمجرد أنها تجمع عددا من الافراد يعيشون داخل حدود سياسية . ان الشعور بالانتماء لجنسية دولة معينة ، ليس مجرد مفهوم قانوني . ان سكان الدولة يجب أن يكون لديهم شعور مشترك ، شعور بصفاتهم المشتركة .. وتجربة تاريخية يحسون أنها تجربتهم .. انهم يجب بكلمات أخرى - أن يكون لديهم تصور جماعي يفسرون بهماضيهم ويشكلون مستقبلهم .. اذا لم يوجد هذا الشعور فان الدولة تظل غير قائمة على أسس ثابتة راسخة .

ان هذه الاسس الثابتة الراسخة لم يبدأ ثوابرها في المجتمع الكندي الا قريبا فقط .. بسبب العوامل المتصارعة التي احاطت - وما زالت تحيط - بالمجتمع الكندي .

ان عضوية كندا الطويلة في الامبراطورية البريطانية .. ان قربها من الولايات المتحدة، ان الانتقال الدائم للناس والافكار عبر الحدود .. ان التبعية الاقتصادية - لبريطانيا أولا ثم لأمريكا - ان تنوعها الثقافي الداخلي .. ان حجمها الجغرافي الواسع والمتنوع .. كل هذا أدى في النهاية الى تأخر ظهور ما يمكن أن نسميه بـ « الشخصية الكندية » أو حتى « الجنسية الكندية » .. ان الثقافتين الرئيسيتين اللتين تتصارعان داخل المجتمع الكندي لا تشتركان حتى في لغة واحدة احدهما فرنسية والاخرى انجليزية .. ان أحسن جامعة في كندا - جامعة ماكجيل - تقدم لك العلوم بأفكار كندية وخبرات دولية وأموال أمريكية . بل انه حتى الطعام الكندي .. هو عبارة عن مجموعة من أطعمة لجانليات وأذواق تجمعت في كندا .. هناك الطعام الفرنسي ، الصيني ، الهندي ، الايطالي ، الاسباني ، و .. الهامبيرجر .. ان المهم أن كندا تقدم لك المادة الخام التي تريد أن تطبخ منها أي شيء ، انها تقدم لك الحوخ والفلفل والطيور والملوخية والبامية و ١٥٠ نوعا مختلفا من الاسماك !

لهذا السبب بالذات فان المطاعم في المدن الكبرى بكندا هي محل مريح للغاية .. ومع ذلك .. فأننى لم أجد في كندا سوى مصرى واحد صاحب مطعم .. انه مواطن مصرى هاجر الى كندا سنة ١٩٦٤ .. بالتحديد في شهر أغسطس . اسمه جورج سعد .. ان كل ما حمله جورج من مصر هو ١٣٥ دولارا أمريكيا و ٣٦٤ فرنكا سويسريا و ٥٥٠ ماركا ألمانيا (مجموع هذا كله لا يزيد عن مائة وخمسين جنيها مصريا) .

وبدا جورج حياته بافتتاح مطعم في مونتريال . في خلال سنة باع مطعمه بعشرة آلاف دولار . ثم قام بتأسيس مطعم آخر اسمه « على بابا » يساوى الآن عشرين ألف دولار . ان جورج يقدم في هذا المطعم - مع مصرية اخرى اسمها اندريا - اى مأكولات مصرية تريدها . فول مدمس ، فلافل ، كشرى ، بصارة ، ملوخية ، بامية . الخ . بعضها عبارة عن معلبات مستوردة من مصر - وبعضها خضراوات مزروعة في كندا ، وفي بعض الاحيان يقدم لك جورج كبيبة شامية ، أو هامبرجر انجليزى أو سجق امريكى ، أو اسماكا كندية !

من أحد أنواع هذه الاسماك صنع لنا مضيفنا الليلة - صديقى اكرام عبد الحميد - وجبة خفيفة . فى الواقع لم يكن اكرام هو الذى أعد الوجبة . فالانسان فى سن الـ ٣٧ لا يستطيع أن يطبخ لنفسه شيئا . ولكن أعدتها زوجته وقسمتها والدته التى تعيش معها .

ان اكرام - وزوجته المهذبة - يستطيع ان يأكل اى شيء بشرط أن يسمع أم كلثوم أولا . اننا الآن نأكل وجبة سمك . على صوت تسجيلات أم كلثوم . ديكور . لزوم القعدة . لزوم البقاء بأجسامنا فى كندا والانتقال بعقولنا الى مصر . لقد كنت دائما أرى اكرام يأكل لحوما ويسمع « انت الحب » . يأكل فول مدمس ويسمع « ألف ليلة وليلة » . يأكل بصارة ويسمع « انت عمرى » . يأكل طعمية ويسمع « اسأل روحك » . يأكل خوخ ويسمع « الاطلال » . يأكل بطيخ ويسمع « موت الايام » .

ان التسجيلات الحديثة لاغانى أم كلثوم لم تصل الا منذ يومين اثنين فقط . لقد وصلته مع صديق له يعمل فى مؤسسة الطيران العربية . ان اكرام نفسه كان يعمل من قبل فى الطيران العربية . اكرام كان طيارا . ومع ذلك فان أول عمل بدأ به حياته فى كندا منذ خمس سنوات هو مخزنجى . نعم مخزنجى . مجرد أمين مخازن فى شركة للاسطوانات . ان أجره كان سبعين دولارا فى الاسبوع (وهو أجر متواضع جدا بمقاييس الاجور فى كندا) . بعد شهرين أصبح رئيسا للمخزن . شهرين آخرين . ثم عمل كبائع فى محل لبيع الموبيليات . برنامج تدريبى لمدة ستة أشهر فى الأزياء ثم انتقل اكرام الى العمل مديرا لقسم الأزياء الحریمی فى محل آخر . هل تعلم ماذا يعمل اكرام الآن ؟

سمسارا .. انه يعمل سمسارا في بورصة مونتريال .. وعندما ذهبت اليه في المرة الثانية كنت أريد أن أتأكد بعد أنه ما زال سمسارا ولم يصبح عالما في الذرة مثلا !!

لقد تضاعف دخل اكرام مرات عديدة بعد عمله الجديد كسمسار ولكن الواقع أن تغيير العمل في كندا هو أمر ضروري . فالمجتمع يقنعك هنا بأن الهدوء بديل عن الموت ، وأن الحركة هي دليل الحياة .. ان الحركة تعنى أشياء كثيرة ، ولكن أهمها أن تتحرك دائما نحو خبرة جديدة ، أو عمل جديد ، ومسئولية جديدة .. وفي كل مرة لابد لك من أن تحصل على برنامج تدريبي .. ليس فقط لكي تترقى في عملك الحالي .. وإنما لكي تنقل الى عمل آخر مختلف . ان المجتمع يقول لك ان الاعمال التي تعطيك دخلا أكبر هي تلك التي تتطلب منك تعليمًا أكثر وتدريبًا أطول ويقظة دائمة .

ان اكرام لم يكن يستطيع البقاء في عمله - سمسارا - الا اذا جلس على مكتبه في البورصة بعشرين عينا مفتوحة .. لا بعينين اثنتين فقط .. ان البورصة معناها الاسهم ، معناها المضاربة معناها التجارة ، معناها الدقة ، معناها السرعة . ان لحظة واحدة قد تعنى عشرين ألف دولار خسارة أو مكسبًا لزبونة .. ان تعطيل الاخبار الاقتصادية في الصحف كل صباح قد يعنى فرصة ضخمة يلتقطها ، أو كارثة محققة تصيب استثمارات ، التي هي في النهاية ، استثمارات من يتعاملون معه .

ولان الناس دائما يتأثرون في حياتهم العادية بمهمتهم التي قضوا فيها يومهم في المناقشة مع اكرام هي دائما مناقشة سريعة متلاحقة مفككة .. بكلمة واحدة نتكلم في الاقتصاد .. وبكلمة واحدة أخرى نتكلم في الهبوط على القمر . ان الطبخ مثلا هو بالنسبة لاکرام اما ناقص بنط أو زائد بنط .. والصوت عنده عالي نقطة ، أو ناقص نقطة . والمناقشة عنده هي دائما كلمة تقولها فتكسب جدا ، أو جملة تنساها فتخسر تماما .. والسهرة عند اكرام هي واحد زائد واحد يساوى عشرة يتكلمون في وقت واحد و .. يا خبر أبيض !!

تعرف الساعة كام يا اكرام ؟ الساعة كام يا أحمد ؟!!
- ايه يعنى .. احنا لسه بدري .. الساعة أربعة صباحا يا أخى !!

انت مش رابع باتوبيس السادسة صباحا الى شيربورج ؟
خليك بقى صاحى الساعتين دول !!

صبي بقال .. بالدكتوراه !



هل سمعت عن استاذ جامعة يعمل .. صبي بقال ؟! لا يوجد
خطأ : استاذ جامعة .. يتحول الى صبي بقال ! استاذ جامعة ،
بشهادة ابتدائية .. واعلامية .. وثانوية .. وبكالوريوس ..
ودكتوراه .. و ٢٩ سنة عمرا .. يعمل صبي بقال !

« أهو ده الى موجود .. عاجبك والا لا ؟ » .. عاجبنى طبعا
هكذا قال استاذ الجامعة المصرى لنفسه عندما هاجر الى كندا .
لا بد أن يعجبه أن يعمل صبي بقال . لا بد من ذلك والا .. مافائدة
الدكتوراه التى يحملها معه اذن ؟ ان الدكتوراه أصبحت - فجأة -
بلا قيمة . الدكتوراه فى يده لم يعد لها قيمة على الاطلاق ، سوى
أن تقنعه بلا يلقى رأسه فى الحائط ! الذين لا يحملون الدكتوراه

هم فقط الذين يدقون رءوسهم في الحائط ، أما اصحاب الدكتوراه فانهم لا يفعلون !! فائدة معقولة بعد ٢٩ سنة ضاعت من العمر في الدراسة !

لم تكن المشكلة في الدكتور المصري استاذ الجامعة . ولم تكن المشكلة في المجتمع الذي هاجر اليه بكندا . ان كندا بلد كبير واسع بفرص كبيرة واسعة . وفي كندا ليس من المهم من أنت ، ولكن المهم فقط هو : ماذا تعمل .

ان كندا تحتاج الى عمال . وتحتاج الى اساتذة جامعة . ولكنها قبل هذا كله تحتاج أولا الى شخص مستعد أن يضع عقله في عمله ، وقلبه في جيبه . حينما تكون من هذا النوع ، فان المجتمع يعطيك كل شيء : الدفء ، الفرصة ، العمل ، النقود ، الامل في حياة أحسن . ان المجتمع يعطيك الفرصة في أن تبدأ من جديد دائما . أنت تشق طريقك بكفاءتك وأصابعك العشر .

ولم تكن المشكلة اذن في المجتمع الكندي نفسه . ولا كانت المشكلة في الدكتور المصري استاذ الجامعة . كانت المشكلة هي أن السوق - في اللحظة التي هاجر هو فيها الى كندا - لا يحتاج الى مؤهله . انه يحمل الدكتوراه في وراثثة الحيوان من جامعة عين شمس بالقاهرة . لقد ظل اربعة أشهر يحاول أن يعمل بهله الدكتوراه في مجالين اثنين فقط بكندا : الزراعة ، أو تربية الحيوان .

ان الزراعة أو تربية الحيوان في كندا ليست في حاجة الى شخص يحمل دكتوراه . كل واحد عنده مزرعة وانتهى الامر . ماذا يفعلون بالدكتوراه في . . الحيوان ؟ ان القمح سوف يصبح قمحا . من غير دكتوراه . ان البقرة سوف تصبح بقرة . من غير دكتوراه . ان علي المهاجر المصري اذن - هذا المهاجر بالذات - أن ينسى فورا حكاية الدكتوراه هذه ، ويبدأ في البحث عن عمل آخر مؤقتا . عمل . . أي عمل والسلام !

وهذا بالضبط ما جعل الاستاذ المصري يتحول الى شخص عمل جدا ، عندما التحق بمحل بقالة . . يعدل صبيا فيه . انه يبيع لك البطاطس على أنها بطاطس ، وليس على أنها مجموعة نشويات . انه يبيع لك زجاجة اللبن باعتبارها لبنا . . وليس باعتبارها مجموعة فيتامينات .

انك لا تعرف هذا الرجل ، ولا أنا أيضا كنت أعرفه . الى أن سمعت عنه ، قابلته ، جلست معه ناقشته . . ذات ليلة من ليالي مدينة شيربروج في كندا .

ان شيربورج مدينة صغيرة جميلة هادئة .. بجو ممطر قليلا وشوارع نظيفة غالبا . من أحد هذه الشوارع صبحنى صديقى الدكتور مصطفى الهلالي الى منزله . انه هو نفسه . الدكتور الهلالي - استاذ جامعة مصرى مقيم فى شيربورج ، ومنزله الهادى يطل من الدور الثانى على أحد تلك الشوارع الملونة .. منزل أنيق يتكون من مطبخ وأربع حجرات و .. صالة . فى هذه الصالة جلسنا جميعا . خمسة من الضيوف .. كلهم مصريون .. معظمهم أساتذة جامعات - والدكتور مصطفى .. ووالده الزائر .. و - أنا كنا على موعد لكى نتناقش . لم يكن واضحا بالضبط فى أى شىء سوف نتناقش - ولكن الشىء المتفق عليه فقط هو أننا سوف نجلس معا .. ونتفق أو نختلف معا . المهم والسلام .. أن نقضى المساء معا .

لقد كانوا فى الواقع مجموعة من المثقفين المصريين .. ان الجلسة اتسعت بعد دقائق قليلة عندما انضم اليها ضيوف جدد . وخلال ربع ساعة فقط . أصبحنا نضم طالب الدراسة وطالب الزواج ، وطالب العمل وطالب قصص العمل ان الشخص الآخر هو أنا بالطبع وكان الدكتور محمد فهمى - أحد الضيوف - هو الشخص قبل الاول أحسن من الاول !

ان الدكتور فهمى هو المهاجر المصرى - صاحب الدكتوراه - الذى عمل صبيا فى محل بقالة ان هذا العمل كان بالطبع آخر شىء يتصوره عندما حصل على الدكتوراه فى وراثة الحيوان من جامعة عين شمس بالقاهرة . ان الدكتوراه فى مصر شىء هام جدا يسعى اليه الناس لكى يضعوا تلك الكلمة السحرية قبل أسمائهم - كلمة « دكتور » ! انهم حتى من غير دكتوراه - ينتحلون الدكتوراه لأنفسهم فى كثير من الاحيان !

المهم .. ان محمد فهمى كان واحدا من الذين تمنوا طول عمرهم أن يحصلوا على الدكتوراه . كان هذا منتهى أمله عندما حصل منذ عشر سنوات على البكالوريوس من كلية زراعة عين شمس . البكالوريوس ، ثم الماجستير ، ثم - أخيرا - الدكتوراه . وعندما فكر محمد - الآن الدكتور محمد - فى الهجرة كان آخر مكان عمل به فى مصر هو معهد أبحاث الصحراء . لقد هاجر الى كندا بالذات - لا لسبب سوى أن أخته سبقته للعمل هناك سكرتيرة فى إحدى الشركات . هاجر بلا عقد عمل ، ولا وعد

بعمل ، ولا شيء مطلقا سوى شهادة الدكتوراه التى ترجمها فى مصر - ترجم الشهادة - الى الانجليزية بسبعة جنيهاً !

ان أول شيء فعله الدكتور محمد بعد وصوله الى كندا هو ارسال صورة من شهادة الدكتوراه - مع ملخص بخبرته وأعماله السابقة - الى وزارات الزراعة فى جميع مقاطعات كندا العشر . انه - ليس هذا حقه ؟ - يريد عملاً فى واحد من الميـسدانين اللذين تخصص فيهما : الزراعة . . أو تربية الحيوان . ان الدكتوراه التى يحملها هى فى وراثـة الحيوان ، ولكن لا يهم .

ثم شهر ، شهران ، أربعة أشهر . . ولم يصل رد . ولا رد . لم يصل اليه رد واحد ايجابى من الجهات التى أرسل اليها طلباته بالبـريد ، أو التى ذهب اليها بنفسه . لا أحد هنا يحتاج الى الدكتوراه التى يحملها محمد . لا أحد يحتاجها - فى الوقت الذى وصل هو فيه على الأقل . . وبعدين ؟ لابد من التصرف .

ولكن التصرف لا يمكن أن يتم مادام محمد يتمسك بمسألة الدكتوراه هذه . هكذا نصحه بعض الاصدقاء المجددين فى كندا . ولم يكن الدكتور محمد ينظر الى هذه النصيحة . لقد اتفق مع نفسه على أن المشكلة المبدئية هى أولاً كيف يضع قدمه فى مكان ما داخل هذا المجتمع الجديد الغريب عليه .

عند هذا الحد - هذا الحد فقط - تذكر أنه درس الاحصاء - ضمن المواد الكثيرة التى درسها - وأنهم هنا ربما يحتاجون اليه فى عمل احصائى . . أكثر من حاجتهم اليه فى تربية الحيوان . وبسرعة . . بدأ الدكتور محمد - الآن محمد فقط - يبحث عن عمل كخبير احصاء . وبسرعة . . جاءه العمل المطلوب . وظيفة حكومية . وظيفة كل مهمته فيها دراسة المعدل الاحصائى للحوادث التى تسبب فيها الآلات الزراعية .

هكذا وضع الرجل الشاب - ٢٩ سنة - قدمه أخيراً على أولى درجات السلم . انه الآن - الآن فقط - يستطيع أن يبحث عن فرصته فى هذا المجتمع . . دون أن يكون مسدس البطالة فوق رأسه . وهذا ما حدث فعلاً .

لقد رأى محمد أن العمل الذى يقوم به هو عمل اقتصادى أكثر منه زراعياً ، وأن عليه أن يجرب أعمالاً أخرى كثيرة قبل أن يصل الى العمل الذى يناسبه .

« . . ما رايتك فى العمل كبائع فى محل بقالة ؟ » هكذا رد محمد لنفسه انه يسمى العمل «بائع» ولكنك تستطيع ان تسميه

« صبي يقال » .. لان العمل هو كذلك فعلا !!
ولم يتردد !! لقد قرأ اعلانا عن حاجة أحد المحلات الكبرى
لأشخاص يعملون بائعين في المحل . بائعين في أقسام الحضراوات ،
الملابس ، الاحذية ، الكاميرات !

نعم . محمد يستطيع أن يحصل على هذه الوظيفة - لقد تذكر
فجأة أن لديه خبرة ضخمة سابقة في كاميرات التصوير . لقد
كان لديه وهو صغير كاميرا اشتراها له والده . انها لم تكن
تلتقط صوراً على الاطلاق ، فقد كانت مجرد لعبة .. ولكنها كاميرا
والسلام ! أحسن من مفيش !

بهذه الفكرة الضخمة عن التصوير والكاميرات ، ذهب محمد
الى المحل و .. حصل على الوظيفة . وظيفة بائع وفي قسم
الكاميرات بالمحل ، مع أنه في بعض الايام كان ينقل للعمل في
قسم الحضراوات ليحل محل شخص آخر .

وفي الصباح المبكر كل يوم - ولمدة شهر - كان محمد يذهب
الى عمله مبكراً لكي « يذاكر » كتالوجات جميع آلات التصوير ..
حتى لا يخطئ في شرحها طوال اليوم لكل زبون راغب في الشراء .
بهذه الطريقة استطاع محمد أن يحصل من المحل على مرتبة متواضعة
للفتحة - ٢٥٠ دولاراً في الشهر .

ان محمد يتوقف فجأة عن الكلام . انه يتذكر . انه يتذكر
منظره عندما كان يقوم بهذا العمل . شقاء هناك .. لا ألم ..
لا مرارة .. بل انها جميعاً ذكريات يعتز بها . انه يقول مثلاً
وهو يضحك من أعماقه : « مرة .. جاءت الى المحل واحدة ست .
انها ست شيك جداً . دخلت محل قسم الملابس واختارت ملابس
بألف دولار . دخلت قسم الموبيليات واختارت أثاثاً بألف دولار
أخرى . قسم الاحذية .. قسم الكاميرات

» .. في الحقيقة لم تشتري مني سوى قلم حبر وولاعة ، ثمهما
ثلاثون دولاراً . ولكنها اشترت من المحل كله بضائع بخمسة آلاف
دولار - انها لم تدفع شيئاً .. فلقد طلبت ارسال هذه الاشياء الى
منزلها في عنوان كذا .. والدفع عند الاستلام . حاضر .

» .. وقبل أن ينتهي نفس اليوم كانت السيدة قد توجهت الى
محلات أخرى واشترت بضائع أخرى بنفس الطريقة . الدفع عند
الاستلام .

» .. ولكن .. قبل أن ينتهي اليوم كانوا قد اكتشفوا أن هذه
السيدة الشيك جداً هي مجرد : نصابة ! لقد ارتاب مندوب

أحد المحلات فى الامر عندما ذهب يوصل البضاعة الى العنوان المذكور .. فوجد بضائع أخرى ضخمة أرسلتها محلات أخرى كثيرة و .. لا أحد فى المنزل . وعندما أبلغ الشرطة استطاعوا بعد فترة العثور على السيدة .. واستدعوا جميع الباعة الذين اشترت منهم - وأنا من بينهم - كى يتعرف كل واحد على البضائع التى اشترتها منه السيدة الشيك جدا ! ، .

هكذا يحكى لك محمد عشرين حكاية وحكاية عن تجربته فى العمل لمدة شهر بمحل البقالة هذا .

ان التجربة لم تستمر اكثر من شهر واحد ، لانه بعد هذا الشهر فوجيء محمد بخطاب مفلق يصله بالبريد المسجل . ماذا فى الخطاب ؟ ورقة ماذا فى الورقة ؟ استدعاء . ماذا يقول الاستدعاء؟ يقول : ان قسم الابحاث بوزارة الزراعة الفيدرالية يحتاج الآن الى باحث زراعى حاصل على الدكتوراه .. وأن مرتب هذه الوظيفة يبدأ من ١.٥٠٠ دولار وينتهى بـ ٢٢ ألف دولار فى السنة .. اذا كانت هذه الوظيفة تناسبك فتفضل بالحضور لاجراء حديث شفوى قصير معك !

.. اذا كانت تناسبه ؟!

طبعا هى وظيفة تناسبه جدا .. انها الوحيدة التى تناسبه .. ان الوظيفة التى يريدما محمد قد جاءت اليه اخيرا .. الان فقط - يتحول محمد من جديد الى : الدكتور محمد !

ولكن فى الحقيقة - لم يكن ممكنا ان تأتى هذه الوظيفة الى الدكتور محمد قبل الان . لم يكن ذلك ممكنا لانها لم تكن موجوده .. لم تكن شاعرة .. فى الوقت الاصلى الذى طلبها هو فيه . ولانه لم يتمسك بها .. لانه بحث عن العمل ولم يبحث عن الوجهة .. لانه رأى فى الصفر رقما والبداية المتواضعة شرفا .. لانه رأى المشكلة تحديا .. والقصة امتحانا .. لانه لم يضع قدما على قدم .. لم يلعن حظه ولم يسخط على ظروفه .. لانه واجه المجتمع بتصميم لا يلين ورغبة لا تنهزم .. لهذا كله .. حصل محمد فى الشهر السادس على ما اراده فى الشهر الاول .

والواقع ان المسألة ليس فيها حظ بقدر ما فيها توقيت مناسب .. فقد تكون الوظيفة المناسبة موجودة أمس ، وغير موجودة اليوم .. وقد يضطر حامل الدكتوراه الى العمل كبائع .. ولكنه فى القاعدة العامة - سوف يحصل على عمل مناسب غدا .

وانا لا أريد أن اذكر هنا أمثلة لعشرات المصريين الذين استطاعوا العمل كأساتذة جامعات في كندا - دون أن يمروا بهذه التجربة التي مر بها منذ دقائق الدكتور محمد فهمي .

لا أريد أن اشير مثلا الى الدكتور فريد سليمان الاستاذ الحالى بكلية زراعة جامعة ساسكاتشوان .. او الدكتور عفيفى سليمان الاستاذ بهندسة جامعة ماكماستر .. او الدكتور محمود على المنزلاوى استاذ اللغة الانجليزية فى كولومبيا البريطانية .. او الدكتور لطفى فام استاذ الادب الفرنسى بجامعة كارلتون .

او الدكتور حامد محمد نجم استاذ تغذية اللواجن بجامعة ماكدونالد .. او الدكتور فوزى طه استاذ الكيمياء الصناعية بجامعة فلوريدا .. او الدكتور محمود عدوى الشرقاوى الاستاذ المساعد بطب جامعة مونتريال .. او زميله الدكتور رشاد الطواشى الاستاذ بكلية الصيدلة فى نفس الجامعة .

لا أريد ان اذكر مثلا الدكتور مصطفى عارف الذى يعمل بالزراع التجربة الكندية ، او الدكتور نسيم عبد الملك بمركز أبحاث أوتاوا .. او الدكتور فتحى سالم بمركز أبحاث الشركات ، او الدكتور السيد محمد حسنى الباحث فى ليفاكس .

لا أريد اذكر هذه الامثلة - وعشرات غيرها - للمصريين الذين وجدوا عملهم المناسب فى وقت اقصر بتضحيات أقل . ولكن ما أريد ان أقواله هو أن البحث عن عمل جديد فى مجتمع جديد .. هو أمر يتطلب صبرا .. مع توقع التضحية المؤقتة بأشياء كثيرة .. لولا هذا الاستعداد السابق للتضحية - لما استطاع الدكتور محمد فهمي أن يكون مثلا كقصة كفاح وتصميم وقوة ارادة . فمادمت لم تتفق مقديما - قبل وصولك - على العمل المناسب لك فى كندا .. فان المهاجر سوف يحتاج الى وقت - قصير او طويل للعثور على هذا العمل الذى يريده .

اما اذا كنت قد حصلت على عملك المناسب قبل وصولك .. فهذا بالطبع أفضل .. مع انه ليس ممكنا فى معظم الاحوال اننا ربما نجد أمثلة كثيرة على ذلك بين المهاجرين المصريين فى كندا .. عندك الدكتور مصطفى الدمرداش مثلا .. انهم يشيرون اليه فى كندا باعتباره من أبرز المصريين الذين يحتلون الآن وظيفة كبرى - تعادل وكيل الوزارة او المدير العام على الأقل - فيما يساوى عندنا وزارة الخزانة او التخطيط .

ان الدكتور الدمرداش هو واحد من اثنين في حكومة كندا ،
اللذين يحملان الدكتوراه في الرياضة البحتة فرع علمي صعب
ومعقد .. ولهذا لم يتجه اليه او ينجح فيه عدد كبير .. ولان خبرة
الدمرداش ليست متوافرة بكثرة .. فقد طلبته حكومة كندا
من حكومة بريطانيا رسميا منذ خمس سنوات .. انه في الاصل
كان مديرا عاما لشركة سيبا للدوية في مصر .. ثم اتجه الى
سويسرا وبريطانيا منذ تسع سنوات للعمل كمستشار في التخطيط
لبعض شركات الادوية . وظل هذا هو عمله في لندن الى ان احتاجت
حكومة كندا الى شخص في مثل كفاءته .. فارسلت طلبه رسميا
من الحكومة الانجليزية ..

لقد سافر الدمرداش الى كندا منذ أربع سنوات لكي يعمل مديرا
للتخطيط المالي بالادارة العامة للحكومة . ادارة تعادل خليطا من
وزارتى الخزانة والتخطيط بمصر .. المرتب ٢٠ الف دولار سنويا
• العمل هو التنظيم الرياضى بأجهزة الادارة بالحكومة الفيدرالية
بكندا .. أجهزة يعمل بها أكثر من ٢٣٠ ألف موظف •
ولماذا نذهب الى أوتوا ؟ نحن الآن في شيربروج •

ان معنا الان .. في جلستنا هذه بمنزل الدكتور الهلالي بمدينة
شيربروج - مصرى آخر ذهب الى كندا منذ سنتين فقط .. انه
الدكتور منير فؤاد سعد - أستاذ سابق بالمعهد العالى الفنى بشبرا
- القاهرة .. لقد سافر الدكتور منير الى النرويج أولا لعمل أبحاث
في تخصصه .. التصميم الهندسى .. ثم سافر الى كندا عندما
تعاقدت معه جامعة شيربروج على مواصلة نفس الأبحاث بها •

ان الدكتور منير له آراؤه الخاصة بالهجرة الى كندا . انه يقول
مثلا : « .. انا أرى ان من يحضر الى هنا لابد ان يكون فقط
واحد من اثنين : اما شاب متخرج حديثا .. او رجل كبير في
السن ولكن خبرته معترف بها في أحد الفروع العلمية المطلوبة ..
أما الشخص الاول فيستطيع التكيف مع أى عمل لأن الخبرة
لم تتكيف لديه بعد •

والثانى سيجد العمل لان المجتمع يحتاج الى خبرته ..
أما لو كان المهاجر شخصا آخر غير هذين الاثنين ، فيجب أن
يتوقع مرور وقت طويل قبل ان يستطيع العمل .. ثم يستطيع
العمل في الميدان الذى يرغبه ..

ولاول مرة يدخل مضيفنا - الدكتور مصطفى الهلالى - طرفا فى المناقشة تعليقا على كلمات الدكتور منير .. ان الهلالى يقول « اننى اتفق معك فعلا فى ان المهاجر لا بد ان يكون محترفا خبيرا .. فى فرع تخصصه .. هذا اذا لم يكن شابا .. ولكنه فى جميع الاحوال يستحسن ان يكون صغير السن .. يجيد الفرنسية والانجليزية .. وكفىا ..

ان الكفاءة هنا هى شرط ضرورى .. لانه لو تساوت كفاءته وخبرته مع مواطن كندى فمن الطبيعى جدا انهم سيفضلون المواطن الكندى فى الوظيفة .. وبلاضافة الى ذلك فان الاستعداد لمواجهة المشاكل - خصوصا فى الفترة الاولى - هو امر هام جدا - ان الفترة الاولى لاي مهاجر جديد هنا هى التى يعتمد عليها مستقبله بعد ذلك .. اذا مرت هذه الفترة بنجاح فان المهاجر سوف يصل غالبا الى ما يصبو اليه .. اننى اقصد بالنجاح هنا قدرة المهاجر على تحمل اية مسئولية وقبوله لاي عمل موجود .. اما اذا تكبر على العمل .. او اعطى الاحساس بانه غير مسئول او غير كفء .. فان هذا سوف يظل يطارده بعد ذلك فى جميع أعماله التالية .. ان العمل هنا لا يعتمد على المؤهلات والخبرة والتدريب والكفاءة فقط .. ولكنه يعتمد ايضا على آراء الجهات السابقة .. التى عمل بها - فى كفاءته وقدرته وحرصه على العمل . ثم قبل هذا كله . يعتمد على شخصيته .. ان التمتع بشخصية ناضجة هو دائما شرط من شروط العمل هنا .. مثلما هى شرط من شروط النجاح فى أى مكان آخر .

والواقع ان الدكتور الهلالى معه الحق خصوصا بالنسبة للنقطة الاخيرة التى اتارها هى نضج الشخصية .. ان المهاجر هنا ليس مجرد شخص يبيع كفاءته .. ولكنه ايضا يبيع شخصيته لصاحب العمل .. ان هذا يبدو واضحا فى كل مرة .. يختارون فيها شخصا جديدا لشغل وظيفة ما .. ان اهمية الشخصية تتزايد كلما كانت الوظيفة التى يريدونها المهاجر هامة بالنسبة للمؤسسة او الشركة .. اننى اذكر الآن مثلا لذلك . صاحبه هو هذا الشخص: عادل فهمى المنياوى . ان عادل هو مجرد شاب فى الثانية والثلاثين من عمره .. مجرد شاب كان يعمل فى القاهرة موظفا بشركة الكرنك للنقل والسياحة .. ثم بمكتب شركة « ايرفرانس » بالقاهرة .. عندما هاجر عادل الى كندا منذ ست سنوات فقط عمل اولاً فى مكتب شركة « سابينا » للطيران بمدينة مونتريال بكندا . ولكن

عادل يريد العمل فى شركة « ايرفرانس » بالذات ايرفرانس . لهذا
ظل ينتظر الى أن تخلو عندهم وظيفة تتناسب مع مؤهلاته (ثانوية
علمة فرنسى) وخبرته تسع سنوات كمندوب مبيعات .

وعندما ظلت هذه الوظيفة بمكتب ايرفرانس فى مونتريال تقدم
هو - مع آخرين لشغلها . لقد سألوه فى الاختبار الشفوى عن
موضوعات كثيرة لمدة ساعتين ونصف . لقد كان يتوقع طبعا أن
تدور الاسئلة حول عمل مندوب المبيعات .. ولكنه لم يتوقع
الجزء الاخر من الاسئلة التى واجهوه بها . اسئلة مثل : تصور
أنك سوف تجلس فى هذا المكتب .. كيف تصمم الديكور فى داخله ؟
.. اين تضع مكتبك داخل الحجرة .. ولماذا ؟ . هل لديك فكرة
عن أحدث الاتجاهات فى الهندسة المعمارية ؟ .. لماذا ترتدى كرافتة
حمراء اللون .. أليس اللون الأزرق أفضل ؟

انها أسئلة عديدة - من هذا الطراز - ليس الهدف منها أن
تعرف لجنة الاختبار رأيه فى اللون الأحمر والأزرق حقا .. ولكنها
تريد أن تعرف أولا : هل له رأى أصلا .. أم لا ؟ هل لديه
معلومات عامة عن الدنيا التى يعيش فيها ؟ هل له ذوق خاص
يصمم به حياته ؟

انها أسئلة قد لا تبدو لها اية علاقة بالعمل الذى سيقوم به عادل
- مندوب مبيعات فى شركة طيران .. لكنها أحد المقاييس
الكثيرة اللازمة لقياس شخصيته ومدى انفعاله فى المناقشة ، بعد
قياس خبرته الاساسية وتعليمه .

لهذا حصل عادل على الوظيفة بمرتبة ٨٠٠ دولار فى الشهر ..
لهذا أيضا ترقى بسرعة فيها . الآن هو أحد الممثلين الرئيسيين
لمكتب تنشيط مبيعات شركة « ايرفرانس » بمدينة مونتريال . لقد
ترقى لانه يحاول أن يعطى العمل حقه - أكثر من حقه - هذا شرط
ضرورى سمعته من كل مهاجر مصرى ناجح فى كندا .

أن أهمية هذا الشرط تزداد عندما نعلم أن مغريات الاستهتار فى
كندا كثيرة ، مثلما مغريات العمل كثيرة أيضا . وعلى رأى طبيب
مصرى بارز قابلته فى مدينة أوتاوا العاصمة : « أن من يعطى للعمل
حقه هنا لابد أن ينجح .. أن لم يكن اليوم فغدا .. أما من يريد
مثلا أن يتعرف على أكبر عدد من الفتيات ليقضى وقته معهن ..
من يريد أن يأخذ الحياة بغير جدية .. فانه سيفشل قطعاً . أن
العمل هنا .. عمل . واللهو .. لهو . ولا يمكن الخلط بين الاثنين .

ثم ان هناك نقطة اخرى : ان الاخلاص في العمل لا يتم مرة ..
والى الابد . مستحيل الحديث في العمل هو شيء مطلوب منك
في كل دقيقة . كل يوم . لا يكفي ان تكون متفوقا في عملك امس ..
لابد ان تكون متفوقا اليوم وغدا وبعد غد .

ان صاحب هذه الكلمات هو في الواقع نموذج على تطبيقها ..
انه **الدكتور امير حماية** . طبيب مصري مهاجر في مدينة اوتاوا
عاصمة كندا .. ان عمره لا يزيد على ٣٦ سنة - اعزب - وهجرته
الى كندا عمرها اربع سنوات . وعلى ذلك فانه الان يملك عيادته
الخاصة لامراض النساء في اوتاوا . عيادة تدر عليه مكسبا شهريا
يصل الى ثلاثة آلاف دولار .. الصافي الف دولار . وبلاضافة الى
ذلك فانهم اعتمدوا في جامعة اوتاوا مبلغ عشرين الف دولار بصفة
مبدئية لتمويل أبحاثه العلمية في امراض النساء .. ان اعتماد مثل
هذا المبلغ لطبيب مازال اجنبيا بالنسبة لهم في كندا ليس مسألة
سهلة ولا حتى هي مسألة متكررة . ولكن الكفاءة عندهم لا جنسية
لها .. هذه مصلحتهم أولا .. قبل ان تكون مصلحة الشخص
الكفاء نفسه .. مصلحتهم في جذب ، وجذب غيره من بعده .

X X X

اننى ربما لم اسمع في كندا عن طبيب آخر أعطوه نفس
التسهيلات - واكثر - سوى الدكتور مصطفى الهلالى - مضيفنا
الذى اعود اليه الآن - في جلستنا عنده بمدينة شيربوروج .

ان الدكتور مصطفى مايزال في الرابعة والثلاثين من عمره . متخرج
من طب القاهرة سنة ١٩٥٩ بتقدير جيد جدا مع الامتياز في
الجراحة . وبعد ان حصل على الماجستير بدرجة الامتياز في جراحة
المسالك البولية سافر الى كندا منذ خمس سنوات . هناك حصل
على الدكتوراه من جامعة ماكجيل .. ليس هذا هو المهم . ولكن
المهم هو ان أبحاثه أصبحت تتمتع هناك بوزن دولى كبير . لقد
منحته جمعية جراحى المسالك البولية الامريكية جائزتها الاولى منذ
سنوات عندما قدم لها أحد أبحاثه . بل ان أحد مساعدية فاز منذ
سنتين بجائزة مماثلة بسبب مساعدة الدكتور مصطفى له .

وقبل ان يحصل مصطفى على الدكتوراه من جامعة ماكجيل ..
كانت الجامعة قد قررت ان تعفيه من دفع رسوم التسجيل تقديرا

لجهوده الطبية فى المستشفى الذى كان يعمل به ثم قررت الجامعة بعد حصوله على الدكتوراه أن تقوم هى بطبع الرسالة وتوزيعها على الدوائر الطبية على نفقتها الخاصة تقديرا لامتياز الرسالة وتفوقها ..

والدكتور مصطفى يذهب الى عمله الان فى الثامنة صباحا ويعود فى الثامنة مساء .. أحيانا تفاجئه عمليات جراحية فيعود بعد منتصف الليل .

وفى مرة سألته : الا تستطيع أن تعمل اقل ؟

— استطيع ..

— اذن لماذا تجهد نفسك بهذا الشكل ؟

— لان الطب عندى هواية وليس وظيفة . ولان املنى نتائج لابد ان احققها . ولانى اكون سعيدا عندما اعطى صورة عملية لدقة الطبيب المصرى ومهارته .

— هل أفادك التعليم الطبى الذى تلقيته فى كلية طب القاهرة .. هل أفادك فى كنبدا ؟

— أفادنى جدا .. فى الواقع اننى مازلت اشعر بالفضل فى تقديمى الى الاساتذة الذين تعلمت على أيديهم فى مصر : محمد بدر .. محمد صفوت .. رياض فوزى .. ان تعليمنا الطبى فى مصر مازال من الطراز الاول .

— اذن .. ماهى : المشكلة ؟

— المشكلة هى أن هذا التقدم يتم بفضل أفراد ، وليس بفضل أسلوب فى التعليم . فما زال الطب يدرس عندنا كما كان يدرس منذ ثلاثين سنة ..

x x x

ان الدكتور مصطفى هو الان استاذ مساعد بجامعة شيربروج ، فضلا عن عمله طبيباً بالمستشفى الحديث التابع للجامعة فى مدينة شيربروج . مستشفى افتتح منذ سنة واحدة .. بعد ان تكلف

سبعين مليون دولار ، انه الآن أحدث مستشفى فى أمريكا الشمالية كلها ..

ان الدكتور مصطفى يقدم الآن أبحاثه فى هذا المستشفى نفسه . ان لديه منحا من ثلاث جهات مختلفة لتمويل هذه الأبحاث . ثلاث منح تصل فى مجموعها الى أربعين ألف دولار . انه لم يحصل على هذه المنح إلا بعد أن اكتشف طريقة جديدة لتشخيص سرطان البروستاتا فى أول مراحله . هذا هو الشيء الذى حصل بسببه على الدكتوراه فى جامعة ماكجيل فى مونتريال . فالدراسة فى جامعة ماكجيل بالذات أصعب من غيرها .. لهذا أصبحت واحدة من أحسن الجامعات فى أمريكا الشمالية .

ولكن الدكتور منير مسعود - الموجود معنا الان فى السهرة - يتدخل فى المناقشة قائلا : ان الدراسة هنا ليست صعبة . أنها فقط .. مجرد دراسة ! انهم هنا يهتمون بالمستوى أكثر من اهتمامهم بالعدد . لهذا يتكلف الطالب مصروفات ضخمة خلال سنوات دراسته الجامعية . ان متوسط تكاليف الطالب الواحد فى الجامعة هى ثلاثون ألف دولار . الطالب يدفع ما يعادل الثلث .. والباقى تتحمله الجامعة .. ان هذا المبلغ الضخم يذهب أولا الى تجهيز الكلية بأحدث الاجهزة العلمية ، ويذهب ثانيا الى تمويل النشاط العلمى للأساتذة ، ان نسبة عدد الاساتذة الى عدد الطلبة هنا تصل الى ثلاثة لواحد . نعم ثلاثة أساتذة لكل طالب واحد . ان دفعة البكالوريوس التى ستخرج هذا العام من كلية الطب التى يعمل بها الدكتور الهلالى هى مثلا لا تزيد على ٢٤ طالبا فقط ٢٤ طالبا يخدمهم ، يعلمهم ، مائة وعشرون أستاذا ! .. وبالإضافة الى ذلك فان الجامعة هنا تحرص على ألا تتخلف عن عصرها ، بل تحرص على أن تسبق عصرها . ان كل طالب جامعى هنا مثلا لا بد أن يدرس طريقة عمل واستخدام العقل الالكترونى مثلا فى فرع تخصصه ، ابتداء من السنة الثانية . «

x x x

والواقع ان استخدام العقل الالكترونى فى الجامعة - كما أشار منير مسعود حالا - لم يبدأ الا مع استخدامه فى النشاط الاقتصادى بالمجتمع كله فى كندا ، وهذه إحدى النقاط التى ينتبه اليها المهاجر المصرى عند وصوله الى هناك . ان برنامجا واحدا

يحضره المصرى فى القاهرة لدراسة العقل الالكترونى قد يودى الى زيادة مرتبه عند هجرته الى كندا بنسبة الربع على الاقل . ان هذا الفارق الضخم يترتب على التنبه مقدما لمثل هذه المسألة الصغيرة .

وهى ليست هذه المسألة فقط ، فى الواقع ان هناك مسائل اخرى كثيرة ، وصغيرة ايضا ، تستطيع ان تحقق نتائج كبيرة للمصرى المهاجر الى كندا . نتائج تضاعف من قدرته على التكيف مع الحياة الجديدة والمجتمع الجديد هناك .

ما هذه المسائل الصغيرة .. ؟ ما هى العقبات التى تحد من قدرة بعض المهاجرين المصريين على التكيف مع حياتهم الجديدة بعد الهجرة ؟

اننا سنتناول هذه العقبات بالتفصيل فى الفصل التالى . ولكن قبل أن نتناولها .. دعنا نبداها من النقطة التى لا يتنبه اليها احد .

دعنا نبداها من : العلاقة الزوجية !

عزيس .. لكل عشرة رجال !



واقعة صغيرة حدثت في كندا منذ شهر ولم ينتبه اليها احد :
ان الجالية المصرية سجلت اول حالة طلاق بين زوجين مهاجرين من
مصر ! طلاق تم في مونتريال - بعد ان فشلت كل محاولة ممكنة
لإعادة التفاهم بين الزوجين الغاضبين المصممين على الطلاق .
ان الزوج يعمل مدرسا . أما الزوجة فتعمل سكرتيرة في إحدى
الشركات الكندية بمونتريال . وقبل ان تتهدد العلاقة بين الزوجين
المصريين بالطلاق .. كانت المشاكل قد بدأت تتراكم ، مشاكل
ناشئة كلها من محاولة التكيف مع الأوضاع الجديدة ..
والإخلاقيات الجديدة التي انتقلا اليها في كندا ..
ان الزوج يصل الى منزله كل مساء ليجد ان زوجته قد جاءت
في سيارة رجل غريب ؟

- .. من هذا الرجل ؟
وترد الزوجة : هذا زميل لى فى الشركة .
- لماذا اوصلك بسيارته حتى هنا ؟
- لماذا ؟ .. انه يسكن فى شارع مجاور .. وانت تعلم صعوبة
المواصلات العامة فى هذه الساعة المزدحمة .. وتعلم اننى
لا أستطيع أن أستعمل تاكسيا كل يوم من الشركة حتى المنزل
.. حتى هنا .

- انا لا أسمح لك بركوب السيارة مع رجل غريب .. هذه
آخر مرة ترتكبين فيها هذا الخطأ ..
وترد الزوجة باستغراب شديد : « ان ما أفعله ليس خطأ ..
وبالإضافة الى ذلك فان هذا الرجل ليس غريبا .. انه زميل لى
فى العمل . وأنا لا أجد مطلقا أى معنى سيئ فى ان يوصلنى زميلى
الى هنا .. مادام هذا طريقه الاصلى . وما دام هو الآخر
متزوج ، »

ويرد الزوج المصرى الفاضب .. متزوج او غير متزوج ..
لا يهم .. المهم . لن أسمح لك بالركوب معه مرة اخرى مفهوم ؟
- حاضر ؟ ...

ه اكن الواقعة تكررت فى اليوم الثانى ، والثالث ، والرابع و .
فى كل مرة تتجدد نفس المناقشة .. وفى كل مرة تنتهى بنفس
الاحتجاج من الزوج المصرى على زوجته :

.. « ألم يقل لك أمس ألا تأتى فى سيارة هذا الرجل مرة اخرى ؟
وترد الزوجة : نعم . ولكن شعرت بالحرص الشديد وهو يعرض
على اليوم توصيلى الى المنزل . لقد بدا عرضه عازيا جيدا ،
والمسألة كلها عادية جدا وتحدث كثيرا بين الزملاء عندنا .. وتصور
انت ماذا يمكن ان يحدث لو قلت له : آسفة .. لن اذهب فى
سيارتك .. وسأفضل عليها ركوب المترو المزدحم ..! ولو قلت
له السبب الحقيقى .. وهو انك باعتبارك زوجى - لا تريد منى
ألا أركب فى سيارته .. فان الامر سوف يبدو غريبا جدا ..
انه امر غريب لانه ينظر الى كزمية ، وليس كامراة ! نحن هنسا
فى كندا .. ولسنا فى مصر » !.

ولكن الزوج لا يقتنع بحكاية كندا ومصر هذه ؛ ان هذا العذر
من زوجته غير مقبول . أقصد تربى فى مصر على ان المرأة هى اولا
امراة ، وليست زميلة . لقد اعتاد على ان الرجل عندما يعرض

توصيل زميلته في العمل الى مكان ما .. فلا بد ان يهدف الى شيء أكثر من مجرد التوصيل .. لقد اعتاد على ان همسات الناس تبدأ في التردد منطقة دائما من مثل هذه اوقائع الصغيرة .. ان الناس هنا لا يهمسون بشيء .. ولكن هذا لا يهم .. ان المهم فقط هو ان زوجته تخالف اوامره ! المهم فقط هو ان زوجته لا تطيعه . معنى ذلك ان الامر لابد ان يكون فيه .. ((شيء ما)) . نعم هناك شيء ما بين زوجته وبين هذا الرجل الغريب .. من المؤكد ان حكاية التوصيل هذه ، والزمالة هذه هي مجرد عنبر لشيء ما تخفيه زوجته !

و .. عندما يشك الزوج دائما في وجود شيء ما .. فان كل شيء في الحياة الزوجية يتحول دائما الى ظل لهذا ال « شيء ما » .. من الان سوف تصبح الدقائق الخمس التي تتأخرها زوجته في الخارج هي ساعة كاملة .. من الان سوف يصبح الطعمام الذي تعده باردا سيئا .. من الان سوف يصبح كل شيء خطأ في المنزل هو بسبب خطأ ما .. ارتكبتة زوجته .. اذا تعطل التليفزيون ... فلان زوجته أهملت في تشغيله .. اذا تعطل التليفون ؛ فلان زوجته تتحدث فيه كثيرا .. اذا ضاع زرار واحد من أحد القمصان .. فلان زوجته لا تقوم بواجبها في المنزل . اذا نزلت زوجته لشراء شيء ما .. فانها قطعا - قطعا - ذاهبة لارتكاب خطأ ما .. !

لقد تسممت العلاقة بين الزوجين عندما دخل فيها ((شيء ما)). من الان سوف يتحول كل خلاف بسيط بينهما الى .. خناقة .. كل ذرة تراب في المنزل سوف تصبح .. مشكلة .. كل صباح جديد سوف يصبح بداية جديدة ليوم من المتاعب .. ان الزوج يعتقد ان زوجته لم تعد - منذ الان تقول الحق . والزوجة تعتقد ان شك زوجها في تصرفاتها هو أهانة لها ، وسلوكها .. اذن .. اذن .. لا حل سوى الانفصال .. لا حل سوى الطلاق !

x x x

هكذا تم الطلاق الاول في مدينة مونتريال . اول طلاق يقع بين زوجين من الجالية المصرية هناك . طلاق تم أولا بين هذين الزوجين ، ثم تبعه طلاق ثان بين زوجين مصريين . هذه المرة كان الزوج والزوجة مدرسين .

و .. حتى الآن لم يقع الطلاق داخل الجالية المصرية سوى في هاتين الحالتين فقط : في حالتين سمعتهما من الأب روفائيل .. ممثل الكنيسة المصرية في كندا والولايات المتحدة .

والكن الواقع أن هناك مشاكل أخرى خلقها التكيف مع الاخلاقيات الجديدة والحياة الجديدة .. بكندا ، انها مشاكل لم تصل الى درجة الطلاق . ولكنها مشاكل على أية حال .

ان الموظف الذى كان يذهب الى مكتبه في مصر من الثامنة صباحا حتى الثانية ظهرا ، يذهب هنا من الثامنة والنصف صباحا الى الرابعة والنصف عصرا ، او من التاسعة صباحا الى الخامسة مساء .. والموظف الذى كان يجلس في مكتبه بمصر ست ساعات ويعمل ساعة واحدة .. يأتى هنا ليجد نفسه مرغما على البقاء في المكتب ثماني ساعات .. والعمل ثماني ساعات .. لا تزويغ لا رغبى في التليفون .. لا زيارات من الاصدقاء . لا اعداد .. لهذا يعود الى منزله في المساء متعبا ، منهكا ، متوتر الاعصاب .. خصوصا في الشهور الاولى لعمله .. قبل أن يتكيف مع هذه العادات الجديدة .

وعندما يكون هذا المصرى المهاجر زوجا .. فانه لا يستطيع أن ينسى انه اعتاد في مصر على زوجة تنتظره في المنزل حتى عودته من العمل . تفتح له الباب ، تخلع له الجاكته ، تقدم له الطعام الساخن انه لم يتكيف بعد ، خصوصا في اسابيعه الاولى - على زوجة تعود من العمل متعبة مثقلة . لم يتعود على أن يمد يده الى الثلاجة ليتناول طعاما باردا .

ان عليه - على هذا الزوج المصرى المهاجر - أن يعتاد هنا على حقائق جديدة . يعتاد أولا على أن زوجته لا بد أن تعمل واذا لم تعمل فانها سوف تجد نفسها وحيدة .. غريبة .. وسط مجتمع كل من فيه يعمل ..

واذا عملت الزوجة .. فمعنى ذلك انها قد بدأت تتقاسم مع زوجها مصروفات البيت . وحينما يحدث ذلك فلا بد أن تترتب عليه - اتوماتيكيا - نتائج أخرى كثيرة . فمن الان أصبحت الزوجة تتوقع من زوجها أن يعاملها كشخصية مستقلة محترمة يؤخذ رأيها في معظم المسائل الاساسية - من الان أصبحت الزوجة تريد أن تشترك في اختيار أدوات المطبخ ولون السجادة وحجم

الثلاجة ، وشكل السرير ومكان الراديو وطراز البوتاجاز وماركة السيارة وموقع الشقة .

ثم .. عندما يكون هذا الزوج المصرى المهاجر ابا .. عندما يكون لديه اولاد وبنات .. فان حجم الوقائع الجديدة التى لا بد أن يتكيف معها .. يكبر ويتضاعف . انه لن يصبح هنا المصدر الوحيد لتربية اولاده وبناته . انه سيكتشف ان الاطفال والاولاد هنا يتعلمون من التلفزيون وأفلام السينما اكثر ما يتعلمون من آبائهم .. انه سيكتشف كثيرا من الموضوعات المحرمة فى مصر قد أصبحت هنا شيئا مباحا .. تجسرى المناقشة فيه علنا .. خذ الجنس مثلا .. ان الاطفال يقرأون عنه ، يشاهدونه يتعلمونه ، يناقشونه . بشكل لم يكن هو شخصا يجرؤ عليه فى أيام شبابه .. او بيت أسرته .. ان ما كان عيبا خطيرا فى مجتمعه أصبح هنا شيئا ممكنا أن يقع من اولاده .. شيئا ممكنا ومتوقعا وجائزا أيضا

ان هذا المجتمع الجديد على الرجل المصرى المهاجر .. وهذه الاخلاقيات الجديدة التى يجب أن يتكيف عليها .. تمتد أيضا لكى تؤثر على المرأة المصرية المهاجرة سواء كانت فتاة او زوجة او أما .

ان المرأة المصرية سوف تأتى الى هنا - الى كندا - لتجد انها وحدها فى مجتمع غريب انها لن تجد هنا جارات يتكلمن معها ساعة على باب الشقة ، ولا صديقة تستعير منها مصفاة او حتى ابرة خياطة . ولا زميلة ترغبى معها ساعة فى التليفون . لن تجد زائرة تتبادل معها آخر الاشاعات عن فلانة وعلانة . انها لن تجد شارع سليمان باشا هنا تتمخطر فيها ، ولا نادى جزيرة تستعرض فيه ، ولا رجلا يبخلق فيها ولا غريبا يعاكسها ، ولا خياطة تقضى عندها يوما بأكمله لتفصيل فستان . فى الواقع ان تفصيل الفستان هنا يتكلف خمسة وعشرين دولارا على الاقل .. الجاهز أرخص !

اقول : ان المرأة المصرية التى شاهدها هنا هى التى تتعرض فى اسابيعها الاولى - اكثر من الرجل - لحالة عميقة من الحنين الى الوطن ، والاسرة والصديقات ، والزميلات .. انها - حتى - لاتستطيع فى اسابيعها الاولى الاعتياد على انواع الطعام وطريقة اعداده هنا . لقد اعتادت فى مصر على ان اعداد الطعام يستغرق ثلاث ساعات ، وطبخه يستغرق ساعتين ، وتسخينه يستغرق ساعة . ولكنها هنا فى كندا - يجب أن تعتاد على الخضراوات

المسلوقة ، وتعتمد على الزبد بدلا من السمن ، وتعتمد على المعلبات الجاهزة بدلا من تقشير البطاطس ، وتخريط البامية ، وتنظيف الدجاجة .. ان كل شيء هنا جاهز . كل شيء معد مقدما .. ان الوجبة التي كانت المرأة تعدها في مصر في ست ساعات سوف تعدها هنا في ست دقائق وانتهى الامر !!

x x x

ولا ينتهى الامر عند هذا الحد بالنسبة للمصريين المهاجرين عندما يتعرضون لتجربة التكيف على هذا المجتمع الجديد الذى هاجر اليه .. فى الواقع ان هناك مشاكل اهم يتعرض لها الجاليات المصرية هنا - فى كندا .

فلو فحصنا انواع المشاكل التى يتعرض لها المهاجر المصرى فى هذه التجربة الجديدة عليه - تجربة الهجرة - فسوف نكتشف ان هذه المشاكل يمكن وضعها تحت ثلاثة تقسيمات عريضة .

فهناك أولا . مشاكل يواجهها المصريون المهاجرون فى مواجهة هذا المجتمع الجديد الذى هاجروا اليه .

وهناك ثانيا : مشاكل يواجهها المصريون المهاجرون فى مواجهة مستقبلهم .
وثالثا : مشاكل يواجهها المصريون المهاجرون بالنسبة لانفسهم .

x x x

ولو اخذنا النوع الاول من المشاكل فسنعرف انه مشكلة تكيفهم الاخلاقى مع هذا المجتمع الجديد . فالرجل هنا يجب ان ينظر الى المرأة بمنطق الزميل ، الصديق ، وليس بمنطق الصائد الذى يطارد فريسة امامه .

والرجل هنا يجب ان ينظر الى رئيسه فى العمل على انه صاحب العمل ، وليس مجرد رئيس للعمل . انه - فى حالة وقوع خطأ كبير منك - لا يعاقبك - انه ببساطة يفصلك !

والصديق هنا يجب ان ينظر الى صديقة على انه مجرد شخص له : صباح الخير وانتهى الامر : لا عواطف لا علاقات شخصية .. لا شلل . ان المصرى اعتاد فى بلده على ان وجود شلة من الاصدقاء هو شكل من اشكال الاحساس بالامن الاجتماعى لا شلل هنا .

والمصرى اعتاد على أن الصديق هو الشخص الذى يلجأ اليه وقت الشدة . يقترض منه مثلا . لا قروض شخصية هنا .

والمصرى اعتاد على أن الزميل والصديق والقريب هم أشخاص يجاملونه فى كل مناسبة . لا مجاملات هنا . فى الواقع ان أى انسان يذهب الى المستشفى مثلا لاجراء عملية جراحية لا يتلقى سوى بطاقة تمنيات بالشفاء تصله من أصدقائه بالبريد .. بالكثير .. باقة ورد .. لا زيارات ، لاسلامات ، لاتليفونات .. وحتى الشخص الكندى عندما يدخل مستشفى فلن زوجته لاتجلس حتى تجرى العملية . انها تدق من عملها تليفونا للطبيب لتطمئن منه : هل نجحت العملية ؟! بعدها فقط - بعد ان تخرج من عملها - ربما تذهب الى زوجها لتزوره فى المستشفى .

والمصرى الذى اعتاد فى مصر على ان « الاولاد زينة الحياة » .. سوف يكتشف هنا ان الاولاد هم « عبء الحياة » .. انه لن يجد هنا ابا له سبعة اولاد ، او ستة او حتى اربعة .. بالكثير اثنين، او ثلاثة . بل أن المصرى الذى عاش فى بلده يسمع شعارات تحديد النسل باعتبارها مجرد شعارات ، سوف يكتشف ان تحديد النسل هنا ليس شعارا وانما ضرورة .. ان انجاب طفل جديد هنا معناه ان الزوجة يجب ان تتوقف عن العمل . وتوقف الزوجة عن العمل معناه اهتزاز ضخيم يصيب دخل الزوجين .. وحتى اذا تحمل الزوجان هذا الاهتزاز فان مصروفات هذا ان طفل الجديد لابد من حسابها مقدما .. وعلى رأى أحد المصريين المهاجرين بمونتريال واسمه عادل فهمى :

« انا فى الحقيقة متزوج منذ ست سنوات .. زوجتى كمصرية طبعا .. انها تعمل موظفه فى رويال بنك بمونتريال .. موظفة تحصل على مرتب ٥٥٠ دولارا فى الشهر ومع ذلك فانا بعد ست سنوات من الزواج لم ننجب طفلا واحدا .. انا نحن الذين نريد ذلك . فانا لو انجبنا فيجب ان نخسر زوجتى الـ ٥٥٠ دولارا التى تحصل عليها كل شهر .. انا سوف ننجب طبعا اطفالا فى المستقبل ، ولكن .. ليس قبل ان نبني الاساس اللازم لتربية طفل جديد فى مستوى معقول من المعيشة » .

وحتى اذا لم يكن المصرى المهاجر راغبا فى انجاب اطفال جدد ، وحتى اذا لم يكن متزوجا أصلا ، فان مشكلة اخرى سوف تواجهه : **مشكلة البحث عن زوجة ..**

ان بعضهم يتزوج طبعاً بفتاة كندية ، أو امريكية ، أو اية فتاة اخرى .. ولكن معظمهم يفضل - في الواقع الفتاة المصرية . هنا نجد اكبر مشكلة اجتماعية تواجهها الجاليات المصرية .. في كندا .. وفي امريكا ايضا .. فالمصريون الشباب - غير المتزوجين - الموجودين هنا في كندا - تزيد نسبتهم عن المصريات الشابات غير المتزوجات بحيث تصل الى عشرة شبان مقابل كل فتاة واحدة ! نعم .. عروس واحدة مقابل كل عشرة رجال . هذه حقيقة . هذه في الواقع مشكلة .

فلأن الذين يهاجرون هم غالباً شبان * ولأن هؤلاء الشباب يفضلون البقاء سنة أو سنتين أو خمسا قبل الاستعداد للزواج .. فانهم حينما يستديرون حولهم للبحث عن عروس مصرية يجدون أن عدد الفتيات اللاتي في سن الزواج هم قليلات نادرات . أن العائلات المصرية موجودة طبعاً ، والفتيات في هذه العائلات موجودات طبعاً ، ولكنهن غالباً صغيرات السن .. صغيرات جداً على الزواج .

واقـد قال لي الاب روفائيل ممثل الكنيسة المصرية في كندا وامريكا . « اتنى في كل مكان اذهب اليه .. في كل مدينة اذهب اليها بحكم عملى .. في مونتريال أو تورنتو أو اوتلوا .. وحتى في نيويورك أو بوسطن .. أجد دائماً نفس السؤال : ألا تعرف لنا عروسا مصرية مناسبة ؟ .. انها في الواقع مشكلة كبيرة يواجهها الشباب المصرى المهاجر هنا في كندا وامريكا على السواء » ..

ان هذه المشكلة - مشكلة البحث عن عروس - يواجهها الاب روفائيل منذ بدأ عمله في كندا ، أى منذ أكثر من ثلاث سنوات . ولقد واحـت انا نفس هذه المشكلة مرة منذ شهور قليلة . . كانت المشكلة هى مشكلة صديق مصرى يعمل معيدا في إحدى الجامعات بأمريكا . انه معيد .. ويعـد رسالة الدكتوراه لـكى يقـدمها الى الجامعة الامريكية التى يعمل بها .

وفوجئت ذات يوم بهذا الصديق في مصر وهو يقول لى : لقد جئت في اجازة لمدة اسبوعين .. انها اجازة مفاجئة اننى اريد الزواج ! نعم انا الان في سن مناسبة (٣٥) ودخلت مناسب (٨٠٠ دولار شهرياً) . وأرجو أن أتمكن في اختيار عروس لى خلال هذين الاسبوعين اللذين سأقضيهما في مصر . أسبوعين لا عمل لى خلالهما سوى : البحث عن عروس !

وأبدت للصدیق شكی الشدید فی امكانیة عثوره على عروس مناسبة خلال اسبوعین ان المسألة هی بحث عن زوجة .. ولیست بحثا عن زوج من الاحذیة !! وقلت له من الافضل ان تلجا الى اسرتك لعلها تجد حلا لهذه المشكلة .

ولكن الصدیق المصرى لم یكن یثق فی رأى اسرته . انهم - بالكثیر - سوف یختارون له عروسا من البیت المجاور فی قریته بینما هو یرید عروسا متعلمة ، مثقفة ، تستطيع الحیاة معه فی امریکا ..

وبالطبع ظل صدیقى هذا یؤجل عودته الى امریکا أسبوعا ثالثا ورابعا ، وخامسا ، وعاشرا .. الى ان عاد من جدید الى امریکا بعد شهرین ونصف شهر دون العثور على العروس المطلوبة . انها بالحق مشكلة .. وهی مشكلة یواجهها کثیر من الشبان المصریین المهاجرین فی امریکا وكندا .

x x x

ومع صعوبة هذه المشكلة ، فانها فی الواقع لیست أهم مشكلة یواجهها المصریون المهاجرون فی كندا . انها - حتى - لیست أخطر مشكلة ، ولا هی أكثر المشاكل الحاحا .. ان أخطر مشكلة هی - فی الحقیقة - قدرة المصرى المهاجر على مواجهة مستقبله فی هذا البلد الجدید الذى یهاجر الیه .. كندا . فی حالته هذه .

ان المصرى عندما یهاجر یجب ان یفرق بین شیئین مختلفین :

أولا : البحث عن العمل ..

ثانیا : البحث عن العمل .. المناسب .

هناك فارق کبیر بین الاثنین . فالعثور على عمل - أى عمل - لیس هو المشكلة . ولكن المشكلة هی العثور على العمل المناسب . ان الخطوة الأولى قد تستغرق اسبوعا أو شهرا . ولكن الخطوة الثانية قد تستغرق سنة .. أو حتى خمس سنوات .

ان عدم الاستعداد النفسى السابق لمواجهة هذه المشكلة .. قد كان سببا - مع اسباب أخرى طبعاً - فی حالات الفشل القلیلة التى واجهها مصریون هاجروا الى كندا ، وسمعت بقصصهم هنا ، فی مونتريال .

مثلا .. مهندس معمارى ، كان یعمل ، مدیر ادارة إحدى المؤسسات العامة الكبرى فی القاهرة .. عندما هاجر هذا الرجل الى كندا حاول أن یعمل مهندساً معمارياً . ففشل . لقد فوجئ

بأنهم لا يعترفون بشهادته .. وان كل ما هو ممكن بالنسبة له ان يعمل كرسام معمارى .. وليس كمهندس معمارى .
ولانه اعتاد فى مصر على ان يكون مديرا ، وليس حتى مجرد مهندس .. فلقد كانت هذه الحقيقة جديدة بالنسبة له .. حقيقة مؤلمة . انه الآن لن يجد ساعيا يقف له بسبب وبغير سبب، لن يجد مرءوسا ينحنى له باعتبار « سعادة البية » انه هو نفسه يجب ان يبدأ حياته كمرءوس جديد .

لقد ظل هذا المصرى المهاجر فى اضطراب نفسى شديد لمدة اربعة اشهر . اضطراب لم يستطع بعده ان يقنع نفسه بأن العمل المناسب لخبرته سوف يتأخر قليلا .. وان عليه أولا ان يحصل على عمل .. اى عمل .. كخطوة اولى .. وحينما لم يستطع التغلب على هذه المشكلة النفسية .. جمع حقائبه وعاد الى مصر من جديد .. عاد الى فنجال القهوة والساعى وسعادة البية دخل .. وسعادة البية خرج !

واذا كان هذا النموذج المصرى لم يستطع التفرقة بين العمل .. والعمل المناسب ، فان مصريين آخرين كثيرين قد ارغموا انفسهم على الاقتناع بهذه التفرقة .

خذ مثلا هذا النموذج : المهندس سعد فهمى حنا . انه مهندس مصرى ، متخرج من هندسة القاهرة منذ ١٨ سنة . مهندس معمارى . مهندس كان آخر عمل له فى مصر هو المتابعة والتخطيط بالمؤسسة المصرية العامة للاسكان والتعمير .

وعندما هاجر سعد الى كندا منذ ثلاث سنوات اكتشف حقائق كثيرة لم يكن يعلمها من قبل .. اكتشف مثلا انه لى يعمل مهندسا فلا بد ان يحصل على عضوية نقابة المهندسين المعماريين . ونقابة المهندسين .. مثل اى نقابة اخرى فى كندا - تضع شروطا قاسية لمنح العضوية .. لان من مصلحة اعضاء النقابة ان يظلوا على قدر الامكان من دخول اعضاء جدد فى المهنة ، ليس امامه الآن سوى واحد من حلين .

الحل الاول تنفيذ شروط النقابة : ثلاث سنوات خبرة فى الاعمال المعمارية . بكندا ، بالإضافة الى النجاح فى اختبار - خاص يعقدونه فى المحاسبة وإدارة الاعمال لتثمين الاراضى . وهذا كله يأتى بالطبع بعد الحصول على بكالوريوس فى الهندسة المعمارية ، من احدى الجامعات التى تعترف بها النقابة ، وليس فيها بالطبع جامعة مصرية ..

والحل الثاني : هو العمل مؤقتا كرسام معمارى .. وليس كمهندس معمارى حل مؤقت الى ان يستطيع سعد ان يحل مشكلته الرئيسية فى العمل كمهندس معمارى .

و .. بالطبع قبل سعد الحل الثانى . حل عطلى . لهذا عمل كرسام معمارى (ب ٦٠٠ دولار مرتبا فى الشهر) . لمدة ستة اشهر ولان المكاتب المعمارية هنا - فى كندا ... تقوم وتنتهى على اساس مهمة محددة ، فان المكتب صفى بعد ستة اشهر حينما أنتهى العمل المسند اليه . بعدها عمل سعد بمكتب آخر لمدة سنة هذه المرة .. بعدها عمل فى مكتب ثالث ، ب ٨٠٠ دولار كمرتب شهرى هذه المرة . وهو العمل الذى يقوم به حاليا .

اما لو كان سعد قد حصل على عضوية نقابة المهندسين المعماريين فان الوضع كان سيختلف معه جدا . فمرتب المهندس المبتدىء هنا - فى كندا - يبدأ بثمانمائة دولار فى الشهر .. بالاضافة الى انه يعتبر شريكا فى المكتب الذى يعمل به . شريكا بغير مساهمة فى رأس المال .. وهذا معناه أن دخل المهندس المبتدىء لا يقل عن ١٠٠٠ دولار فى الشهر .

ولكن .. لان سعد وجد مشكلة لم يتنبأ بها عند طلب عضوية نقابة المهندسين .. فانه لم يقف عاجزا .. ولم يشعر بالفشل . او يحس بالهزيمة .. لقد استطاع ان يفرق بين ضرورة البحث عن أى عمل فى البداية .. الى ان يتمكن من العثور على العمل المناسب فى النهاية ..

واذا كان سعد قد اختار العمل كرسام معمارى بدلا من مهندس معمارى ، فان مهندسا آخر - مهندس كهرباء هذه المرة - قدم اتجه الى التدريس .. انه الآن يعمل مدرسا للطبيعة باحدى المدارس الثانوية فى مدينة اوتاوا عاصمة كندا .. بمرتب سنوى يبلغ ١١ الف دولار .

والواقع انك ستجد فى كندا ان حوالى نصف المصريين المهاجرين يعملون بالبداية اعمالا غير التى تخصصوا فيها فى مصر أو غير التى توقعوها فى كندا .. سوف تجد مثلا خريج حقوق أو تجارة يعمل بأتعا فى محل بقالة أو طبيا يعمل تحت التمرين أو مهندسا يعمل مدرسا ..

× × ×

ان احد الاسباب الرئيسية فى ذلك هو - كما اشرت من قبل -

تحكم النقابات المهنية هنا في كل مهنة فكل الناس هنا لهم نقابات، حتى موظفو الحكومة لهم نقابات فرعية ثم نقابة عامة . ولأن النقابة هي بطبيعتها تنظيم لحماية مصالح الاعضاء الموجودين فعلا - فانها غالبا تضع شروطا قاسية أمام الاعضاء الجدد . شروطا هدفها أولا المحافظة على المهنة نفسها ، ثم بعد ذلك تخفيض فرص انضمام أعضاء جدد الى أقل قدر ممكن .

والسبب الثاني لمعظم حالات الفشل هنا هو عدم اهتمام المهاجر بكتابته الملخص المطلوب منه عن خبرته . . عندما يقدمه الى الشركة أو المؤسسة التي يطلب العمل بها . مهندس معماري مثلا كتب في ملخص خبرته انه كان في مصر يشرف على بناء العمارات والمباني السكنية . انه لم يكن يعلم أن المهندس في كندا مهمته أن . . يهندس . ان الوقوف على ايدي عمال البناء للإشراف على اقامة عمارة هو عمل يسندونه في كندا الى رجل غير مؤهل مطلقا . اما المهندس المعماري فان مهنته أولا أن يضع الرسوم المطلوبة منه . . ثم يمر على المبنى مرة واحدة - مجرد مرور . لهذا عندما كتب المهندس المصري أن خبرته التطبيقية بعد البكالوريوس هي الاشراف شخصيا على بناء كذا مبنى في القاهرة . . رفضوه .

والواقع أن قصص الفشل - أو عدم التكيف - بين المصريين المهاجرين في كندا تمثل أقلية ضمن أغلبية عامة من الناجحين ومع ان الفاشلين أقلية الا أنه يظل من المفيد أن نعرف بالضبط أسباب فشلهم .

فبعض الذين يهاجرون يعتبرون أن الهجرة بديلا عن السياحة . . « . . حنخسرايه يعنى . . أهو الواحد يتفرج الدنيا عايشة ازاي » . . ان من يخرج من مطار القاهرة أو ميناء الاسكندرية بهذا الاحساس سيفشل قطعاً . انه سائح أكثر منه مهاجرا . ان تصرفاته التالية كلها لن تكون أبدا تصرفات مهاجر .

وبعض الذين يهاجرون يعتبرون ان عدم الحصول على وظيفة حكومية مماثلة لوظيفته في مصر . . هو الفشل . ولست أدري ما هو السحر الذي يوجد في الوظيفة الحكومية بحيث يظل المصري مشدودا اليها هكذا حتى في آخر الدنيا . ان الوظيفة الحكومية هي وظيفة المرتب المضمون ، ولكنها أيضا وظيفة الدخل الثابت . انها وظيفة آمنة . . ولكنها ليست عملا مشرا للطموح .

ان عدد أفراد الجالية المصرية في مدينة تورنتو بكندا مثلا يتراوح تقديره بين ٦ و ٨ آلاف . ومع ذلك فان شخصا طبيبا

واحدا فقط - الدكتور سعيد طلعت - هو الذى فتح عيادة خاصة ، وشخصا واحدا فقط هو الذى اقام ورشة لتصليح السيارات ، وشخصا واحدا فقط هو الذى اقام مصنعا للكريستال وشخصا واحدا فقط هو الذى فتح محطة بنزين . الباقون اغليبتهم الكبرى موظفون . وحتى عندما تسمع عن فنان مصرى اسمه منير حسنى . . استطاع ان يفوز بتصميم جميع الديكورات لمبنى برلمان اونتاريو الجديد - فانك تسمع ايضا انه حقق هذا العمل من خلال وظيفته كرئيس لقسم الديكور فى حكومة مقاطعة اونتاريو ان الاصرار دائما على الوظيفة الحكومية - وبغير بديل عنها - حتى مؤقتا - يمثل واحدا من الاسباب التى تجعل بعض المهاجرين يحس مبكرا بالفشل ، بينما هو فى الحقيقة لم يفشل . . ولكنه لم يخاطر ، لم يفامر .

وهناك عامل جديد يضاف الى مجموعة العوامل النفسية السابقة وهو التوقعات المرتفعة التى تسافر فى عقل المصرى مع هجرته . انه يسافر متوقعا ان يجد كل التسهيلات من ادارة الهجرة اليوم ، ويحصل على العمل المناسب غدا ، ويصبح مليونيرا بعد غد . من الجائز ان يحدث هذا كله . ممكن . ولكنه اذا حدث فهو استثناء وليس قاعدة عامة . القاعدة العامة ان المهاجر يجب ان يسافر بروح المحارب ، وليس بروح الباحث عن الثروة السهلة السريعة . انه يستطيع ان يكون ثريا ، ربما يستطيع ان يكون مليونيرا ، ولكن ليس قبل ان يفشل مرة ، ويضيع مرة ، ويفصل مرة ، وتتعب كل يوم ! انه يجب ان يكون محاربا . . قادرا على التمييز الدقيق بين الهزيمة فى معركة . . والهزيمة فى حرب وبين الفشل المؤقت والعجز الدائم .

ان العوامل السابقة تتعلق بالحالة النفسية للمهاجر يوم هجرته . ولكن هناك عوامل اخرى تتعلق بكفاءته الشخصية ، او بقدرته على التنبيه مقدما لعدد من المشاكل . . مشاكل قد تبدو له بسيطة قبل هجرته ، ولكنها لن تصبح كذلك بعد هجرته .

مثلا . . لو افترضنا ان المهاجر يحمل بكالوريوس الطب او العلوم او ليسانس الحقوق مثلا . . فانه يجب ان يتنبه الى ضرورة معادلة شهادته قبل سفره . هذا والا . . فلن يعترف احد بشهادته بعد هجرته . . نظرا للقوة التى تتمتع بها النقابات ، والتى اخذنا فكرة عنها من قبل . وفى حالة عدم الاعتراف بشهادته بعد هجرته فانه سيضطر اما للاشتغال بعمل آخر غير تخصصه ، او

الدراسة من جديد . . دراسة الطب مثلا مع أنه طبيب ! . واما أن يعمل ويلرس في وقت واحد .

والمشكلة التالية في الأهمية هي اللغة . ان الاكتفاء بتعلم اللغات الأجنبية على مستوى الجامعة في مصر ليس معناه مطلقا أنك تجيد الانجليزية أو الفرنسية . في الواقع أن مستوى تعليم اللغات الأجنبية عندنا قد هبط الى درجة لا تصدق . ونتيجة لذلك فان البرامج التعليمية التي كان المهاجر يستطيع أن يأخذها قبل سفره من مصر . . سوف يضطر الى دخولها في كندا - أو أى بلد آخر يهاجر اليه - والا فإنه سوف يظل يتخبط عدة أشهر عاجزا عن التفاهم بدقة مع المجتمع المحيط به .

x x x

واذا كنا قد تناولنا حتى الآن مشاكل المصريين المهاجرين مع مستقبلهم في كندا ، ومشاكلهم مع القيم الاخلاقية المختلفة في كندا ، فسوف يظل أمامنا الآن نوع آخر من المشاكل . انها - هذه المرة مشاكل المصريين مع أنفسهم !

فأولا - ابتداء من مطار القاهرة - نحن نعامل المصرى المهاجر كما لو كان فارا من الخدمة العسكرية (مع أنه أدى الخدمة العسكرية !) نعامله كما لو كان قراره بالهجرة هو جريمة يجب أن يعاقب عليها حتى آخر لحظة . ان بقايا هذه النظرية تمتد لتلاحق المصرى المهاجر . . حتى خارج حدود بلده .

انى أتصفح الآن - وأنا اكتب هذه الكلمات - منشورا بالأجراءات والرسوم المطلوبة من المصرى المهاجر . منشورا طبعته ووزعته سفارتنا في كندا . في هذا المنشور تستطيع أن تقرأ ان الرسوم التي يجب أن يدفعها المصرى لاعادة قيده في سجلات القنصلية هي خمسة دولارات . رسوم استخراج شهادة ميلاد هي ثمانية دولارات ونصف ، ١٨ دولارا ، اصدار جواز سفر ٢٣ دولارا ، بدل فاقد لجواز سفر ٢٣ دولارا و . . و . . و . . معنى ذلك أن الاسرة الواحدة المكونة من خمسة أفراد يجب أن تدفع ٢٢٥ دولارا لو تصادف أن احتاج كل فرد فيها الى القيد في القنصلية واستخراج شهادة ميلاد والتصديق على شهادة وتجديد جواز سفره تصور ؟ ٢٥٥ دولارا تطلبها من مهاجر لا يملك في شهره الاولى أى رصيد يواجه به مستقبلا ما زال مجهولا .

ونتيجة ذلك هي أننا السفارة العربية الوحيدة في الخارج التي تحمل مواطنيها هذه الاعباء . . بينما السفارات العربية الاخرى

تطلب رسوما أيضا ، ولكنها تعفى مواطنيها من الدفع اذا كتب اقرارا بأنه لا يستطيع .

ونتيجة ذلك أيضا ان نسبة ضئيلة جدا من المصريين المهاجرين في كندا هي التي تقيد نفسها في سجلات قنصليتنا بالعاصمة الكندية .

أولا بسبب ارتفاع الرسوم ، **وثانيا** بسبب وجود القنصلية الوحيدة بكندا في أوتاوا العاصمة . ونظرا لان العاصمة هي مجرد قرية كبيرة ، فان المهاجرين غالبا ما يتركزون في المدن الكبرى بين مونتريال شرقا وفانكوفر غربا . هذا معناه انه اذا أراد اى منهم التصديق على شهادته أو تجديد جواز سفره فلا بد ان يضيع يوما كاملا في السفر الى العاصمة والعودة منها . وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك في يومى إجازته - السبت والاحد - لان القنصلية تكون هي الأخرى في إجازة . يجب عليه اذن أن يخسر أجبر يوم من ايام عمله بالاضافة الى تكاليف السفر ذهابا وإيابا . . مع افتراض ان اجراءاته ستنتهى في نفس اليوم ، وهو افتراض غير صحيح غالبا ، نظرا للزحام المستمر على الموظفين المحدودين بالقنصلية .

والواقع ان السفير المصرى الحالى في كندا - السيد / محمد شكرى - قد حاول منذ وصوله اتخاذ الاجراءات الممكنة لتذليل بعض هذه الصعوبات أمام المهاجرين المصريين . ففي يوم محدد في بداية كل شهر مثلا . . كنت أرى القنصل المصرى في أوتاوا - عبد الفتاح زكى - يسافر الى مدينة مونتريال لقضاء يوم بأكمله في فندق محدد مقلما بمدينة مونتريال ، لكى يمارس من هناك الاجراءات القنصلية المطلوبة . هذا حل معقول ، ولكنه مازال حلا مؤقتا أو غير شامل .

والمسألة في النهاية ليست مجرد اجراءات ، وانما هي اساسا أسلوب معاملة . أسلوب تعامل به مواطنينا المهاجرين في الخارج . ان المصرى المهاجر قد يتقبل كل هذا التعنت في معاملته . . لو تمت هذه المعاملة بأسلوب مقبول . لقد سمعت مثلا مئات من المصريين يمتدحون كفاءة قنصل مصرى سابق يعمل حاليا دبلوماسيا بالسفارة المصرية بكندا . انه شاب اسمه : عادل الخضرى . ماذا يستحق المدح في عادل ؟ لا شيء أكثر من أنه كان يعطيهم الاحساس بأن القنصلية في خدمتهم وتتمنى مساعدتهم .

ان المسألة في النهاية هي « لا قينى . . ولا تغدينى » ! وهذا بالضبط ما ننبه اليه سفيرنا النشط الحالى في كندا ، لقد تنبه

الى ان حالة القطيعة القائمة بين بعثتنا الدبلوماسية والقنصلية . .
وبين المصريين المهاجرين . . يجب ان تنتهى .

x x x

ومع ذلك . . فهذه (القطيعة) لم تنته بعد . . لماذا ؟ انها لم
تنته لان المصريين المهاجرين في كندا لم يقوموا هم ايضا بواجبهم .
وعلى راي الدكتور مصطفى الهلالى في شيربروج : « انا حتى الآن
مازلنا نضعف الجاليات المهاجرة هنا . . رغم اننا من احسنهم
تعلما واكثرهم كفاءة . ليس هنا بسبب تفككنا فقط ولكن لانه
حتى الآن لا توجد لنا رابطة ، ولا حتى ناد ، في اى مدينة او
قرية في كندا » .

وفعلا تستطيع ان تجد صحفا ونوادى وروابط وجمعيات
للجاليات الايطالية ، اليونانية ، اللبنانية ، السورية . . لكل
جالية . . ماعدا الجالية المصرية في كندا !

ان المنظمات الدينية هي فقط التى تنظم بعضا من النشاط
الاجتماعى للمصريين المهاجرين في كندا . وحتى في هذا المجال . .
لو تركنا جانبا المساجد الاسلامية الموزدة في ادمنتون ، ولندن
او توريو ، وتورنتو ، فاننا سوف نجد اماننا فقط الجمعية
الاسلامية في مدينة تورنتو .

ان هذه الجمعية تتكون اساسا من اعضاء باكستانيين وهنود
والبنانيين ، مسلمين نعم ولكن الاقلية منهم فقط مصريون . ليس
هذا فقط ، ولكن الجمعية هي ايضا - بحكم اعتمادها الاساسى
على تبرعات الاعضاء - محدودة الامكانيات . لقد بدأوا نشاطهم
مثلا منذ عدة سنوات بتاجير صالة في مبنى صغير غرب مدينة
تورنتو ، لكى يمارسوا فيه شعائر الصلاة ويعقدوا الاجتماعات .

وحيثما راودهم حلم بناء مسجد ، لم يجدوا امكانيات تسمح
بذلك البداية ، فاشتروا كنيسة بسبعين الف دولار لكى يحولوها
الى مسجد . ولا انهم اتفقوا على دفع الثمن بالتقسيط فقد بدأوا
يجمعون التبرعات لدفع اقساط مسجدهم الذى كان في الاصل
كنيسة . وفي احدى المرات قام مليونير مسلم البانى مهاجر بدفع
خمس آلاف دولار . في مرة اخرى قامت مليونيرة مسلمة
باكستانية الاصل بدفع سبعة الاف دولار . المصريون الموجودون
ايضا ساهموا بتبرعات تتراوح بين خمسين ومائة دولار لكل
شخص .

وبهذه الامكانيات المحدودة تمارس الجمعية الان نشاطها في مدينة

تورنتو . ان رئيسها الحالي اسمه الدكتور على . . مسلم من اصل باكستاني يعمل استاذا للعلوم الاسلامية في جامعة تورنتو ويؤم الصلاة كل يوم احد . طبعا الصلاة هي كل احد لان الجمعة ليست يوم اجازة في كندا .

في يوم الاحد يجتمع المسلمون في ذلك المسجد بتورنتو - رجلا وسيدات - لاقامة الصلاة اولا ، ثم النزول الى الدور الارضي بعد ذلك لعقد ندوات لتفسير القرآن ، او شراء مأكولات صنعتها العضوات المسلمات في منازلهن ويتبرعن بحصيلة بيعها لصالح المسجد .

واذا ابتعدنا عن تورنتو لى نتجه الى مدينة مونتريال فسوف نجد ان المنظمة الدينية الاخرى التى تمارس نشاطا اجتماعيا هي الكنيسة الارثوذكسية المصرية . ان ممثل هذه الكنيسة في كندا والولايات المتحدة هو القس روفائيل . انه في الواقع شخصية ممتازة تحدثت عنها في فصل سابق . ولكن المهم هنا ان الاب روفائيل استطاع في خلال فترة وجوده القصيرة بكندا ان يجتذب عددا كبيرا من المصريين المقيمين في نيويورك ، شيربروج ، أوتاوا ، بنويورك ، بوسطن ، ومدن اخرى كثيرة في أمريكا وكندا .

وبالنسبة لكندا ، فان الكنيسة الارثوذكسية المصرية تمارس شعائرها هناك عن طريق كنيسة تستأجرها في مدينة مونتريال بمائة دولار شهريا ، كحل مؤقت الى ان تقيم الكنيسة الخاصة بها . وفي تلك الكنيسة المستأجرة يقوم المسيحيون من المهاجرين المصريين بعقد الاجتماعات وممارسة شعائرتهم أيام الجمعة والسبت والاحد كل اسبوع . وفي تلك الكنيسة يقيم الاب روفائيل القداس ويلقى المحاضرات المتابعة . محاضرات تعالج المشاكل النفسية المعاصرة التى يعيشها الشبان المصريون المهاجرون . مشاكل مثلا ظاهرة الخنافس ، العلاقة بالجنس الآخر ، العلاقة بالاب والام داخل البيت . . الخ .

ومع انه نشاط واسع ، ذلك الذى يمارسه الاب روفائيل في كندا كممثل للكنيسة المصرية ، الا ان ضعف الامكانيات المادية مازال في الواقع حاجزا يمنع مضاعفة هذا النشاط . صحيح ان الاب روفائيل اخبرنى انهم يرسلون سيارة تنتظر كل مهاجر مصرى جديد في المطار او الميناء ثم يوفرون له بعد ذلك مسكنا رخيصا . . اذا اخطروهم بوصوله مقدما . . وصحيح ان الاب روفائيل يقوم بعقد

القران للمصريين واحيانا تقديم الهدايا لهم مجاناً .. ولكن الاب
روفائيل نفسه له عدة شكاوى .. هذه بعضها :

« ان جريدة وطنى تأتى لنا من القاهرة مجاناً . ولكننا فى الواقع
نحتاج الى نسخ من كل الصحف المصرية أرجوكم ان تعبر عن حاجتنا
الشديدة الى نسخ - ولو محدودة - من هذه الصحف .. حتى
ولو أرسلت لنا الاعداد الاسبوعية فقط .. فنحن لا نعرف هنا
أخبار الوطن سوى من الصحف الاجنبية .. » لا توجد لدينا
كتب أو أية مطبوعات سياحية عن مصر . نحن نريد مطبوعات
سياحية بالانجليزية والفرنسية . مطبوعات مختصرة ولكن
ملونة . ان لدينا عددا كبيرا من المصريين الذين يعملون مدرسين
هنا .. وكثيراً ما يسألهم الطلبة عن أية معلومات مطبوعة عن مصر .

« .. نحن نريد من اذاعة القاهرة ان تساعدنا هنا - على الأقل
بالمواد الاذاعية . ان كل جالية هنا لها برنامج اذاعى تعده لى يتابع
أعضاؤها نشاطهم وأخبار وطنهم . اننا لم ندر بعد الـ ١٥٠ دولاراً
اللازمة لاستئجار ساعة اذاعية من أى اذاعة محلية هنا .. ولكن
وصول المواد الاذاعية اليها من القاهرة سوف يسهل المهمة الى
حد كبير » .

« .. اننا نريد برامج عديدة ولكن أهمها فى رأى برامج لتعليم
اللغة العربية للصغار . اننا اذا لم ننتبه الى هذه المشكلة فان الجيل
الثانى من المصريين هنا سوف ينشأ وهو حتى لا يتكلم لغة وطنه
الاصلى .. »

x x x

ان نفس المشكلة عبرت لى عنها فتاة مصرية هاجرت مع أسرتها
الى مونتريال . اسمها سونيا هنرى حشيمة . طالبة بكلية الآداب
فى جامعة ماكجيل بمونتريال . عمرها ٢٠ سنة . تخصصت
فى الأدب الفرنسى . تحلم بالعمل بعد التخرج فى قسم الترجمة
بهيئة الأمم المتحدة .

تقول سونيا : اما عن نفسى فأننى اتكلم العربية بطلاقة كما ترى .
كذلك أخى اكرام . ولكننا بداننا نواجه هذه المشكلة بالنسبة لأختى
الصغرى ماجده - ١٢ سنة . ان ماجده تفهم اللغة العربية ولكنها
لا تستطيع التحدث بها . وما يضاعف المشكلة ان الصحف المصرية
لا تصلنا هنا ، ولا الاذاعة المصرية مسموعة هنا . وهذه مجرد
صورة متكررة من مشكلة واحدة تواجهها العائلات المصرية فى
مونتريال .. بل فى كندا كلها .

و ... ما هي نتيجة هذا كله ؟

ان تكيف المصرى المهاجر مع المجتمع الجديد عليه في كندا هو غالبا مشكلة فردية . ونجاح المصرى المهاجر في صنع مستقبله في المجتمع الجديد هو غالبا مشكلة أكثر من فردية وأقل من أن تكون عامة .
أما نجاح المصرى المهاجر في الارتباط بوطنه فإنه في الواقع عمل يجب أن يبدأ في القاهرة .. وليس في كندا .

ان أقلية محدودة فقط هي التى تعاني من النوعين الأولين من المشاكل . ولكن الأغلبية المطلقة تعاني من النوع الثالث . تعاني من حالة الانفصال والقطيعة القائمة حاليا بين المصريين داخل الحدود .. وهؤلاء المصريين خارج الحدود .

ان المصريين المهاجرين في كندا يمثلون أول تجربة واسعة لنا في الهجرة . أول جالية مصرية ضخمة خارج الحدود . ان ارتباطهم بنا يجب ألا يتعارض مع اندماجهم في المجتمع الكندى . اننا نمثل ماضيهم .. ولكن كندا تمثل مستقبلهم .. و .. الى أن يتم اندماجهم في المجتمع الكندى ، فلا بد أن نظل نظرتنا اليهم على أنهم مصريون . أنهم كانوا كذلك ، وسوف يظلون كذلك .. الى وقت طويل قادم .

x x x

هذا هو آخر سطر أسجله قبل الانتقال الى جالية مصرية ضخمة أخرى . انها الجالية المصرية التى هاجرت الى الولايات المتحدة الأمريكية .

ومع ان المجتمع الكندى هو صورة مخففة من المجتمع الأمريكى ، الا أنه تبقى في النهاية عدة فروق أساسية تميز الحياة في أمريكا - والهجرة الى أمريكا - عن الحياة في - والهجرة الى - كندا .
لماذا اذن نبدأ من البداية . لماذا لا نبدأ مع مهاجر مصرى الى أمريكا ، منذ تهبط طائرته لأول مرة في مطار نيويورك ؟ انها في الواقع تجربة ممتعة .. دعنا نجربها اذن .

صبح الخير .. في أمريكا !



• نيويورك •

• مطار كينيدي •

أنت الآن في أول مدينة أمريكية على المحيط الاطلنطي . في الواقع هي أكبر مدينة أمريكية . أنت الآن تهبط في واحد من مطاراتها الثلاثة . تهبط وفي رأسك ايربال يلتقط الانطباعات الطازجة في هذا البلد الجديد والمجتمع الجديد . عيناك في حالة تقسيم وظائف : عين ترى .. وعين تتساءل . اذن تسمع .. واذن تتلف .. يدك في حالة حمل . من المؤكد أنك الآن تحمل في يدك شيئاً ما - ربما عنزانا او عنوانين . ربما نصيحة من صديق . ربما حقيبة يد .

ربما بضع علب من السجائر أو المشروبات اشتريتها من الطائرة .
حسنا فعلت . فبعد قليل سوف ترى ان علبه السجائر في أمريكا
ثمناها نصف دولار ، أحيانا ستون سنتا - الدولار مائة سنت ،
وبحسبة بسيطة سوف نستنتج ان ثمن علبه السجائر يعادل
خمس قرشا مصريا ، أحيانا ستين ، هذا اذا كنت قد حصلت على
دولاراتك بغير السعر الرسمي . انك لن تتخلص من هذه العادة
قبل وقت طويل قادم . عادة تقييم كل شيء على أساس نسبته
الى السعر في مصر . عادة سوف تضايقك نتيجتها كثيرا ، الى ان
تبدأ في العمل في أمريكا . وقتها سوف تكتشف ان هذه الأسعار
معقولة بالنسبة لمستويات الدخل في أمريكا نفسها ، وغير معقولة
بالرة بالنسبة لمستويات الدخل خارج أمريكا . اصبر ...

انك لم تعمل بعد . في الواقع انت تفكر الآن في وسيلة مواصلات
تنقلك من مطار نيويورك الى نيويورك نفسها . هذا تفكير عملي .
ليس امامك سوى وسيلتين : تاكسي الى المدينة ، أو أوتوبيس الى
محطة شركات الطيران بالجانب الشرقى أو الغربى من المدينة أيضا .
لا تركب التاكسي ، ليس بعد انت محتاج الى الدولارات السبعة
أو الثمانية التى سيحسبها عليك العداد . انك الآن لست فى القاهرة .
لقد ودعت أسعار القاهرة .. ولن تجد بلدا فى رخص أسعارها
قبل وقت طويل .. طويل !

ان الأوتوبيس اذن هو الوسيلة العملية . وسيلة يستعملها
من هو أغنى منك عشرين مرة . ليست هذه هى المشكلة . ولكن
المشكلة هى : أى أوتوبيس تركبه ؟ . انك فى مطار نيويورك .
مطار كينيدي فى نيويورك . ان كل شركة طيران لها قسمها الخاص
من هذا المطار ، أو مطارها الخاص داخل هذا المطار . وانت الآن
فى الجناح الخاص بالشركة التى حملتك طائرتها . لقد خرجت بحقائبك
- أعانك الله - تريد الأوتوبيس . امامك أوتوبيسات كثيرة .
كل أوتوبيس يقف فى جزء خاص به من الرصيف . أوتوبيسات
تنقلك الى أجنحة شركات الطيران الأخرى فى نفس المطار .
أوتوبيسات تنقلك الى المطارين الآخرين فى نيويورك . أوتوبيسات
تنقلك الى محطة شركات الطيران بالجانب الشرقى من نيويورك . و ..
أوتوبيسات تنقلك الى الجانب الغربى من نيويورك . الحكاية كبيرة ؟
معلش ! حاول ان تسأل واحدا من العاملين فى المطار : لو سمحت ..
أين يقف الأوتوبيس الناهب الى محطة الجانب الشرقى ؟ لو سمحت
.. لو سمحت ...

انه لا يسمعك . حاول من جديد . مازال لا يسمعك . حاول
للمرة الثالثة .. ربما .

انه لن يرد عليك . واذا اعطاك ردا فهو رد مقتضب . رد يقذفه
في اذنك وينصرف قبل ان تتأكد تماما : ماذا قال لك بالضببط !
لا تندهش . لا وقت عنده لك ولا لغرك قلت لك لابد ان تنسى
ما تعودت عليه في مصر . الناس هنا يبدوون لك متعبين مشغولين
بأشياء كثيرة في أيديهم وعقولهم . وما لم يكن الشخص الذي تسأله
مخصصا للإجابة على السؤال الذي تريده ، فانك سوف تجده
مشغولا . هذا الشخص المناسب لاستفساراتك ربما يكون مضيعة
في مكتب شركة الطيران التي أتت بك الى نيويورك . ربما يكون
موظفة أخرى في مكتب الاستعلامات بالمطار . وربما يكون أميركيا
آخر جاء معك في الطائرة .

المهم .. انك في النهاية سوف تدبر أمرك بشكل ما . وها أنت
أمام الأوتوبيس الصحيح . ناول الحقائب للسائق . اعطه دولارين
ونصف دولار . هذا سعر التذكرة . ثم .. أصبحت الآن في مقعدك ،
والأوتوبيس في طريقه ، الجو بارد ممطر اذا كنا شتاء ، حار مشمس
اذا كنا صيفا .

انك الآن في الأوتوبيس . من المؤكد أنك اخترت مقعدا بجوار
النافذة . هذا شيء طبيعي من غريب في بلد غريب . انك تحاول
ان ترى من النافذة اكثر ما تستطيع على جانبي الطريق . مقدما
لن ترى سوى منازل .. واعلانات . سيارات .. واعلانات .
ناطحات سحاب .. واعلانات . آه .. قبل ان ترى ناطحات
السحاب سوف تلاحظ ان الأوتوبيس قد وقف مرة أو مرتين عند
بدايات على الطريق . بدايات على الجانبين . كل سيارة تمر من هنا
تدفع رسوما للعبور . أحيانا ربع دولار ، أحيانا نصف دولار ..
يقذفه سائق السيارة في السلة الميكانيكية فيضئ له النور الاخضر
أمامه اوتوماتيكيا .. الا اذا كان معه دفتر اشتراك . ان كل ولاية
تقيم اخذهم الطرق وأوسعها .. ثم تجمع التكاليف - تكاليف
الانشاء والصيانة - من الرسوم التي تدفعها السيارات عند بداية
كل طريق ونهايته . هكذا تمول بلدية كل ولاية عملية انشاء الطرق
الخاصة بها . لهذا نجد الطرق نظيفة ، مجهزة ، واسعة ، عريضة ،
سريعة . الطرق .. والاشارات .. والاتفاق .

انك الآن سوف تجد الأوتوبيس قد دخل في نفق طويل تحت
الارض . هذا نفق لنكولن في نيويورك . بعد هذا النفق تستطيع

أن تقول أنك في نيويورك ، أو - على الأصح - في جزيرة مانهاتن في نيويورك . ان هذه الجزيرة - بكل هذه المساحة ، كل ناطحات السحاب المرتفعة ، كل الشوارع الضخمة اشتراها الرجل الأبيض الأمريكى من الهنود الحمر بخمسة وعشرين دولارا !

وربما تسير في هذه الجزيرة طولا بعرض ، دون أن ترى من نافذة الأوتوبيس جندى مرور واحدا . انطباعك صحيح . فإشارات المرور كلها أوتوماتيكية . ان اصول التنظيم والإدارة مطبقة هنا - كما هي مطبقة في أشياء أخرى كثيرة - بكل دقة . جندى المرور يحتاج الى مرتب ، ويحتاج الى جاويز يرأسه ، وضابط يرأس الاثنين ، ومبنى للجميع ، وربما يحتاجون فى النهاية الى وزارة ووزير و . . لن يسمح دافع الضرائب بهذا كله . انه سوف يسمح فقط بالحد الأدنى الضرورى لحفظ النظام والمرور .

ان الاشارات هنا أوتوماتيكية . اذا اضاء النور الأخضر فى إشارة ، فانه سوف يضىء فى الاشارات الثلاثين أو الأربعين التالية . واذا اضاء النور الأحمر مرة ، وهربت منه ، فانك ستجده امامك فى جميع الاشارات التالية ، لا فائدة اذن فى مخالفة النظام . ثم ان من يخالف إشارة المرور هنا يدفع غرامة مرتفعة للغاية . واذا تكررت المخالفات والمخالفات فانهم يسحبون منه رخصة القيادة فى الولاية كلها .

ولكنك لم تصبح بعد صاحب سيارة . أنت مازلت فى الأوتوبيس . والأوتوبيس قد عبر لتوه نفق لنكولن . خمس دقائق أو ست ، ثم . . أصبحت فى محطة الجانب الشرقى من نيويورك . ها أنت قد أصبحت من جديد - مع حقائبك - على الرصيف . كلهم بدأوا من هذا الرصيف . أنك ربما تزيد عنهم فى أشياء قليلة . ربما تحمل فى جيبك مثلا عنوان صديق أو قريب . ربما تحمل اسم فندق . و . . ربما لا تحمل شيئا على الإطلاق .

فى هذه الحالة سوف تضطر الى السؤال فى المحطة عن أرخص فندق ممكن . ان الحجرة فى أرخص فندق هنا لن يقل سعرها عن ١٥ دولارا فى الليلة الواحدة ، أى أعلى من الحجرة فى فندق هيلتون بالقاهرة . ولكن . . ألم نتفق من قبل على أن أسعار القاهرة لا تقارن ؟ اذن لا داعى للمقارنات ، وفكر فى طريقة أخرى .

انا شخصا - رغم أننى مجرد زائر - وجدت هذه الطريقة الأخرى . انه ليس فندقا بالمعنى التجارى الدقيق . ولكنه فندق على أى حال ، مقبول على أى حال . الحجرة فيه ضيقة - نعم -

ولكنها نظيفة . وبها جهاز تليفزيون ومكتب وسرير و - الأهم من هذا كله - أنها بخمسة دولارات فقط في الليلة الواحدة . . . وأقل من ذلك إذا أعددت بطاقة عضوية في القاهرة . انسى اتكلم الآن عن جمعية الشبان المسيحيين ، التي تجلد لها فروعاً في كل مكان بأمريكا ، وفروعاً أخرى في معظم بلاد العالم . . . ومن بينها مصر . ان المشكلة هنا هي أنك لا تستطيع أن تحجز حجرة مقدماً . انت وحظك . .

أنك الآن في محطة الجانب الشرقى ، واقرب فرع لهذا الفندق الرخيص المقبول يقع في شارع ٤٧ . بالمناسبة : شوارع نيويورك منظمة بطريقة مستقيمة للغاية . الشارع الطولى يسمى أفينيو ، الأول ، الأفينيو الثانى ، الثالث ، ليكسنجتون ، بارك . . الخ . الشارع العرضى يسمى شارع : شارع رقم ١ ، رقم ٢ ، ٧ ، ١٢ ، ١١٢ ، وهكذا . .

لهذا لن تجد صعوبة في الوصول الى أى عنوان في نيويورك . وما دامت معك حقائب الآن ، فمن الأفضل أن تستقل تاكسيا ، خصوصاً أنه في هذه الحالة سيكلفك أقل من دولار واحد من شارع ٣٩ ، الى شارع ٤٧

لقد أوصلك التاكسى - لاتنس البقشيش - ثم دخلت من الباب الزجاجى الى موظف الاستقبال .

وها أنت تسأله : أريد حجرة لو سمحت !
انه يرد عليك : ممكن . . . لثلا . . . آيا . . . فق . .
- ماذا ؟

ان الموظف قد رد عليك بكلمات غير مفهومة ، او مفهومة ولكنك لم تلتقطها جيداً ، او التقطتها جيداً ، ولكنك لم تفهمها . دعنى أفسر لك ما قاله الموظف .

لقد قال لك : ممكن لثلاثة أيام فقط !

ولكنه نطقها باللهجة الأمريكية ، لهجة لا تعطيك تخرج واضحة للكلمات . ليس دائماً ، ولكن أحياناً . أنها مشكلة لغة اذن . وربما تكون هذه أول مشكلة لك في أمريكا . أنك لأول وهلة ستتصور أنك لا تتكلم بالانجليزية ، ولكن بالصعبدى . . . او تتصور ان اللهجة الأمريكية ليست انجليزية تماماً . اطمئن . . . كلا العيين موجود ، فيك وفيهم . اطمئن أيضاً على أنك حصلت على الغرفة يوماً أو يومين الى أن تتصرف ، او تتجه الى مدينة أخرى في أمريكا . لقد صعدت - مع حقائبك - الى الحجرة . أنك الآن تحاول

أن تستريح ، أن تنام ، ولكن ، مع أن عينيك حمراوين قليلا ، مع أن جسمك مرهق كثيرا ، فأنك لا تنام . أن فرق التوقيت هو السبب . لقد غادرت الطائرة لندن أو باريس في الثامنة صباحا . . ثم وصلت الى نيويورك لتجد أن الساعة ماتزال الثامنة صباحا . أنها ليست ساعتك فساعتك تشير الى أن الوقت هو الثالثة عصرا ، ولكنه التوقيت المحلي . عندما تصل الى نيويورك آخر ساعتك سبع ساعات - في الصيف ستا . . أنك ربما تظل أول ليلة أو ليلتين غير قادر على تكيف جسمك مع هذا التوقيت الجديد ، ولكنك ستفعل في النهاية على أي حال .

وما دمت أنك الآن لا تستطيع أن تنام ، فإن أمامك عدة مشاكل لابد أن تفكر فيها ، النقود مثلا ، كم تكفيك . الطعام . . . وكم يكلفك . لاشك أنك جائع وتعد نفسك للنزول الى أقرب مطعم في الشارع .

وقبل أن تفعل ذلك فإن مشكلة النقود سوف تفرض نفسها عليك مرة أخرى . أنك ربما - تلك حلا احتياطيا معك في حقائبك . ربما تحمل ذهبًا مثلا . نعم . . ذهب . الكثيرون من المهاجرين يفعلون ذلك عندما يهاجرون ، يأخذون بعض الذهب أو المجوهرات معهم الى مكان هجرتهم . ماذا في ذلك ؟ أليس الذهب عملة دولية ؟ أليست أسعاره ثابتة ومضمونة في أي مكان في العالم ؟ أليس . . ؟ لا . ليس الذهب كذلك . أن سعر الذهب في مصر من أعلى الاسعار في العالم . الذهب هنا - في أمريكا - سعره أرخص جدا جدا ، أن الذهب الذي يساوي مائتي جنيه في مصر ، يساوي هنا في أمريكا سبعين جنيها فقط . هذا ما حدث فعلا مع مصري أعرفه في نيويورك . لقد اكتشف - بعد فوات الأوان - أنه خسر ٦٥ جنيها في كل مائة جنيه ذهبا حملها من مصر . ثم أنه لم يأخذ إلا ٣٥ جنيها الباقية فورا . لابد أن ينتظر الى أن يرسل الجواهرجي عينة من الذهب لتعطيلها في المعمل . فعيارات الذهب الموجود في مصر غير معروفة في بلاد كثيرة في العالم . أنت لا تصدق ؟ تريد التأكد بنفسك ؟ تفضل . . .

أنت الآن في الشارع . وقبل أن تنزل لا تنس أن تأخذ مفتاح حجرتك معك . كان مفروضا أن تسلمه للفندق ، ولكن ليس هذا الفندق ، أنك سوف تلاحظ أن كل فندق في نيويورك قد وضع لك داخل الحجرة عدة أقفال داخل الباب ، وعدة تنبيهات مكتوبة على باب حجرتك من الداخل : « تأكد من أنك أغلقت حجرتك

جيدا ، نحن غير مسئولين عن الحجرة اذا لم تفعل ذلك ، وحتى اذا فعلت ذلك فنحن غير مسئولين عن اية نقود او اشياء ثمينة تتركها في الحجرة ، ما لم تسلمها الى الفندق » .

ان هذا صحيح في امريكا ، وصحيح جدا في نيويورك . ربما تسكن في نيويورك سنة دون ان تتعرض للسرقة . ولكنك عندما تتعرض لها .. فسوف يسرق منك كل شيء .

انا شخصيا سرقت منى حقيبة كتب مرة .. كتب استغرقت اسبوعا كاملا في اختيارها وشرائها ، وكلفتني مائة وخمسين دولارا ، كانت غلطة شلطنى . لقد صعدت الى شقة صديقى في الدور التاسع من احدى عمارات شارع ٤٤ . كنت احمل له حقائبى لتركها وديعة عنده قبل سفرى الى كندا . ان الحقائب تتضمن شحنة الكتب الضخمة ، التى كنت على وشك شحنها بالبريد الى القاهرة . كتب معبأة في حقيبة ورقية كبيرة و .. مفتوحة .

كنت اعلم ان احتمالات السرقة في نيويورك موجودة في أى وقت . الوقت كان التاسعة صباحا . ولكنى لم اتصور ان لصا سوف يفكر في سرقة كتب . لهذا تركت الحقيبة بجوار المصعد في الدور الارضى ، بدلا من اخذها معى الى الدور التاسع والعودة بها مرة اخرى . و .. يا دوب - ثلاث او اربع ثوان قبل ان اعود الى الدور الارضى لأجد ان الحقيبة المفتوحة - حقيبة الكتب - قد طارت ، اختفت ، سرقت !! حتى تلك اللحظة لم اكن اعلم ان هناك لصوصا مثقفين في امريكا !! الآن علمت .. ! لو كان اللص قد سرق نقودى ، او ملابسى ، او أى شيء آخر ، أى شيء الا الكتب ، لما كنت شعرت بمثل ذلك الحزن . ولكنها كانت غلطتى على أى حال ..

واذا كانت تلك غلطتى ، فماذا تقول في هذه الحالة : كارول فتاة أمريكية مهيبة أعرفها . انها تعمل رسامة . انها تسكن بمفردها في شقة بالدور العلوى من احد مباني نيويورك . وفي مرة عادت الى المنزل في الواحدة صباحا لتجد ان كل محتويات الشقة قد سرقت . كل المحتويات . ما عدا الكراسى والسرير طبعاً . وعندما ذهبت الى كارول بعد اسبوع ظلت حتى دقائق تفتح لى باب الشقة .. خمسة اقفال معها ركبته في الباب بعد السرقة . اقفال من كل نوع . اقفال لم تصبح هذه بعدها شقة . لقد أصبحت قلعة عسكرية ! انا لا اقول ان هذا سيحدث قطعا معك . ولكنى اقول فقط : ممكن ان يحدث . اقول : احترس ، خصوصا اذا كنت تسكن

أو تقيم في الدور العلوى . احترس .. واعلم أنك الآن في واحدة من أسوأ مدينتين في أمريكا : هوليود : ونيويورك .

ان نيويورك هى غابة . أكثر منها مدينة . منذ سبعة آلاف سنة بالضبط — هكذا قدر العلماء — كان عدد سكان العالم كله اقل من عدد سكان مدينة نيويورك الآن . انها الآن من اضعف مدن العالم وأكثرها ازدحاما بالسكان — ٨ ملايين . وفى نيويورك — حتى ولو لم تكن تدخن سجائر — فانك تدخن عشرين سيجارة يوميا ، بسبب دخان السجائر فى الجو .

ان نيويورك مزدحمة ككوبرى أبو العلاء بالقاهرة فى عز الظهر . انها واسعة كالمحيط الاطلنطى الذى تطل عليه . واسعة ، مزدحمة ، شرهة ، بغير حدود . انها تغذيك وتخرب جيبك . ان نيويورك هى الضباب ، الثلج ، المطر ، الحرارة ، القهوة البيضاء . الخبز الاسود ، الجنس ، هى هارلم ، اللحم الاناناس ان أى شئ تتصوره ، أو لا تتصوره ، سوف تجده هنا فى نيويورك .

الفرضى .. !

انت الآن فى الشارع ، بمفتاح فى جيبك ، وعينين فى راسك ، وكاميرا فى عينيك ، ودولارات قليلة فى جيبك — من المؤكد أنك الآن مبهور بكل هذه النظافة فى المحلات .. مبهور بكل هذه الاناقة فى الملابس ، بكل هذه السيارات فى الشوارع . ان ٥٠٪ من ضوء الشمس فى نيويورك يحجبه الكربون الناتج من احتراق بنزين هذه السيارات . هل لديك فكرة الآن عن ضخامة عدد السيارات ؟ حسنا ولكن .. ليس هذا هو الشئ الذى يستحق انبهارك فى أمريكا أو فى نيويورك ان اسهل شئ فى أمريكا هو ان تشتري أى شئ ، اقصد تشتري بالتقسيط .

انك تستطيع ان تقترض من بنك ، تسافر فى رحلة ، تشتري اثاثا لشقة ، تبني بيتا ، دون ان تدفع مليما واحدا ! اشتر الآن وادفع مؤخرا . سافر الان .. وسدد فيما بعد . استلم الان .. وسدد فيما بعد . استلم الان .. والحساب من الشهر القادم . انه اذن نظام التقسيط .

ان كمية الديون التى يتحملها المواطنون فى أمريكا بسبب نظام التقسيط وصلت الى أكثر من مائة ألف مليون دولار . أكثر : مائة ألف مليون دولار . ان متوسط نصيب الفرد الواحد من مجموع هذه الديون هو اربعون ألف دولار . هذا نتيجة للمشتريات المؤجلة الدفع ، من المنازل والسيارات والملابس .. زائد ديون الشركات

وقروض المؤسسات الكبرى . لولا نظام التقسيط هذا . لاضطر المستهلك الى التخلي عن فكرة شراء منزل او سيارة او موقد كهربائى . . الى ان يدخر نقودا كافية ، الامر الذى لا يحدث ابدا .

انك ربما تتصور الان ان نتيجة هذا النظام هو ان الافراد الذين تراهم امامك فى الشارع يعيشون فوق مستوى دخلهم . غير صحيح طبعا . كل المسألة ان نظام التقسيط زائد الاعلانات ، يقنعانك فى امريكا بضرورة أشياء كثيرة . . هى أصلا من دلائل الرفاهية . ان أوروبا لديها أشياء أخرى تجعل هذه الدلائل غير هامة . ولكن فى امريكا . . فى امريكا . . حسنا . . ليست امريكا فقط ، انه العالم كله - فى العالم كله يوجد اناس لا يدخرون الا وهم تحت ضغط المسؤولية التى يتحملونها بسبب وجود دين عليهم . انت تعرف طبعا انت تعرف الان لماذا ترى امامك كل هذه السيارات الضخمة ، كل هذه المحلات الكبيرة ، كل هؤلاء الفتيات الانبيقات اللاتى تراهن امامك مسرعات فى الشارع .

هذه الفتاة مثلا . . انت تراها تسير امامك . تسير انيقة ، مسرعة . انها تلفت نظرك . ايه رايت ؟ تحب تعاكسها ؟ جرب . انها لن تصفعك بالقلم . لن ترد عليك . لن تقول : يا سم ! لن تجعلك فرجة فى الشارع . لن تستدعى جندي البوليس . فقط ، كل ما سترد عليك به هو : التجاهل . الاستغراب فى البداية ، ثم التجاهل لاوقت عندها حتى لتقول لك : باسم .

انها قادمة من عمل ، او ذاهبة الى عمل . انها تحترم نفسها . وعليك انت ايضا ان تحترمها ، وتعجب بها ، ثم . . ثم . . ان الاعجاب من أول نظرة ، أو الحب من أول نظرة ، لا يوجد مطلقا فى المجتمع المفتوح . انه يوجد فقط حيث يكون المجتمع مغلقا ، حيث الحواجز بين الفتى والفتاة مرتفعة ، حيث كل من فى المجتمع : الأب ، الأم ، الأخ ، الجيران ، الاصدقاء ، يقيمون من انفسهم حراسا على سلوك الفتاة .

ان الفتاة التى تراها فى الشارع امامك الان هى فتاة مختلفة . فى الواقع انه لم يحدث فى التاريخ من قبل ان تمتعت فتاة بحرية كاملة كما تتمتع هذه الفتاة امامك . انها تسحرك ، وانت مندهش لها . ان الثوب القصير الذى تراه على جسمها امامك هو رمز لتحررها الكامل . انها تكسب من النقود ما يكفى لجعلها تعيش مستقلة عن أسرتها لو ارادت . . دون ان يقال ان هذا عمل فيه شجاعة ، او فجور . واذا فضلت ان تعمل على ان تتزوج ، فان المجتمع

يسميتها فتاة عاملة ، ولا يسميها عانسا أو مستهترة . ان والديها
ينصحانها ، ولكنهما لا يمليان أرادتهما عليها . ان الحياة والزواج
لم يصبحا بالنسبة لها مسألة يقرر الوالدان تدبيرها لها بين اربعة
جدران بعيدا عنها . هذه حياتها هي ، هذه مسئوليتها هي ، هذه
حريتها هي ..

x x x

و .. انت وحدك ، في شوارع نيويورك .
انت وحدك ، في يومك الاول هذا . انك فجأة تحس بهذه الوحدة
هذا الضياع ، هذا الانعزال . تحس انه لا احد يلتفت اليك ، مع
انك تلتفت الى كل الناس في الطريق . انك الان تحس بانك طفل
يتعلم المشي لأول مرة . كل شيء حوالك جديد كل حقيقة امامك
صعبة الفهم . انك لم تحس في أى وقت - كما تحس الان - بانك
في حاجة الى صديق - الى أذن تسمعك وكتف تتقاسم معك الهموم
والله زمان يا مصر !

مصر .. ؟ ان بينك وبينها الآن اراضى وبحارا ومحيطات ولكنك
الان - في هذه الدقيقة ، هذه اللحظة بالذات - تحس ان مصر
ليست في الحقيقة بعيدة عنك بهذه الدرجة . ليست كذلك ..
لأنها في داخلك . اذا كانت ألمانيا جنسا ، وإيطاليا لغة ، واليونان
تاريخا ، وفرنسا تقاليد ، وبريطانيا جزيرة ، فان مصر هي .. نهر
انت واحد من أبناء هذا النهر . هذا النيل .

ان أبناء الانهار لهم جذور لهم حضارة ، لهم تاريخ .
ان كل هذا التاريخ محشور في داخلك . انه في داخلك ، حتى
بغير وعى . لهذا سوف تسير مصر معك اينما ذهبت . انها الان في
داخلك ، في أعماقك . انها تنبض داخل شرايينك . تلق داخل
قلبك . انها شيء تحت الجلد . شيء يجري في الدم . انها لن تخرج
من عقلك الا اذا خرجت الدماء من شرايينك . من قلبك .

ان اشياء كثيرة في مصر لم يكن لها معنى في حياتك من قبل ..
بدأت الآن تصبح ذات معنى . الشمس ، الدفء ، الحرارة العواطف
الاهرام ، مدائن التحرير ، العجوزة ركوب الاتوبيس ، أقراص
الطعمية ، الفول المدمس . انك - حتى - ربما تحس الآن بأن
الحياة سوف تموت في داخلك بغير طبق فول مدمس !

انك عندما ركبت الطائرة من القاهرة تصورت انك تركت في
المطار كل حمولاتك الزائدة : المنزل ، الاسرة الاصدقاء ، الاقرباء ،
الوظيفة ، قسط التليفزيون !

ولكن هذا كله فى الواقع مازال معك فى نيويورك . ان مصر التى تتابع صورها المختلطة فى رأسك الآن كشريط سينمائى هى صوت أم كلثوم ، عيني على العاشقين ، الموسكى ، القلمسة الحسين الفيشاوى ، رمضان ، الفوازير ، وتفكير فى حل الفوازير !

مصر هى اهل الهوى ، قصر النيل ، النيل ، شط اسكندرية . خائف أقول الذى فى قلبى ، وبقايا المرتب فى آخر الشهر .

مصر هى التراب ، الارض ، أنا وهو وهى ، شارع سليمان ، الطاولة ، المقهى ، ما يطلبه المستمعون ، ان شاء الله ، السيدة زينب الفاتحة لام هاشم !

مصر هى ألف ليلة وليلة ، الكلمات المتقاطعة ، الناس مقامات ، بات مغلوب ولا تمات غالب ، سلام عليكم ، الادب فضلوه عن العلم ، الشهادات ، أمين . .

مصر هى هذا كله . حيث أيام الاسبوع كلها نسخة كربونية متماثلة ، السبت مثل الأحد مثل الجمعة . لا . ليس مثل الجمعة . يوم الجمعة كان هو اليوم الذى تنام فيه حتى الظهر ، وتترك ذقنك ، وتلبس البيجاما ، وتسمع على الناصية وتشاهد فيلما فى التليفزيون . حيث الحياة تسير على مهل شديد ، حيث المجاملة ، والتسامح ، ومعلش ، وربنا يسامح ، وان شاء الله ، وان فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه .

مصر هى هذا كله . مصر هى بائع اللبن فى الصباح (لن ترى فى نيويورك بائع لبن) . حيث البائع يدق بابك فى الفجر ، صباح الخير يا أحمد أفندى ! يا على أفندى ! يا ماهر بك ! . . ان اللبن مغشوش ، مغشوش ، ولكن لا يهم ، المسامح كريم ، بكلمة صباح الخير أزال لك البائع كل أفكارك عن الغش . اعتمادنا عليك يا رب !

مصر هى هذا كله . أكثر من هذا كله . انها لم تعد الآن مجرد ماض تتركه خلفك وتنصرف . مصر الان هى ذكرى . حنين . شوق . رغبة . أمل . انها لم تكن أبدا مجرد فصل انتهى من حياتك ، مجرد جملة اعتراضية من حياتك . انها . . حياتك حيث يكون لديك الاحساس بأن العبقرية هى التوسط ، هى الاعتدال ، هى الصمت ، هى عدم الخطأ ، هى التسامح ، هى منتصف الطريق ، هى راحة البال . لن تجد فى نيويورك راحة البال !

انت هنا قطعة فوق سطح من الصفيح الساخن . النار فى جيبك فى رأسك ، فى معدتك .

ان معدتك تطلب طعاما . وانت الان تريد طعاما .
تذهب الى مطعم ؟

هذا مطعم قريب أنت تدخل ، تجلس ، تمسك بالقائمة ، ثم تجد
الجرسونة على رأسك .

ان القائمة فى يدك ، ولكنك قد تسألها : فيه أكل ايه النهاردة ؟
ممكن أخذ فراخ ؟ أو . قطعة لحم مع طبق أرز ، أو . اقول لك ..
بلاش الارز . أخذ عيش .. أخذ ..

انك الان تكلم نفسك . لقد انصرفت الجرسونة . لا وقت عندها
لهذه الاسئلة . ان القائمة أمامك اختر ما تريد على مهلك ، وعندما
تنتهى الى قرار . نادها .

المهم انت طلبت ما تريد فى النهاية . لست واثقا بالضبط
مما طلبته . ولكن . لا بأس عليك من التجربة . والان ، لعلك لاحظت
ان الجرسونة بعد أن سجلت طلبك سألتك : تشرب ايه ؟ شاي ؟
قهوة ؟ بيرة ؟

دعك من حكاية البيرة هذه ، وفكر فى الشاي أو القهوة . اذا
طلبت شايأ أحسنت . فقط تذكر هنا شاي كشرى . شاي
فريسكا . شاي وصلحه ! ان الشاي هو شاي فقط ، القهوة . قهوة !
كل ما هنالك ان الجرسونة تتأكد من أنك تريد قهوة عادية ، أم لا .
ان القهوة العادية هى بن مذاق مع لبن ، القهوة السوداء مجرد بن
مذاق . طبعا لا توجد قهوة تركى كالتى تشربها فى مصر ، وداعا
للقهوة التركى !

ومن الان فصاعدا ، من الان الى أن ينتهى طعامك ، سوف تلاحظ
أشياء كثيرة .

فسواء كنت تتناول طعامك فى مطعم ، أو محل قهوة أو محل بقالة ،
فانك لا تجد طاولة ، دومينو ، نوتشينة ، راديو عالى الصوت .
خسارة . لا شئ من هذا أمامك . ولا حتى كوب المياه - أو جردل
المياه الذى تعودنا أن نشربه مع الاكل فى القاهرة . ان الأمريكين
والاوربيين لا يشربون ربع المياه التى نشربها نحن . حرارة الجو
عندنا هى السبب .

وستلاحظ ان معظمهم لا يأكل الخبز . لقد كتبت الصحف فى
« جرسى سیتی » مرة ان استهلاك الخبز ارتفع فجأة بسبب قدوم عدد
كبير من المصريين الى المدينة !

وسوف تلاحظ أيضا ان الجرسونة قد أحضرت لك القهوة أو الشاي مع الاكل ، وليس بعد الاكل . هكذا يشربها الأمريكي .

وسوف تلاحظ في البداية أيضا ان الذوق الأمريكي في الاكل ربما لا يتفق معك . ليس ربما ، بل من المؤكد . فالأمريكي - اذا لم يقدم لك سجق أو هامبيرجن - فانه يقدم لك مثلا سمكا وعليه كمثرى ، أو قطعة لحم وعليها أناناس !

وسوف تلاحظ ان بعض الجالسين أمامك أو بجانبك يرتدون أحيانا ملابس غريبة ، أو ألوانها غير متناسقة .
مثلا : قميص أزرق وكرافتة خضراء وبدلة صفراء ! ومع ذلك فلا أحد يتطلع لأحد . من كل حسب دولاراته ، والى كل حسب ذوقه يحيا الذوق !

وسوف تلاحظ أيضا ان كل واحد في حاله . وربما يدخل رجل ، فيكتشف صديقا له جالسا أمامك . لحظتها يحياه بكلمة واحدة . هاى ! هي كلمة هاى من الاول ، وهاى من الثانى . . . وخلاص ! لا قيام ، ولا أحضان ، ولا - حتى - سلامات ! هاى . . . ومن الممكن أن يكون حظك طيبا ويجلس بجوارك واحد من هؤلاء الأمريكيين الظرفاء . واحد يبدو عليه مقدما الاستعداد لتبادل كلمة أو كلمتين معك . اذا كلمك كلمتين احمد ربنا . ان الانجليزى مؤدب جدا ولكنه بارد . الفرنسى يرفض التحدث معك الا اذا كلمته بلغة فرنسية صحيحة . الالماني ايدك والارض . أما الأمريكى - الشخص الأمريكى العادى - فانه يكون ظريفا جدا معك مادام الوقت ليس وقت عمل . انه يستطيع أن يكون ضديقك بعد دقيقة واحدة ، وان كان سينسى هذه الصداقة بعد انصرافك بخمس دقائق . المهم . . . انه شخص ودود ، ظريف ، بسيط ، يناقشك بعد خمس ثوان في موضوعات لا تناقشها انت مع أصدقائك بعد خمس سنين .

واحد من هؤلاء دخل معى مرة في مناقشة . لم تكن المناقشة في مطعم - ولكنها كانت في طائرة .

كانت الطائرة تحملنا من لندن الى نيويورك . لقد قطعت الطائرة نصف المسافة تقريبا . الشمس فوقنا والسحب البيضاء تحتنا . وبدأ الرجل الأمريكى المجاور لى في مقعد الطائرة يتململ ثم بدأ يسألنى :

- هل أنت مصرى ؟ غريب ! . . قل لى لو سمحت ، كيف تكون الجمال في تنقلاتكم بمصر ؟

**وقلت : نحن يا سيدى لا نركب الجمال • فعندنا قطارات غالبا
واوتوبيسات قليلا وسيارات أحيانا وطائرات نادرا •**

**قال الرجل : مدهش : ولكن ، طبعا عندكم طائرات للرجال
وطائرات للنساء .. هيه ؟**

**قلت : لا يا سيدى • عندنا نساء كالرجال : عاملات • وطائرات
كالرجال : لا تتنبا بتصرفاتها !**

قال الأمريكى ضاحكا : وهل أنت متزوج من أربع ؟

**قلت : ياسيدى ، ولا حتى واحدة ! ولن أستطيع الزواج بأربع ..
لانى لا أريد ، ولان زوجتى ساعتها لن توافق •**

قال : وهل تستطيع المرأة عندكم ألا توافق ؟

قلت : نعم تستطيع ، على الأقل اذا كانت متعلمة •

سأل الرجل : وهل عندكم امرأة متعلمة ؟

أجبت : عندنا ستون ألف طالبة بالمعاهد والجامعات •

قال الأمريكى : غريب •• وهل عندكم جامعات ؟

**قلت : عندنا جامعات ومستشفيات ومصانع • عندنا سد عال •
عندنا أرض وبحر وسماء • عندنا ناس • ناس أساتفة فى الجامعات
عندكم • ناس يقدروا يقولوا ان حضرتك تعرف القليل جدا عن الدنيا
التي تعيش فيها !**

**ولم يكن هذا ذنب الأمريكى الجالس بجوارى فى الطائرة • فى
الواقع ان الأمريكين كانوا - الى وقت قريب - من أقل الشعوب
اهتماما ودراية بما يحدث خارج حدودهم • والى وقت قريب فقط كان
من التقاليد الأمريكية ان السياسة تنتهى عند حافة المياه • تنتهى
عند حافة الاطلنطى • ان العالم بعد هذا الشاطئ ، كان عالما غير
موجود بالنسبة لهم • انه غير موجود •• أو غير مهم •**

**طبعا الان تغيرت الحالة جوهريا بعد التوازن الذرى والطائرات
الاسرع من الصوت والاقمار الصناعية • ولكن •• مع هذا •• ما زال
ممكنا جدا أن تجد أناسا كثيرين - بل حتى أغلبية - فى امريكا •
ما زالوا يتصورون ان مصر هى الاهرام والصحراء والجمال التى
تركبها فى الصحراء • لا تبتئس ربما تواجه بعد قليل ما هو أسوأ
من هذا •**

**نهايته ••• ! انت الان تناولت طعامك • دفعت الحساب • لا تشس
البقشيش • ان البقشيش شىء هام فى امريكا • شىء أساسى ، مرة
لم أدفعه فى تاكسى فطلبه منى السائق بغيظ شديد • مرة أخرى لم**

أدفعه فى مطعم . . فرمتنى الجرسونة بنظرة كادت تصيبنى بمرض الحصبة ! وأنا لا أتمنى لك أى مرض فى أمريكا . فالادوية اسعارها نار . والاطباء أجورهم نارين . ان أجبر الطبيب عن تركيب طاقم أسنان مثلا قد يساوى مرتب رئيس مجلس ادارة شركة فى القاهرة عن شهر كامل ! انك محتاج لكل مليم - أقصد كل سنت - فى جيبك الان . ولعلك لم تنس بعد الدولارات الثلاثة أو الاربعة التى دفعتها حالا فى وجبة الغداء .

ان هذه الاسعار الجنونية كانت تدفعنى فى كل مرة أسافر فيها الى أمريكا الى تفادى ارتياد المطاعم نهائيا . حينما يجرى وقت الغداء ، ومهما كنت فى أى مكان فى نيويورك ، فاننى أستقل الاوتوبيس الى مبنى هيئة الامم المتحدة .

على فكرة : لاتدخين فى الاوتوبيس ، رغم أنك تدفع ثلاثين سنتا كسعر موحد لاي مسافة تركبها . ان الاوتوبيس قد يستغرق ربع ساعة ، نصف ساعة ، وأحيانا أكثر من هذا . . لكى أذهب فى النهاية الى الامم المتحدة . ولماذا لا؟! ، فيها كافيتريا ظريفة جدا، نظيفة جدا، رخيصة جدا ، وهذا هو المهم . ان أحسن وجبة تناولتها هناك فى أى مرة كلفتنى أقل من دولارين ، مع مراعاة أنه لا يوجد بقشيش تدفعه فى هذه الكافيتريا لانها تعمل بنظام اخدم نفسك بنفسك .

ولكنك للأسف ، لن تستطيع تناول طعامك فى هذه الكافيتريا . فدخل الامم المتحدة يحتاج الى تصريح أو بطاقة خاصة . ومع أننى فى كل مرة كنت أحمل تصريحاً دائماً . الا أن الامم المتحدة تعمل خمسة أيام فى الاسبوع فقط . أمريكا كلها تعمل خمسة أيام فقط . ماذا أفعل فى يومى الاجازة : السبت والاحد ؟

لقد حسبتها مرة فوجدت أننى سأدفع عشرين دولارا على الأقل فى وجبات الطعام الست فقط خلال هذين اليومين .

وبعد تفكير . . اهتديت الى حل . لماذا لا أشتري معلبات وأشياء جاهزة ، وأتناولها بحجرتى فى مواعيد الطعام ؟ هل يكون هذا أرخص ؟ هل يكون أغلى ؟ لست متأكدا بعد .

وفعلًا . . دخلت محل بقالة واشتريت : فرخة محمرة ، علبتى لبن كبيرتين ، ثلاثة باكوات فستق ، أربع تفاحات ، أربع أصابع موز ، برتقالتين ، طماطم ، ربع كيلو جبن سويسرى ، صابونة وجه ، علبه أناناس ، زجاجتى بيرة ، باكو عيش . .

ان هذه « الحمولة » كلفتني تسعة دولارات ، من بينها ثلاثة دولارات ثمن الدجاجة وحدها . دجاجة كبيرة .

و . . بهذه الدولارات التسعة لم أقض يومين فقط ، ولكن أربعة ، بغير الذهاب الى مطعم ، أو حتى الى كافيتريا الامم المتحدة .

ان جوهر المسألة هنا هو أن الحياة المنزلية ، الحياة بعيدا عن المطاعم ، بعيدا عن المحلات العامة ، تستطيع أن توفر لك نصف التكاليف على الأقل في أى مكان في العالم ، فما بالك بأمريكا ؟

ان أى سلعة تصنعها آلات في أمريكا هي سلعة رخيصة . وأى سلعة يدخل فيها مجهود بشري يدوى سوف تصبح فورا سلعة غالية . قاعدة عامة .

ان مسح الحذاء مثلا يكلفك - بالبقرشيش - حوالى نصف دولار . بينما لو اشتريت علبة ورنيش وفرشاة وفوطة (كلها فى علبة خاصة) فانها ستكلفك دولارين وتكفى حذاءك لمدة شهرين على الأقل . لقد حدث مرة أن تأكل كعب حذاءئى . لقد استهلك من أكثر الأسير على الأقدام طبعاً . وعندما دخلت محلا لترييب كعب جديد للحذاء لم تستغرق العملية كلها أكثر من دقيقة واحدة . ولكنى عندما دفعت الحساب اكتشفت أن هذه العملية البسيطة قد دفعت فيها ثلاثة دولارات ، أى أكثر من ثمن الحذاء نفسه الذى اشتريته من القاهرة . ولمدة دقيقة أو دقيقتين . فكرت فى أن اتوقف من الآن فصاعدا عن استعمال الحذاء حتى لا يحتاج لكعب جديد لماذا لا ؟ لماذا لا أسير حافى القدمين ؟ ان أحدا لن يستغرب هذا فى نيويورك . انهم - حتى - قد يتصورونها مودة جديدة !!

ولكنى بسرعة طردت هذه الفكرة الجنونية من رأسى ! ان أفكارا جنونية - كهذه وغيرها - تستطيع أن تراها فى أكثر من مكان فى نيويورك شارع برودواى مثلا !

ان شارع برودواى هو شارع الليل فى نيويورك . فى الواقع انه شارع الليل والصباح والظهر والعصر . . . وأى وقت ! فى هذا الشارع تستطيع أن تقابل عربا ، يهودا ، صهيونيين ، فرنسيين ، انجليزا ، المانا ، كنديين ، وأمريكان طبعاً . ان كل نوع من الناس موجود هنا : اللصوص قطاع الطرق ، النصابون ، المومسات ، والمحترمون جدا !

كل شيء هنا موجود : المسرح ، السينما ، الكباريهات ،

الليل ، محلات القمار ، مكتبات ، وخنافس . في هذا الشارع تجد الجنس بمقابل ، والجنس بلا مقابل . الجنس في الكتب والمجلات ، والجنس في الشارع ، والجنس على الشاشة ، ان كل شيء هنا مقبول . كل شيء جائز . كل شيء ممكن .

ان الوقت الآن هو الثانية صباحا ..

كنت عائدا الى الفندق بعد سهرة عند صديق . لم تكن لي رغبة في النوم بعد ، فظللت أتجول في هذا الشارع ، مجرد تجول . ربما للمرة المائة .. ثم قررت ان ادخل سينما . ان السينما هنا تعمل ٢٤ ساعة في اليوم . معظمها عرض مستمر . قيمة التذكرة تتراوح بين دولارين ونصف دولار الى ثلاثة دولارات .

ان اقرب سينما امامي تعرض فيلما اسمه « مونيكا » . لست اتذكر الآن أسماء أبطاله . ولكنني اتذكر ان اعلانات الفيلم تحمل صورة نصف عارية لامرأتين ورجل ، مع هذه الكلمات : « أخيرا .. وجلت مونيكا شيئا مشتركا تحبه مع زوجها » ! انه اذن فيلم يدور حول الجنس . لماذا لا أجرب ؟ أهى مرة ! .. ودخلت السينما ..

لم يكن في الصالة سوى عشرين أو ثلاثين شخصا متناثرين في أماكن متفرقة . كل اثنين منهم يشكلان فيلما في حد ذاته ! لقد اخترت آخر صف ، وجلست على أحد كراسيه ، وبدأت أتابع الفيلم .

ان « مونيكا » زوجة شابة تعيش مع زوجها الشاب وطفلين لهما في سن الخامسة أو السادسة . انهما متزوجان منذ فترة قريبة اذن ، ومع ذلك .. فان الملل بدأ يحكم حياتهما بشكل ما . طبعاً لا بد من الملل بعد ست أو سبع سنوات أشغال شاقة ! ان هذا الملل يبدو واضحا كل ليلة عندما ينام الزوجان معا . عواطف آلية ميكانيكية ، تفضل الزوجة عندها قراءة صحيفة أو مجلة .. كلما بدأ زوجها يعبر لها عن حبه .

ثم .. حدث أن هذه الاسرة الصغيرة استضافت فتاة فرنسية جاءت لتقضى بعض الوقت مقابل خدمتها للاسرة . ومن اللحظة التي دخلت فيها الفتاة الى المنزل .. لم يعد أى شيء أبدا الى ما كان عليه . لا الزوج ، ولا الزوجة ، ولا الفتاة نفسها .. أصبحوا شيئا عاديا منذ هذه اللحظة .

ان الزوج يغازل الفتاة بعيدا عن مرأى زوجته .. بعد قليل

يمارس معها الحب فعلا . ولكن الفتاة نفسها تبدأ فى مغازلة الزوجة . . . التى تحس فى هذه اللحظة أن أشياء كثيرة فيها قد استيقظت فجأة ، بعد أن نامت منذ وقت طويل .

ثم يحدث فى يوم أن يعود الزوج الى منزله فجأة ، ليكتشف أن زوجته تمارس الحب مع الفتاة . . مع عشيقته . ان المنظر يفاجئه ويربكه ، فيخرج سريعا من المنزل لا يدرى أين يذهب . وتظل حيرته ودهشته مسيطرة عليه . . الى أن يبحث عن النسيان فى أحضان بائعة هوى . ولكنه لا يستطيع أن يفعل أى شيء مع بائعة الهوى هذه . انه يقص عليها ما حدث ويتساءل مندهشا : « هذا غريب . . غريب . . اننى لم أقصر فى شيء . . لماذا أجد مونيكاً فى هذا الوضع الشاذ ؟ . . لماذا لم أجدها مع رجل مثلاً ؟ ولكن لا . . لو كان الامر مع رجل لأصبحت خيانة . ان مونيكاً قطعاً ما زالت تحبنى ، ربما كان هذا الوضع أفضل . . أفضل كثيراً . . » !

ويعود الزوج الى منزله . ما زالت الدهشة تغطى وجهه ، والارتباك يسيطر على عقله . ان الثلاثة يجلسون على مائدة العشاء صامتين : الزوج ، الزوجة ، وعشيقة الاثنين . ان أحداً فى الثلاثة لا يكلم الآخر . . فالزوجان مرتبكان ، لا يدرى كل منهما كيف يفسر الامر للآخر . ثم . . تتدخل الفتاة ، العشيقة المشتركة . انها تقبل الزوج أمام زوجته . قبله غرامية . ثم تقبل الزوجة أيضاً قبله مماثلة ، قبل أن تصحبها - على مشهد من زوجها المرتبك - الى حجرة النوم ، الآن واجه الزوجان بعضهما . الآن أصبح كلاهما يفهم تماماً علاقة الآخر بالفتاة .

بعد قليل يلحق الزوج بالاثنتين ويتساءل : هل الحق بكما . . ؟ وتكون الاجابة المشتركة من كليهما : طبعاً . . هذا افضل كثيراً و . . هذا ما يقصده الفيلم من أن « مونيكاً » وزوجها قد وجدنا أخيراً شيئاً مشتركاً يحبانه معا !
ما هى دلالات هذه القصة ؟ . .

انها تعبير واضح عن الملل الذى يحكم الانسان الحديث بشكل عام . ان هذا الانسان ، فى بحثه عن مخرج من الملل والسأم الذى أصابه فى العصر الحديث ، قد أصبح مستعداً لقبول الحلول الشاذة التى رفضها المجتمع الانسانى طويلاً لاعتبارات أخلاقية جوهرية . وحينما تتسرب هذه الحلول الشاذة الى الحلية الاساسية

فى المجتمع ، الى الاسرة ، فلا ضمان بعد هذا لآى شىء . . . أى شىء !
لقد خرجت من السينما فى الرابعة صباحا لأجد أن بعضا مما
رأيتة حالا على الشاشة يجرى - بشكل مخفف - فى الواقع .
نماذج غريبة وعديدة من الناس موجودة فى هذا الشارع - شارع
برودواى - فى هذا الوقت .

ان كل مدينة كبيرة فى العالم لها شارع برودواى الخاص بها :
فى هامبورج تجد سان باولو . فى باريس تجد بيجال . فى
لندن تجد حى سوهو . فى طوكيو تجد هى الجينزا . فى نيويورك
تجد شارع برودواى . .

ان كل شارع من هذه الشوارع هو شارع الليل . كل هنا
- فى هذه الشوارع والاحياء - يغمض المجتمع احدى عينيه .
هنا يوارب المجتمع بابه الاخلاقى قليلا . هنا تجد الباب نصف
مفتوح . . نصف مغلق . هنا تستطيع أحيانا أن ترى كيف
يتصرف المجتمع بعد منتصف الليل . ان الرتوش تختفى من
شارع الليل ، من هنا . لا أحد هنا يدعى الفضيلة ، يدعى
الاحترام ، يدعى الاخلاق . لا أحد هنا منافق ، أو مزدوج
الشخصية . كل واحد على طبيعته : النصاب . . نصاب .
المحترم . . محترم . العاهرة . . عاهرة .

حسنا . .

لقد وقع صديق لى مرة فى أيدى عاهرة . فتاة من فتيات الليل
هؤلاء اللاتى أراهن فى شارع برودواى .

اننا نستطيع من الآن أن نفترض أن صديقى اسمه فخرى .
انه ليس الاسم الحقيقى طبعاً .

ان فخرى خفيف الدم . فخرى فى أواخر الثلاثينات من عمره ،
نحيل القوام ، خفيف الشعر ، بنظارة طبية على عينيه ، ونظرة
استهتار دائمة فى عقله . نظرة صحتها معه الى نيويورك عندما
هاجر اليها منذ سنوات . طبعاً . . فالناس لا تتغير طبيعتهم من
اليمن الى اليسار فى سن الأربعين !

لقد سألنى فخرى قبل سفره الى أمريكا : ما وايك ؟

وقلت له وقتها : تستطيع أن تهاجر . . ولكن ليس الى

أمريكا . هذه نقلة كبيرة عليك فى هذه السن المتأخرة ، وهذه
الامكانيات المحدودة .

أ ولكنه لم يقتنع . لقد كان قراره بالهجرة الى أمريكا بالذات

قرارا غير قابل للتغيير . لهذا عاد يسألنى من جديد : ما هو أرخص فندق تنصحنى بالنزول فيه فى نيويورك ؟ وقلت له : جمعية الشبان المسيحيين .

ثم .. سافر صديقى منذ سنة ، ونزل فى هذا الفندق . ولكنه - كما هى العادة غالبا - لم يتمكن من النوم فى أول ليلة بسبب فرق التوقيت ، فترك حقائبه فى الحجرة ونزل فى أمسيته الأولى يتجول فى شوارع نيويورك ، الى أن وصل الى شارع برودواى . ان هذا الشارع - كجزء من نيويورك كلها - هو غابة . اذا تصرف فى الغابة بحكمة أصبح برودواى بالنسبة لك مجرد شارع . اذا لم تتصرف بحكمة تحول كل ركن فى هذا الشارع الى غابة ضخمة ..

و ... هذا ما حدث مع صديقى فى ليلته الأولى فى شارع برودواى .

لقد فوجئ أثناء سيره فى شارع الليل هذا بفتاة وسيمة واقفة تقول له : هاى ..

ورد عليها فخرى بابتسامة عريضة : هاى ..
انها تسأله : ممكن تقول لى الساعة كام لو سمحت ؟
ورد عليها فخرى : الساعة العاشرة مساء .
الى هنا والامر عادى جدا . بعد لحظة لم يعد أمرا عاديا ..
قالت الفتاة بابتسامة تتسع شيئا فشيئا : يظهر انك غريب هنا
ورد فخرى بانجليزية خجول ولهجة تأمل متعة : آه .. فعلا .
- يا ترى وصلت امتى ؟
- لسه واصل النهارده ..
- وياترى نازل فىن ؟

- أبدا .. نزلت فى جمعية الشبان المسيحيين ، بخمسة دولارات فى الليلة .

قالت الفتاة الوسيمة بلهجة مستنكرة : ياه ..! خمسة دولار ؟! يعنى مائه وخمسين دولارا فى الشهر .. فى مكان بهذه القذارة ؟ واحترار فخرى بماذا يرد . وأنقذته الفتاة نفسها حينما بدأ الاستنكار فى لهجتها يتجه تدريجا نحو الرقة : اسمع .. انت باين عليك ابن حلال .. أنا مستعدة أفرجك على شقة أنظف وأرخص بكثير جدا ، وهى هنا .. فى وسط نيويورك .
وتسأل فخرى : أرخص ؟ .. يعنى بكام ؟

ردت الفتاة - وما زالت الرقة تتزايد في صوتها - وقالت :
بمائة دولار في الشهر فقط . شقة كاملة تستطيع أن تفعل فيها
أى شيء . .

بعد قليل غمزت الفتاة لفخرى بعينيها ، وتحولت الرقة الزائدة
في صوتها الى اغراء . . قالت الفتاة : في هذه الشقة تستطيع
أن تفعل أى شيء ، تنام . . تطبخ . . تغسل . . و . . تحب !
يا نهار أبيض ! . .

كل هذه التسهيلات والاغراءات والخدمات من فتاة ترى فخرى
لأول مرة في نيويورك . .؟ ياسلام . . ظريفة هذه المدينة
نيويورك . . ان الناس فيها ينجذبون لفخرى من أول نظرة ، بينما
لم يكونوا يفعلون ذلك في القاهرة . طبعاً . . فرق كبير . . أدى
الناس . . أدى البنات . . والا بلاش ! تاكسى . . تاكسى . .
الى . . الى . . الى أين ؟

ومدت الفتاة يدها بالعنوان مكتوباً الى سائق التاكسى . . خمس
دقائق ، عشر دقائق . . ثم أصبح الاثنان في داخل الشقة . .
ما هذه الشقة . . ما هذا الجمال . . ما هذا الصالون الفاخر ؟
ما هذا الذى . . الذى تفعله الفتاة مع فخرى ؟
انها تحتضنه ، تقبله ، تقول له « كم أنت لطيف يا حبيبى ! »
يا ساتر ! « حبيبى » مرة واحدة . . لا . . لا . . هذه المدينة
نيويورك هي قطعاً أحسن مدينة في العالم ! هذه الليلة هي قطعاً
ليلة مفترجة . .

كانت البشائر كلها تدل على أن الليلة سوف تكون «مفترجة» حقاً
ان الفتاة لا تنتظر . ان سحر فخرى هو قطعاً الذى جعلها
تزيل كل الحواجز في خمس دقائق . انها كانت تحتضنه منذ
دقيقة . انها الآن تحتضنه بقوة أكثر ، بغرام أكبر ، ولكنها
تتذكر فجأة أن فخرى غريب ، وأنه ربما يكون مسلماً .
ممكناً .

« هل أنت مسلح يا حبيبى ؟ » ، هكذا تساءلت الفتاة من
مقرها في أحضان فخرى . تساءلت . . وهي تتلمس مسدساً أو
سكيناً في جيوبه ! . .

وابتسم فخرى ساخراً من حذر الفتاة . ان شخصاً وسيماً
مثله لا يحتاج لأية احتياطات . . خصوصاً في مثل هذه المواقف
الملتزمة .

ولكن ابتسامة فخري لم تدم طويلا ..
فبعد ثانية او ثابيتين ، انفتح الباب فجأة ، ودخل رجل
رجل عملاق - ان الرجل مندهش من وجود فخري .. طبعاً
من المؤكد أن هذا الرجل يحب الفتاة ، وأنه مندهش الآن لأنها
تخونه مع رجل آخر ..
ان شيئاً من هذا القبيل دار في رأس فخري قبل أن يصيح
الرجل في وجهه :
- بتعمل ايه هنا يا مجرم !؟

مجرم ..؟ ان فخري ليس مجرماً بعد .. انه .. انه ماذا ؟
احتار فخري في رده على الرجل . أما الفتاة .. فقد بدا عليها
هي الاخرى أنها لا تدري أيضاً كيف تتصرف ..
ولكن الرجل العملاق تصرف . لقد أخرج سكيناً وضغط عليها
فكادت تلامس وجه فخري .. بهذا السكين قال الرجل لفخري
آمراً : اطلع بره .. بره .. لو شفتك معها تانى هاقتلك ..
فاهم يعنى ايه ؟ .. هاقتلك ! ..

وفي أقل من ثانية واحدة كان فخري في الشارع .. الحمد
لله .. الحمد لله .. لقد أنقذ حياته من سكين هذا الرجل
المجنون . المجنون حبا بفتاته .

وبحركة تلقائية من فخري - فهو الآن في الشارع - أخرج
منديلاً يمسح به كل هذا العرق الذي تصبب من وجهه . مع
المنديل أخرج سيجارة يخفى بها توتره . هذه آخر سيجارة في
العلبة .. لا بأس . فليشتر علبة سجائر ، لعلها تكفى لنسيان
هذه الدراما الغرامية ..

وعندما مد فخري يده الى الدولارات في جيبه ليشتري سجائر
اكتشف أنه لا توجد دولارات ، لا في هذا الجيب ولا في أى جيب
آخر . لقد سرقت الدولارات من فخري في ليلته الأولى . سرقتها
الفتاة عندما تلمست جيوبه بحثاً عن مسدس أو سكين . يا نهار
أسود .. الدولارات ؟ كيف ذهبت الدولارات ؟ لقد اختفت .
طارت الثلاثمائة دولار التي خرج بها فخري من مصر . طارت
الثروة . طار رأس المال . طار المال . وطار الرأس أيضاً مع
المال ! ملعونة نيويورك ، والناس في نيويورك .. والبساتين
في نيويورك ..

x x x

ولكن المسألة في الواقع لم تكن في نيويورك ، ولا في بنات

نيويورك . فهذه الحكاية نفسها يمكن أن تحدث في نيويورك أو في غير نيويورك . وهذا النوع من الناس يمكن أن يوجد في القاهرة مثلما يمكن وجوده في نيويورك .

هكذا قلت لفخري عندما قص على الحكاية . قلت له : ان الانسان ليس محتاجا للقدوم الى نيويورك لكي يقع له هذا الحادث . تعال معي الى أى مكان في العالم ، وتصرف بنفس الاسلوب ، وسوف يحدث لك أسوأ من هذا . . .
ان هذه الحكاية لها عندى دلالات كثيرة .

فرغم أن فخري استدعى الشرطة بعد ذلك ، ورغم أن الشرطة حاولت مساعدته في الحدود التي تستطيعها ، إلا أن الدرس ما يزال قائما عند فخري حتى الآن . ان فخري الآن أصبح يتعرف كمهاجر ، وليس كطالب متعة . ان الزوارق الصغيرة يجب ألا تبتعد عن الشاطئ .

و . . أنت لم تبتعد عن الشاطئ ! فى الواقع أننى أكاد أراك « تبخلق » مثلى فى فاترينات المحلات يمينا ويسارا . معقول . أنت ما زلت فى شارع برودواى . ناطحات السحاب أمامك . دور السينما على يمينك ويسارك . المحلات أمام عينيك .

سوف تلاحظ أن هذه المحلات تعلق لافتات ضخمة تقول « أوكازيون . . هذه هى الايام الاخيرة للأوكازيون » . ان الاوكازيون فى أمريكا معناه أن السلعة التى تساوى مائة دولار تباع بثلاثين دولارا فقط . هذا هو الاوكازيون كما يتم فى كل المحلات الكبرى فى أمريكا . كل المحلات ، ولكن ليس فى هذه المحلات الصغيرة بشارع برودواى . هذه المحلات بالذات . ان أى سلعة تشتريها من أى محل كبير فى أمريكا تستطيع - اذا لم تعجبك - أن تعيدها للمحل خلال أسبوع من شرائها وتستعيد كل نقودك . . . ما لم تكن ملابس داخلية . الملابس الداخلية ممنوع اعادتها بحكم القانون .

كل هذا ممكن فى أى محل . . . ولكن ليس فى هذه المحلات الصغيرة المتجاورة فى شارع برودواى . فلافنة الاوكازيون معلقة على هذه المحلات فى مكانها هذا دائما . ربما لانهم يعرفون أن القادمين الى برودواى هم كالقادمين من الارياف الى شارع الموسيقى بالقاهرة . ربما لانهم يعلمون أن المستهلك الغريب لا يعرف بعد أن هذه البضائع التى يبيعونها فى برودواى قديمة . ربما لان كلمة « اوكازيون »

سوف تجعلك تشتري ما لم تكن تنوى شراءه . او ربما لان
أصحاب معظم هذه المحلات في برودواى هم .. يهود !

x x x

هذا هو المكان المناسب لمقابلة اليهود في امريكا ! انهم هنا منتشرون
في شارع برودواى - ثم في نيويورك كلها - يملكون المحلات ،
الكباريات ، يعملون في التجارة ، يضاربون في البورصة ، يساهمون
في الصحف ، يديرون الشركات . انك تحس ان اليهود ليسوا
جنسا ، ولا كان لهم دين . تحس فقط انهم مجموعة اقتصادية .
تحس ان المساومة هي تخصصهم ، والتجارة عملهم ، والسمسة
صناعتهم ، والنقود آلههم .

هنا بالضبط ، في برودواى ، في نيويورك ، ثم في امريكا كلها ..
تستطيع ان تتأكد ان اسرائيل هي هذا : عقل صهيونى ، وجيب
يهودى ، واسنان امريكية ! .. ان العقل الصهيونى يفكر للعدوان ،
والاموال اليهودية تسدد فاتورة الحساب ، والاسلحة الامريكية
تكفل الحماية .

هنا يوجد ستة ملايين يهودى - أى اكثر من سكان اسرائيل
نفسها . انهم اقلية في امريكا .. ولكنهم يتركزون في مدن مثل
نيويورك ، شيكاغو ، فيلادلفيا ، لوس انجلوس .. وكلها مدن تمثل
مفاتيح لولايات كبرى في امريكا واقتصادها . انهم - منذ سنة
١٩٤٨ - هم البنك الذى يسدد معظم فواتير اسرائيل . لقد اعطوا
لاسرائيل في سنتها الاولى مساعدات نقدية ونوعية زادت قيمتها
على مائتى مليون دولار . مبلغ ضخيم من رأس المال لايساوى الا
الحصة التى تسلمتها الحكومة الامريكية الفيدرالية نفسها في
تلك السنة .

وفي السنوات الاثنى عشرة التالية اعطى يهود امريكا لاسرائيل
مليون دولار . واشتروا سندات اسرائيلية بأكثر من نصف
مليون دولار .

انهم يستقبلون كل سنة مئات من المبعوثين والرسميين القادمين
من اسرائيل . لقد جاءوا الى امريكا لى يجمعوا ، يجمعوا ، يجمعوا
التبرعات . تبرعات معلقة تماما من الضرائب .

انهم - خلال اهتمامهم الخاص باسرائيل - وخلال قانون العرض
والطلب في السياسة الامريكية والاعلام الامريكى ، خلقوا مناخا ادى
الى ارتفاع ثمن العواطف الامريكية نحو اسرائيل الى الحد الاقصى ،
وارتفاع قيمة النتائج العملية لهذا المناخ الى الحد الاقصى ايضا .

فبالقياس النسبي للمساعدات الأمريكية التي أعطيت لإسرائيل منذ قيامها . . نجد أنه أعلى معدل مساعدات أعطتها أمريكا لأي دولة في العالم ، وإن إسرائيل تحصل الآن ، دائما على مركز الدولة الأكثر تفضيلا في مجالات عديدة . وبدون هذه المساعدات ، لم تكن إسرائيل تستطيع امتصاص أي مهاجرين جدد أو خوض ثلاث حروب في الشرق الأوسط .

وليس من الضروري أبدا أن يكون كل يهودي أمريكي هو - أوتوماتيكيا - شخصا صهيونيا مؤيدا لإسرائيل . أنك في الواقع سوف تجد يهودا أمريكيين يعارضون الصهيونية والنشاط الصهيوني في أمريكا نفسها . اشخاصا مثل : الفريد ليلنتال ، إيلمار بيرجر ، موريس كوهين ، موشي مينوهين . . وغيرهم . لهذا يجب أن تكون التفرقة في كلماتك واضحة بين اليهودي والصهيوني .

إن اليهودي ليس هو الشخص الذي نعاده هنا في الشرق الأوسط ، في الواقع أننا لم نعاده في أي وقت . وحتى في الوقت الذي اضطهدته أوروبا كنا نحن نسمح لليهود بأن يصبحوا وزراء - رينيه قطاوى مثلا وزير المالية في أوائل العشرينات . وسلمحت لهم بأن يمتلكوا الشركات والمحلات التجارية : محلات داود عدس وبنزايون مثلا . وسمحنا لهم بتأسيس البنوك : بنك الرهونات وشركة سوارس مثلا « سمحنا لهم بعضوية مجلس الشيوخ - رينيه قطاوى باشا مثلا - وبالعمل في الإذاعة المصرية - ميشيل برايت داي مثلا ، وبالسيطرة على الصحف قبل حرب فلسطين عن طريق شركة الإعلانات الشرقية مثلا .

ليس لدينا إذن أي شيء ضد اليهودي كيهودي ولكن لدينا كل العداء في العالم ضد الصهيوني .

ونحن نستطيع أن نفرق بين اليهودي والصهيوني ببساطة شديدة : فاليهودي هو مجرد فرد ينتمي إلى دين معين . بينما الصهيوني هو نفس هذا الشخص حينما ينتمي إلى حركة سياسية ذات أهداف توسعية استعمارية في الشرق الأوسط - هي الحركة الصهيونية .

x x x

هذه الحركة الصهيونية هي التي ستواجه نشاطها في أمريكا كل يوم : في الصحف ، في الإذاعة ، في التليفزيون ، في الجامعات ، في دار سينما ، في بار ، في كباريه ، في منزل صديق أمريكي ، في الشارع الخامس بنيويورك يوم ١٥ مايو كل سنة .

أنك ستعرف تسمع عنها من خلال منظمات صهيونية كثيرة -

منظمات مثل « اللجنة اليهودية الامريكية » او « اللجنة الاسرائيلية
الامريكية للشئون العامة » او « لجنة الدفاع اليهودي » او « المنظمة
الصهيونية الامريكية » او .. او ..

انها منظمات تقيم شبكة عنكبوت ثقيافية ونفسية حول
المواطن الامريكي .

حسنا .. هذا هو ماسوف تواجهه في امريكا : المواطن الامريكي
نفسه . انك سوف تجد مواطنا امريكيا يسألك - بمنتهى حسن
النية : لماذا ترفضون السلام .. ؟ لماذا تريدون ازالة اسرائيل ؟
لماذا تريدون لقاء اليهود في البحر ؟

وسوف تبسم - مثلما فعلت أنا مرات عديدة - وانت ترد :
حسنا ، نحن نريد السلام . ليس هذا هو السؤال .. ولكن السؤال
هو : السلام .. ابتداء من متى ؟ ابتداء من سنة ١٩١٧ ؟ من سنة
١٩٤٨ ؟ من ١٩٥٦ ؟ من ١٩٧٦ ؟ من الآن ؟ السلام ..
كلمة ساحرة يرددها انجاني والمجنى عليه ، مع اختلاف كبير في
النتيجة . تخيل لصا طردك من منزلك بالقوة ، واحتله بالقوة ، ثم جاء
يقول لك مقسما : تعال ننسى الماضي . لقد احتلت أنا المنزل وانتهى
الامر .. تعال نتصافح ونصبح أصدقاء من الآن .. مارايك ؟ هل
يلومك الناس لانك ترفض مصافحته ومسأله قبل اعادة
المنزل اليك . . . ؟

في هذه اللحظة ربما يبدو على الامريكي لأول مرة بعض التردد وهو
يقول لك : لا .. طبعاً ، ولكن .. انتم ترفضون أشياء كثيرة .
ترفضون حتى « الاعتراف بدولة اسرائيل .. ترفضون حرية الملاحة »
ترفضون « المفاوضات المباشرة » ، ترفضون « انتهاء حالة الحرب » ..
مرة أخرى ربما يكون ردك شيئاً مثل هذا : سيدي .. كل
ما نقوله الآن هو وجوه مختلفة لمشكلة واحدة . كلها نتائج فرعية
لمشكلة واحدة أساسية . ان اسرائيل - والصهيونية - تريد من
العالم ان يقرأ الكتاب من صفحته الأخيرة ، ونحن نريد من العالم
- فقط - ان يقرأ الكتاب من صفحته الاولى قبل ان يحكم عليه .
هناك مليونان من الفلسطينيين مطرودون الآن من منازلهم ،
مشردون خارج ديارهم . الى ان يستعيد هؤلاء حقوقهم ، فلن
يحدث اعتراف او مفاوضات او انتهاء لحالة الحرب .

- اذن .. هل ستحاربون من جديد .. ؟

- مؤكد . . .

— ولكن اسرائيل هزمتكم في ستة ايام سنة ١٩٦٧ .. فلماذا لاتعترفون بالواقع وتسالمونها ؟ .

— سيدى .. في سنة ١٩٤٠ تراجع الجيش الفرنسى امام القوات النازية وانهار في ثلاثة اسابيع فقط من بداية العمليات العسكرية . وفي نفس الحرب العالمية الثانية واجهت القوات الفرنسية والانجليزية أبشع انسحاب عسكري في دنكرك . وفي تلك المعركة انسحب ٢٢٤ ألف جندي بريطاني ، ١١٤ ألف جندي فرنسي ، علاوة على مليون جندي وقعوا في الأسر . وفي سنة ١٩٤١ تراجع الجيش السوفيتي امام الجيش النازي ٥٠ ميلا خلال ثلاثة اسابيع فقط . وخلال شهر وقع في الأسر أكثر من مليون ونصف مليون جندي روسي . وفي نفس السنة ايضا حطم الاسطول البحرى الأمريكى في بيرل هاربور بضربة واحدة . لقد هاجمته اليابان بـ ٣٦٠ طائرة في وقت واحد قبل الفجر . وخلال ساعة واحدة — وليست ستة ايام — تحطمت كل البوارج الأمريكية الضخمة الراسية في بيرل هاربور ... فلماذا لم تسالموا اليابان بعد بيرل هاربور ؟ ولماذا لم يفعل الاتحاد السوفيتي ، ولم تفعل بريطانيا .. مع المانيا النازية ؟ هل كان السلام شيئا منطقيا في تلك الظروف ؟

وبسرعة يرد الأمريكى : لا .. لا . ولكننى اقول .. مافائدة أعمال « الأرهاب » هذه التى يقوم بها « العرب » ضد اسرائيل في المناطق المحتلة ؟ .

— أولا .. هذا تحرير لارض محتلة ، وليس ارهابا . ثانيا ان الذين تسمع عنهم هم فدائيون فلسطينيون .. كانت هذه الارض ارضهم وارض اجدادهم .. انهم — بتعبير موسى مينو هين الكاتب المعادى للصهيونية رغم انه يهودى ، وأمريكى مثلك — هم .. « شباب غاضب قادر جسمائيا ، نفى من وطنه وبيته في فلسطين ، وحكم عليه بحياة لاتحتمل ، وغير قادر على ابتلاع تعاسته وبؤسه في المنفى .. يشاهدون كل يوم منازلهم واماكن عملهم او حدائقهم ، وابقارهم وعنزاتهم وثمار حقولهم وبساتينهم يستمتع بها الغزاة الاسرائيليون . انهم ... يعبرون الحسدود ليستردوا شيئا من منازلهم ، فيقتلوا الاسرائيليين او يقتلهم الاسرائيليون » .

ان الأمريكى يتساءل في هذه النقطة ، مندهشا : هل قلت ان هذه المنازل كانت منازلهم ، وانهم كانوا اصحابا لتلك الارض ؟

— نعم .. قلت ذلك . ان فلسطين لم تكن ارضا خالية من السكان هل تقبل يامستر ريتشارد أن يبيع لك المسترجون بيتا يملكه المستر

بيتر ؟ هذا ما حدث بالضبط . ان بريطانيا ، وهي لا تملك ، باعت للحركة الصهيونية .. وهي لا تستحق .. أرضا يملكها طرف ثالث .. هو الفلسطينيون .

x x x

ان المناقشة قد تنتهى بصديقك الأمريكى وهو يتمم بكلمات مبهمه . كلمات مثل « لست أدري .. » أو « لست متأكدا .. » أو « هذه حقائق جديدة على تماما .. » وهذا صحيح الى حد كبير !

انها حقائق جديدة عليه . فطوال عملية « غسيل المخ » التى تمارسها الدعاية الصهيونية مع المواطن الأمريكى العادى .. يترسب لديه ان العرب هم ناس اقطاعيون ، متخلفون استبداديون ، بدائيون .. وان اسرائيل جاءت الى فلسطين لكى تعمر صحرائها ، تزرعها ، وتضع فيها مشعلا للحضارة الغربية . بكلمات أخرى : نحن - العرب - هنود حمر .. واسرائيل هى الرجل الابيض .. فى الشرق الاوسط . صورة جذابة طبعاً للتفكير الأمريكى .

لهذا السبب تحارب الصهيونية وجود أى عربى فى امريكا . وهى تحاربه أكثر كلما كان ناجحاً أكثر .. فى الدراسة .. فى العمل .. فى الوظيفة .. فى التجارة .. او فى الثقافة . انها تحارب وجوده فى امريكا ، لان مجرد وجوده هو - فى حد ذاته - دليل على انتمائه لشعب متعلم مثقف ، متحضر . ان مجرد وجوده يعنى ان خمسة امريكيين سيعرفون حقيقة الصراع فى الشرق الاوسط . خمسة ، عشرة ، عشرين امريكيًا - تحتأجهم الحركة الصهيونية واسرائيل - سوف يبدأون فى التساؤل . لهذا فانك كمهاجر - وحتى قبل ان تفتح فمك - تمثل خطراً متحركاً ، حقيقة متحركة على قدمين ، تمثل وجهة النظر الاخرى المحرم انتشارها .

واكثر من هذا ، ربما تفاجأ بوجود انطباعات اكثر تزييفاً عن حقيقة الصراع فى الشرق الاوسط . ومن المؤكد انك سوف تجد معظم الصحف الامريكية تكرر لقرائها كل صباح ان امريكا تحارب الاتحاد السوفيتى فى الشرق الاوسط ، وهذا بالضبط ماتسعى الى تأكيدده - ويريده - العمل الصهيونى الاسرائيلى فى الولايات المتحدة .

لقد عملت اسرائيل منذ مدة طويلة سابقة لخلق هذه الصورة لدى الرجل العادى الأمريكى . فمبكراً - منذ سنة ١٩٥٧ - اصدر ابا ايبان - وزير خارجية اسرائيل الحالى - كتاباً بعنوان : « صوت

اسرائيل « . الكتاب هو مجموعة من المحاضرات والخطب التي القاها ابا اييان في مدن الولايات المتحدة عندما كان سفيرا لاسرائيل هناك . بالضبط ٢٢ محاضرة وخطابا .

والفكرة الرئيسية التي لاتغيب مرة في هذا الكتاب هي اصرار اييان على ربط مصر اسرائيل بمصير السياسة الامريكية بصفة عامة في الشرق الاوسط . انه يقول : ان اسرائيل دولة صغيرة ، حديثة ، مسألة وديمقراطية . . وتريد العيش في سلام . . بينما يحيط بها جيران كبار واقرباء وعدائيون واقطاعيون . وازاء العرب (!) الذي تعيش فيه اسرائيل فانها احيانا تجد نفسها مضطرة (!) لان تهب الى الدفاع عن نفسها مثلما حدث في سنة ١٩٥٦ (!) . واسرائيل بعملها هذا انما تدافع عن الحضارة الغربية نفسها «

ويستمر اييان الى ان يصل الى السطر الذي ظل يؤجله ٢٩٩ صفحة : ان الصراع بين الدول العربية المتحررة وبين اسرائيل هو في جوهره صراع بين الشرق والغرب . . بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة .

يعنى : اذا كان على الغرب ان يدافع عن نفسه في الشرق الاوسط . . فليبدأ بالدفاع عن اسرائيل . واذا كان الغرب يعيش في حالة عداء مع العرب ، فليست اسرائيل هي السبب . ان هذا العداء العربي نحو الغرب هو عداء حتمي لادخل لاسرائيل فيه . انه عداء له اسبابه التاريخية الخاصة ، واسرائيل ليست واحدا من هذه الاسباب .

والمسألة التي لاشك فيها فعلا . . هي ان لدينا اسبابنا الخاصة لمعاداة السياسة الغربية . هذا صحيح . ولكن مساندة الغرب لاسرائيل هي رأس هذه الاسباب . لقد اشتركت فرنسا في التآمر على مصر سنة ١٩٥٦ وعاملها العرب بما تستحقه جزاء على هذا التواطؤ . ولكن فرنسا - في عهد ديغول مثلا - وقفت موقف الحياد في صراع الشرق الاوسط ، وبالتالي فان العرب اعلنوا لها عن تقديرهم لهذا الموقف . ولم يقف عربي واحد ليعلن : ان عداءنا نحو فرنسا هو مسألة « حتمية » . مسألة قدرية ، لامفر منها ولا فكاك .

و . . .

انت الآن متعب . . ! لقد تعبت من السير والفرجة والاتبهار والمناقشة والتجربة . ربما تبحث الآن عن تاكسي لتعود به الى الفندق . ربما تكتشف فجأة ان سائق التاكسي لبناني ، مثلما حدث معي مرة . لقد طار الرجل من الفرحة عندما علم انني مصري . .

« .. أهلا أهلا .. يا ابن عرب . أنا اسمى حبيب عازر .. من بيروت .. مهاجر الى امريكا منذ عشرين سنة . لقد زرت بيروت منذ خمس سنوات فقط ، ولكننى زرت القاهرة أيضا قبل عودتى .. كانت أسرتى - التى صحبتها معى - تريد ذلك .. تمنى ذلك .. انت تعلم طبعا .. ان الشرق يبدأ من القاهرة .. ان السحر كله فى القاهرة » ..

ربما يحدث لك هذا . . ربما لا يحدث ..

ولكن المؤكد فى هذا كله أنك ستعود الى الفندق سيرا على الاقدام فى ١٥ دقيقة - لاتاكسى ولا اتوبيس . سوف تعود متعبا مرهقا . وقبل أن تستلقى على السرير سوف تستعيد فى رأسك كل الانطباعات التى تكونت لديك اليوم . ان معظمها ما زال بعد انطباعات شخص عابر ، انطباعات زائر ، انطباعات ال ٢٤ ساعة الاولى ..

مازالت امامك فترة طويلة قادمة لتفهم المجتمع الأمريكى من الداخل - تفهم المشاكل الأكثر عمقا ، والتيارات الأكثر قسوة .. التى جعلتك تنبهر اليوم كل هذا الانبهار . حسنا .. هذه مهمة الفصل التالى .

نظرة على المجتمع الأمريكي :

مستأمر أمريكا !!



ليس في أمريكا مجتمع . في أمريكا زحام من الناس !

ليس في أمريكا أغلبية . في أمريكا مجموعة من الاقليات ! .

هذه هي الحقيقة الاولى التي يجب ان تعرفها عن أمريكا . ان الولايات المتحدة هي ولايات .. غير متحدة . ان المجتمع الذي يعيش في هذه الولايات يشهد في السنوات الاخيرة انقسامات مريعة تستطيع ان تلمس مظاهرها أينما تذهب . هناك الفقير ، وهناك الغنى . هناك الجنوب ، وهناك الشمال . هناك الاسود ، وهناك الابيض . هناك القديم ، وهناك الجديد . هناك المناصر للحرب غير الشريفة في فيتنام ، وهناك المعادي لها و .. اهم من هذا كله ، هناك

الجيل الذي يجلس في كرسى السلطة .. والجيل الذي يخضع للسلطة . جيل حقق القوة بسلادته .. بغير شرف ، وجيل يريد الشرف لبلاده حتى بغير قوة .

أقول أنك لن تجد في أمريكا مجتمعا .. ستجدوا هذه المشاكل : العنصرية ، التضخم ، روسيا ، السخط ، الجريمة والمظاهرات ، فيتنام ، المافيا التجنيد ، الاجهاض المخدرات .

ولن تجد في أمريكا اقلية . سوف تجد أولا مجموعة من الاقليات : وهي السود ، الكاثوليك ، اليهود ، المكسيكيون ، الصينيون ، الايطاليون ، البولنديون ، البورتوريكيون ، الشباب ، المثقفون .

لهذا السبب فان المهاجر لن يجد نفسه في بلد آخر فقط ، انما في جو آخر ، اخلاقيات أخرى ، قيم أخرى ، وقواعد أخرى متعبة .

ان هذا الاختلاف موجود بقدر ما في أمريكا اناس مختلفون ، جاءوا من بلاد مختلفة ، وثقافات مختلفة . اختلافا تلمس مظاهره كل خمس دقائق . حينما تتكلم ، تعمل ، تدرس ، تنجح ، تشتري طعاما ، ترتدى ملابس ، تدخر ، تستثمر تخطط ، تركب ، تبني ، تبشرك ، باختصار .. حينما تعيش .. فلا بد ان تعد نفسك مقدما لتقبل ظروف مختلفة ونتائج مختلفة ، وحسابات مختلفة .

والسبب في هذا كله ان المجتمع الامريكى هو مجتمع من نوع خاص .. مع تحفظات كثيرة على كلمة «مجتمع» هذه . السبب هو ان الشخصية الامريكية المعاصرة هي نتيجة تفاعل بيئة وناس .. كلاهما مختلف ومتنوع ومعقد .

انه من الاصل . مجتمع من المهاجرين . ان الذين هاجروا الى امريكا في البداية ذهبوا الى هناك بحثا عن حلم في رأسهم . الحلم الامريكى كما يسمونه الان . حلم بولادة جديدة ، شوق لفرصة ثانية . امريكا كانت هي فرصتهم الثانية .

في مثل هذا المجتمع لا يستطيع الناس ان يتفقوا على اشياء كثيرة . انهم لا يتفقون سوى على اشياء قليلة فقط . اشياء تمثل الحد الأدنى اللازم لجعل الحياة تتحرك ، تسير الى الامام . اشياء قليلة .. عملية .. من السهل ان يفهمها الجميع . ويتفق عليها الجميع . لهذا يختلف المجتمع الامريكى كثيرا على ما هو اخلاقى ، ما هو مثالى . ضرورى أن يختلف . ولكنه يتفق بسرعة على ما هو علمى ، ما هو علمى ما هو تكنولوجى . لان العلم والتكنولوجيا لا يمكن ان يكونا سيئة او طيبة في حد ذاتها . لا يمكن ان يكون لهما اخلاقيات خاصة بهما .

من هنا يمكن أن نفهم خصائص كثيرة للمجتمع الأمريكى المعاصر .
انه مجتمع يعبد العقل الالكترونى بأكثر مما يعبد السيدة
العذراء . انه متدين أكثر منه مؤمنا . ان الخطيئة بالنسبة له
كلمة لا يتذكرها الا كل يوم أحد . ان الخطيئة الوحيدة التى
تستطيع أن ترغمك على تذكرها كل دقيقة هى : الفقر . ان تكون
فقرا فى أمريكا يعنى أشياء كثيرة . يعنى : الفقر ، الحرمان ،
الشقاء ، البؤس ، الانعزال ، الوحدة .

وان تكون غنيا يعنى فى نفس الوقت أشياء كثيرة أخرى : المتعة ،
الحياة ، السياسة ، الزعامة ، القوة ، السلطة ، الحرية ،
الشهرة ، النفوذ .

ان العائلة المحترمة والاصل الطيب فى أمريكا امر طيب ..
ولكن دفتر الشيكات هو الذى يستطيع أن يزيل من طريقك كل
العقبات . كل الحواجز . لهذا لم تنتج أمريكا شكسبيراً آخر أو
بتهوفن ، أو اينشتاين . انها لم تفعل ذلك لان أبطال المجتمع
الأمريكى ليسوا سياسيين ، ولا مصلحين ، ولا أخلاقيين ، ولا
فلاسفة ، ولا فنانيين . انهم رجال اعمال . رجال مثل كارنيجى ،
روكفلر ، فورد ، اديسون .

ان اسوأ مصيبة يمكن أن تحل بحزب سياسى فى أمريكا هى
وقوع كساد اقتصادى خلال حكمه . وحتى الآن لم يفقر
الأمريكيون للحزب الجمهورى أن كساد سنة ١٩٢٩ وقع
خلال حكمه .

واسوأ ما يمكن أن يقال ضد قانون فى أمريكا هو انه يضر
بالتجارة . ان أى شيء يعد بزيادة الثروة يعتبر اتوماتيكيا شيئا
طيبا . لهذا تحمل الأمريكى المعاصر بصبر أسوأ مظاهر التصنيع .
ويتحمل بعد هذا كله مصائب أخرى كثيرة : المضاربة ، الاعلان ،
الاستغلال ، تلوث الطبيعة .. الخ .

ان هذا كله أدى الى اعطاء لون كمى وعددى للشخصية
الأمريكية . ان الأمريكى المعاصر لا يستطيع أن يفهم تماما أى شيء
الا اذا ترجمته اليه فى أرقام . ان مجتمعا يتهج باحصائيات
السكان ، بناطحات السحاب ، بطول السكك الحديدية ، بأرقام
الانتاج ، بعدد الطلبة ، بطول الرحلة والمتعة فى البحيرات العظمى ،
نهر الميسيسبى ، شلالات نياجرا ، تكساس ، انه سعيد جدا
حينما يعثر على حل ميكانيكى للمشاكل : محلج القطن ، القارب
البخارى ، ماكينة الخياطة ، التلفراف ، التليفون ، الآلة الكاتبة ،

العقل الالكتروني . وآلاف أخرى من الاختراعات التي أدخلها الأمريكي في حياته اليومية . ان كل شخص متعلم ، ولكن شركات التلفزيون وجدت من الأرباح لها أن تعد وسائل جاهزة مقدما للتعاطف أو التهنية أو التعزية كل امرأة ماهرة ولكنها لا يمكن أن تضع وقتها فيما تفعله المرأة في أي مجتمع آخر : التطريز أو تفصيل الملابس مثلا . ان الشيء الجاهز أرخص . انه أرخص لها واكسب للمجتمع . لا داعي لان تضع وقتك مفكرا في الالفاظ المناسبة التي تهنيء بها صديقك . شركة التلفزيون ستتولى هذا العمل . لا داعي لان تضعي وقتك في تفصيل فستان بالشكل الذي تريدينه ، الفستان الجاهز أرخص بدولار ، بنصف دولار ، بربع دولار ، المهم انه أرخص ولو بمقدار سنت واحد .

اقول ان الارقام هي اللغة الوحيدة المفهومة في المجتمع الأمريكي ان قيمة الانسان عنده هي كم يملك الان . قيمة كل فرد تقاس بما يكسبه ، بما يوفره . معك نقود . . المجتمع لك . معك الفقر . . المجتمع ضلك . لا قيمة للشخص قبل أن تكون لديه نقود . وحين يملك النقود فقيمه تقاس بمقدار هذه النقود . في هذه الحدود يتلقى الاحترام والتبجيل والفهم من المجتمع . ان ما يهم فقط هو : كم في جيبك الآن . . وفي هذه الدقيقة بالذات ؟ فمن الممكن ان تكون غنيا في لحظة ، وفقيرا في اللحظة التالية . هذا معناه انك محترم في لحظة ، وغير محترم في اللحظة التالية .

ان قيمتك اذن هي رقم تقوله . رقم من ارقام كثيرة يتعامل بها المجتمع الأمريكي . فالارقام عملة مقبولة في كل مكان بأمريكا . ان الارقام هنا ليست في النقود فقط؟ ولكنها تمتد لتؤثر على كل شيء .

اذا اردت مثلا ان تفتح نافذة تطل منها على العقل الأمريكي فلن تجد سوى ارقام الاستفتاءات واحصائيات الرأي العام . معهد جالوب مثلا يقول ، ان نصف الأمريكيين لم ياكلوا الاستاكوزا في حياتهم . . واحد من كل سبعة في الولايات المتحدة شعره احمر اللون . . معظم النساء الأمريكيات يفضلن تخسيس أنفسهن . . معظم الرجال لن يعترضوا على زوجاتهم اذا استعملن الالفاظ البذيئة علنا؟ . . أمريكي واحد من كل خمسة جاع مرة بسبب عدم وجود نقود . . كل جنتلمان في أمريكا يفضل السمرات على الشقراوات . . أربعة من كل عشرة أمريكيين تسلقوا جلا في حياتهم . اكثر من نصف الأمريكيين شربوا المشروبات مرة واحدة

على الأقل .. ست زوجات من كل عشر يرين ان أزواجهن على شيء من الوسامة .. خمسة ملايين امريكى مستعدون للتطوع في الرحلة التالية للهبوط على القمر .

واذا اردت ان تتعرف على الكتب التى تخاطب احلام الفرد في المجتمع الامريكى فسوف تجد قائمة لا تنتهى . كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة؟ .. دع القلق واستمتع بالحياة .. دع التوتر وابدا الحياة .. كيف تحول الدولار الى مليون دولار .. كيف تحول الناس الى ذهب .. كيف تحول الفشل الى نجاح .. كيف تتحرك وتقع الناس .. فن الاقنصاع .. كيف تكسب الاصدقاء وتؤثر في الناس ..

ان الكتاب الاخير وحده ومؤلفه ديل كارينجى اصبح .. اوسع الكتب انتشارا في التاريخ باستثناء «الكتب السماوية» .. ان ملايين النسخ طبعت منه في اكثر من ستين طبعة .. انه يقدم لك وصفات جاهزة لتكسب الناس مثلا : لا تجادل . لا تقل لاحد انه مخطيء . سلم بخطئك . دع الغضب والعنف . ابحث عن كلمة نعم . دع الشخص الآخر يتولى دفة الحديث دعه يتصور انها فكرته . ضع افكارك في قالب تمثيلى .

بهذه الوصفات - وغيرها كثير - يقنعك المجتمع انك ستنجح ، ستفتنى ، ستكسب مليون دولار ! انه يقنعك بالتصفيق للذين اصبحوا اغنياء هذه السنة ، لانك ربما تصبح مثلهم في العام القادم . لا تحسد المليونير اليوم ، لانك تستطيع ان تكون مليونيرا غدا ، لابد ان ترى في القدمين العاريتين لكل طفل قدمين لرئيس جمهورية قادم ، او مليونير في الطريق ، ان المستقبل مفتوح لك ، مفتوح لاطفالك . عش خلالهم . اعمل من اجلهم ، اطعمهم ولا تيأس ، اذا كنت تفلح يجب ان تستيقظ في الخامسة .. اذا زرعت فتم حتى السابعة . اذا عملت فابتداء من التاسعة حتى الخامسة . كل صباح سيبدأ واجب كل مساء سينتهى الواجب . كل اسبوع تحصل على المرتب . عندما تحصل على المرتب اشتر . قلت لك اشتر . اشتر . اشتر .. اشتر ..

هكذا يعيش الامريكى وسط مجتمع استهلاكي . كل شركة تقدم لك نفسها . كل سلعة تعلن عن نفسها . ان الاعلان يقنعك بضرورة اشياء كثيرة . اشياء لم تكن ضرورة قبل الاعلان المتكرر عنها . لهذا تجد ان معظم الامريكيين يحصلون على اشياء ما زالت تعتبر شرفا بالنسبة لاغنياء الدول الاخرى . ان منازلهم مكيفة

الحرارة ، انهم يستهلكون كميات لا تصدق من المشروبات ، الايس كريم ، سكر النبات ، السجائر ، وينفقون على المشروبات الكحولية وزيوت الزينة ، مايكفى لطعام شعوب اخرى كاملة. انهم يوفرون من دخلهم - ليس لشراء مزرعة كما كان يفعل اجدادهم - ولكن لتحقيق مطالب اكثر استعجالا : السيارة ، الاجازة ، التعليم ، او التقاعد . ان الراديو والسيارة والتلفزيون أشياء هامة جدا بالنسبة للامريكي المعاصر .

وانا استطيع ان اسألك في القاهرة : هل شاهدت برنامج التلفزيون أمس ؟ استطيع ان اسألك عن برنامج التلفزيون ، مادام ليس هناك مجال اختيار واسع بين برامج تلفزيونية تتسابق على اجابتك بالملل والقرف والسأم .

ولكن في امريكا هناك فرصة ضئيلة جدا في ان تكشف ان شخصا آخر قد رأى معك أمس نفس البرنامج . ففي بعض المدن الكبرى - نيويورك مثلا . هناك يصل الى عشر محطات تلفزيونية تختار من بينها ، بعضها يعمل ٢٤ ساعة يوميا ان الاختلاف والتنوع هما الكلمتان الصحيحتان اللتان تنطبقان على التلفزيون الامريكي .

وان تكون قادرا على الاختيار بين برامج عديدة - بعضها جاد وبعضها تافه - ليس معناه ان تصبح عبدا للشاشة الصغيرة . ان معناه ببساطة ان التلفزيون بالنسبة للامريكيين هو كالمكتبة بالنسبة للفرنسيين ، والصحف بالنسبة للانجليز ، والمقاهي بالنسبة للمصريين . . مع فارق اساسي ضخم جدا هو : اسلوب ونوع الاعلانات التي تتخلل برامج التلفزيون الامريكي .

فمهما كان الفيلم ، مهما كان البرنامج ، مهما كان الخبر المذاع ، فلا بد ان تتخلله الاعلانات ، الخبر عن القمر ، والاعلان عن مسحوق غسيل ، الخبر عن القتل في فيتنام ، والاعلان عن اعداد الشوربة . الخبر عن غزو كمبوديا ، والاعلان عن استخدام زيت الشعر لغزو قلوب النساء !

ان مشاهدة التلفزيون الامريكي توحى لك - للوهلة الاولى بانهم شعب يعاني من تسوس الاسنان ، اضطراب التنفس ، تساقط الشعر ، الصداع الزمن ، الفص الدائم ، نساؤهم تحتاج الى سوتيانات محشوة ، ورجالهم يعتمدون في جاذبيتهم على زيوت الشعر .

ان المجتمع الامريكي - كما تصوره الاعلانات - هو كابوس من

الخوف ، الغيرة ، الثروة ، الاغتياب ، الحسد ، الطموح الجشع ،
الطمع ، الشهوة ، حيث الغاية تبرر الوسيلة ، حيث العاصفة
يجب أن تكافأ ، والمثل العليا يجب أن تداس ، والقيم تلوث . ان
الأمريكي المثالي كما ينطبع في ذهنك من الاعلانات . . هو شخص
يعيش في عذاب القلق والشهوة ، شخص لا قيمة لاي شيء عنده
الا اذا ارتبط بنتائج عملية سريعة . انه يقرأ الكتب لكي يتحدث
جيذا ، يستمع الى الموسيقى لكي يؤكد مركزه الاجتماعي ، يختار
ملابسه لكي تؤثر على تجمعات رجال الاعمال ، يسلي أصدقاءه
لكي يتقدم في وظيفته ، يقدم الهدايا المستمرة لزوجته لكي تحبه ،
ولاولاده لكي يحترموه . فحتى الحب والاحترام - بالنسبة
للإعلانات الأمريكية - لا يتمان الا بالرشوة . انها اعلانات لا ترى
شيئا مقدسا ولا شيئا شخصيا انها للحقيقة تخاطب مشاعر
الأمومة ، الزواج ، الدين ، أمومة ، الصحة ، النظافة . ولكنها
تصور الحب مثلا كشيء تنافسي ، يذهب لهؤلاء القادرين على شراء
أغلى الهدايا . تصور الصداقة على انها سلة في المزداد . لا يحصل
عليها من يقدم لأصدقائه مشروبا رخيصا او يجلسهم على اثاث
متواضع . ان الترقى والتقدم في الحياة لا يأتي عن طريق العمل ،
او الذكاء ، او الشخصية ، او أي قيمة متعارف عليها . انه يأتي
بمزج ذكي من الخداع والرشوة والابتزاز .

ان كل هذا يوقع دارس الشخصية الأمريكية في مشكلة مربكة .
ان من مهمة المعلنين ان يدرسوا أولا عناصر هذه الشخصية قبل
ان يخاطبوها . مواردهم تمكنهم من الحصول في دراساتهم هذه
على أحدث أبحاث علماء النفس والاجتماع . . وعلى ذلك ، فاذا
كانت هذه الاعلانات تتم بناء على تحليل صحيح للشخصية
الأمريكية . . فان هذا يعني ان الشعب الأمريكي هو شعب فاسد
متدهور . . بينما الحقيقة هي عكس ذلك تماما . ان المعلنين
يخاطبون في الشعب الأمريكي مشاعر الخوف والاستعلاء والانانية
.. ومع ذلك فليس في الشخصية الأمريكية ما يؤكد وجود هذه
الدوافع مطلقا . تناقض . .

وهذا التناقض يتضح في مهمة التليفزيون نفسه ، بل حتى
الوظيفة التي تؤديها الاعلانات في المجتمع الأمريكي . فالواقع ان
الاعلانات تؤدي مهمة كبيرة بتحقيق اللقاء بين المنتج والمستهلك
معا . والتليفزيون الأمريكي نفسه لم يعد نتيجة لذلك مجرد جهاز
يعطيك فقط آخر الاخبار والمعلومات . انه يعطيك اخبار العالم .

اخبار المدينة ، كيف تعد وجبة العشاء لضيوفاك غدا ، من اين تشتري هدية لزوجتك ، كيف تقضى اجازة نهاية الاسبوع . انك - عن طريق الاعلانات في التليفزيون - تستطيع ان تعرف اشياء كثيرة : ماذا تشتري ، من اين تشتري ، كم تدفع ، اين تدفع اقل ، كيف تتسلى .. ومتى تتسلى ..

ان تسليتي الرئيسية في اوقات الفراغ كانت مشاهدة التليفزيون . اذا جلست امامه ربع ساعة فلن اتركه قبل صباح اليوم التالى . انه يعطيك صورة كاملة عن كل تعقيدات المجتمع الامريكى المعاصر .. وبساطة الرجل الامريكى العادى ايضا !

في احد البرامج مثلا احضروا اربعة ازواج وزوجاتهم . الازواج في جانب ، والزوجات في جانب .. وحائط بينهما . انى كمشاهد - ارى المجموعتين . ولكن كل زوج لا يرى زوجته . ان المذيع ظل يسأل الفريقين ساعة كاملة - تتخللها الاعلانات طبعاً . انه يسأل الزوجة مثلا : كيف ينام زوجك على السرير ليلاً .. على جانبه الايمن ؟ الايسر ؟ أم على ظهره ؟ . سؤال آخر : عندما يستيقظ زوجك من النوم صباحاً . ما هو اول شيء يفعله .. يخلع ثيابه .. أم يلبس شيئاً ؟ .. وهكذا ! ..

وبعد ان يحصل المذيع على الاجابات مكتوبة من الزوجات ، يستدير الى فريق الازواج ليسالهم نفس الاسئلة . هنا تبدأ المفارقات المضحكة . ان زوجة توم تقول انه ينام على جانبه الايسر ، بينما توم نفسه قرر الآن انه ينام على ظهره ! ثم .. زوجة توم تقول ان اول شيء فعله هذا الصباح هو انه خلع شيئاً .. بينما توم قرر انه لبس شيئاً .. آه .. قطعاً لم يكن توم هو الرجل الذى نام مع الزوجة أمس !!

ومع ضحكات المشاهدين والازواج ، تعطى الجائزة للزوجين اللذين اتفقت اجابتهما على كل الاسئلة !
ان هذه البساطة التى تجدها فى الاسرة الامريكية جاءت بعد انطباع سابق عن تعقد المجتمع الامريكى . هذا تناقض . ومع ذلك فليس هذا هو التناقض الوحيد الذى تلمسه فى المجتمع الامريكى .

انه مجتمع يؤمن بعلم النفس .. ومع ذلك فالانهيارات العصبية فيه أصبحت شيئاً مألوفاً كالاصابة بالانفلونزا . مجتمع وصل حجم التعليم فيه الى درجة غير معقولة ، وعدد الطلبة فى جامعاته وكلياته اكبر من عددهم فى كل الدول الغربية مجتمعة ، ومع ذلك

فانهم اكثر طلبه العالم تظاهرا ضد الامر الواقع . مظهرة كل يوم . مجتمع عرف اكثر من غيره كيف يسيطر على الطبيعة ويستغل مواردها ، ومع ذلك لم يحدث من قبل ان اسرف في القتل مجتمع مثله . . جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة . ان تحرير المرأة ، تحديد النسل ، توفير الوقت ، الرخاء ، والتعليم . كان يجب ان تجعل الاسرة فيه اكثر سعادة وصحة ، ومع ذلك فان الاسرة الامريكية هي الآن اكثر قلقا من اى وقت مضى . زواج واحد من كل اربعة ينتهى بالطلاق .

لقد شاهدت مرة في التليفزيون الامريكى برنامجا يعرض حالة واحدة من حالات الطلاق هذه .

انها سيدة جذابة ، سوداء الشعر ، عمرها ٢٨ . انها فى قاعة المحكمة منذ التاسعة صباحا . السيدة اسمها مسز كلينمان . محاميا اسمهم ميلتون هنتر . ان المحامى يراها كما يرى دائما معظم زبائنه فى مثل هذه اللحظات - عصبية . . متوترة . . مرتبكة . لقد جاءت الى المحكمة تطلب الطلاق . انها مطمئن من محاميا قبل الجلسة هل سيسألنى القاضى فى شىء ؟ . ولكن المحامى يتسم وهو يردد لها « مجرد اسئلة روتينية » ثم يطلعها المحامى على قائمة اسئلة مطبوعة على ورقة صغيرة . . هى التى يسألها القاضى عادة فى مثل هذه الاحوال . انها تريد ان ينتهى موضوع الطلاق اليوم ، حتى لا تضطر الى اخذ يوم آخر اجازة من عملها كسكرتيرة فى مانهاتن - بنيويورك . بعد دقائق يدخل القاضى ، فى رداء اسود ، متخذا مقعده بجوار العلم الامريكى ثم تبدأ الاجراءات . ان مسز كلينمان تتقدم الى الامام وتجلس فى مقعد الشهادة بعد ان تؤدي ماعليها . حينئذ يبدأ القاضى فى سؤالاتها تقريبا نفس الاسئلة التى اطلعها عليها المحامى .

- هل انت المدعى فى هذه القضية ؟

- نعم . هكذا ترد مسز كلينمان بصوت خفيض .

- هل كنت متزوجة من هارولد كلينمان المدعى عليه فى هذه القضية ؟

- نعم .

- متى تم زواجكما ؟

- ٢١ يناير ١٩٦٧ .

— هل أنجبتما من هذا الزواج ؟

— لا .

— في أي تاريخ هجرك المدعى عليه ؟

— في يونيو ١٩٦٩ .

— ماذا قال حينما تركك باختياره ؟

— قال .. كفاني من الزواج . قال انه منصرف . هذا كل شيء ..

— بماذا أجبت أنت ؟

— طلبت منه أن يبقى . ولكنه رفض .

— هل كنت زوجة مخلصة وتقومين بواجبك ؟

— نعم .

— هل حدث في أي وقت منذ الهجر أن عاد المدعى عليه الى

البيت أو عاشرك ؟

— لا .

هنا وقف محامي الزوجة لكي يعطى للقاضي حزمة أوراق ،
تدل على أن زوج مسز كلينمان — مهندس يعيش الآن في مكان ما
بأوروبا — لم يمكن العثور عليه لاختارده واستدعائه . وأن القضية
أعلن عنها في جريدة نيويورك القضائية .

ثم يسأل المحامي موكلته — الزوجة : هل لدى المدعى عليه
أي مبرر لهجرك ؟

— لا .

— هل صفحت عنه ؟

— لا .

هكذا ترد مسز كلينمان في صوت انخفض فجأة الى درجة
الهمس . وبعد سؤاين آخرين طلب المحامي اصدار الحكم .
هكذا نطق القاضي بحكم الطلاق بعدها بدقائق . حكم سوف
يستغرق اصداره رسميا ثلاثة أسابيع أخرى تقريبا .
ان الجلسة لم تستغرق سوى دقائق . والحكم بالطلاق صدر
على أساس الهجر أساس جديد لم يكن يسمح بالطلاق منذ
سنتين ونصف فقط . فقبل أول سبتمبر ١٩٦٧ كان في ولاية
نيويورك سبب واحد يبرر الطلاق : الخيانة الزوجية . أما قانون
الطلاق الجديد في الولاية — فلكل ولاية أمريكية قوانينها الخاصة —
فقد صدر ضد معارضة الكنيسة الكاثوليكية ، وقرر اضافة خمسة
أسباب أخرى للطلاق : السجن ثلاث سنوات ، الانفصال الشرعى

سنتان بحكم القضاء ، الانفصال بالاتفاق ، القسوة الجسدية او العقلية ، الهجر لمدة سنتين .

وبمجرد صدور هذا القانون ارتفع عدد حالات الطلاق السنوية في ولاية نيويورك من اربعة آلاف الى ١٨ الف حالة !
ولكن امريكا قبل ان تكون بلد الطلاق في العالم .. فهى اولا بلد المرأة !

ان امريكا القرن العشرين اصبحت بلد المرأة اكثر من اى بلد آخر في العالم . ان تفوق المرأة يمكن التدليل عليه من مجرد قراءة احصائيات الثروة والملكية والتأمين ، التعليم ، الادب ، او اعلانات اى مجلة . ان المرأة تدير المدارس والكنائس ، تقرر ماذا يظهر في مجلة او فيلم وماذا يسمع في الراديو وستشاهد في التليفزيون . ان مئات المجلات تصدر خصيصا لتسلية المرأة وارشادها ، بعضها من اكبر المجلات توزيعا . ومعظم الصحف الاخرى تخصص صفحة للمرأة . وكل محطة اذاعة وتليفزيون تقدم سلسلة من البرامج المخصصة لمخاطبة المرأة .

وما دامت المرأة هى التى تنفق معظم النقود ، فان معظم الاعلانات توجه نفسها للمرأة وحتى حينما تخاطب الاعلانات الرجل ، فانها غالبا تخاطبه عن طريق امرأة ، او حبه لامرأة ، ان المرأة فى اى مجتمع آخر - تحكم المنزل . ولكن فى امريكا فقط المرأة هى التى تصممه ، تبنيه ، وتؤثثه ، وتوجه نشاطه ، وتحدد مقاييسه . ان معظم الاطفال الامريكيين يعرفون اسر امهاتهم اكثر مما يعرفون اسر آبائهم .

ومع ذلك .. فى امريكا الآن حركة لتحرير المرأة !!

- ولكن .. الا تشعرين انك حرة بعد ؟ !

هكذا سألت فتاة فى نيويورك .. اسلمها جودى .

« نعم ، نعم ، ولكن .. » ثم بدأت جودى فى الحديث .

انها تحدد بنفسها مواعيد اللقاء مع صديقها ، والا تصبح المسألة « .. كما لو كان صديقى الرجل يستأجرنى لمدة مساء كامل !
انها تقول ان الجنس والحب يجب الفساؤهما . فكلاهما فى رايها - وسيلتان اساسيتان يستخدمهما الرجل لاستعباد المرأة .
وتقول ان المرأة الامريكية التى تؤمن بحركة التحرير الحديثة هى الآن من النساء الامريكيات . نساء لهن عشاق ، أزواج ، أطفال ، او فى طريقهن الى ذلك . انهن يطلبن تغييرا فى العادات والميول

الاجتماعية بحيث يسمح لكل امرأة بأن تكون شخصا منفصلا
عن - ومتساويا مع الرجل .

ان جودى تقول باعتبارها عضوا في الحركة الحديثة : اننا
لا نرى انفسنا كذلك الآن . اننا نرى انفسنا فقط موضوعا
جنسيا . . وجدنا لنكون لعبة الرجل ، محصورات ومقييدات
بلورنا الجنسي . اننى مهما حققت من متعة في دراستى او عملى
فان امى تقول لى « ضعى بعض احمر الشفاه لكى تحصلى على
رجل » اننى قد اصبحت سكرتيرة ، مدرسة ، ممرضة ، طبيبة ،
محامية ، او رئيسة لى شىء . وسواء عملت في مصنع او في مكتب
فاننى اكسب اقل من الرجل . وحينما يصبح لدى اطفال اصبحت
مقيدة بسلسلة طول عمرى . اننى زوجة شارل ، او ام كارول .
ثم بعد ذلك . . لا شىء اننى انظر الى شاشة التليفزيون او الاعلانات
في الصحف فأتري مخلوقا مثيرا جنسيا ، او عاطفيا . مخلوقا يسمى
« المرأة » . . هذا الشخص ليس أنا . . وليس اى واحدة من
صديقاتى . . ان الاحصائيات تقول ان القوى العاملة الامريكية
تضم ثلاثين مليون امرأة اى ثلث فوتنا العاملة . ومع ذلك فان
متوسط مرتب المرأة ٤٨٪ فقط من متوسط مرتب الرجل . ان
مرتب المرأة يقل عن مرتب الرجل بنسبة ٤٠٪ في الاعمال
والوظائف المتشابهة .

هكذا انتهى كلام جودى .

وعندما انصرفت جودى اكتشفت اننى اضحك ! طبعا مسألة
مضحكة . انها مضحكة لانها متناقضة . فالتناقض هو جوهر
الضحك . ان المرأة التى قالت كل هذه الحجج حالا . . هى الان فى
طريقها للقاء صديق شاب . . المرأة التى قامت بذلك - او ربما ليست
هى شخصا - هى التى تتمتع بمركز متفوق في المجتمع الامريكى .
مركز لا تتمتع به بعد اية امرأة اخرى فى العالم . انها هى التى نراها
- بعد من الستين - تطوف حول العالم وحدها بعد ان مات
زوجها تاركا لها كل الثروة والاسم والسمعة والراحة .

انها هى نفسها المرأة الامريكية التى نراها فيما بعد فى ردهات
فنادق هيلتون فى جميع انحاء العالم : سيدات جعلن انفسهن على
طراز نجمة السينما الامريكية لاناتيرنر تقاطيع جافة ، شعر اشقر
منحوت عند الكواخير شعر أصبح ذهبيا من شدة الحزن على زوجها
عملات قديمة تلمع على صدورهن . صدر عابس ، اقدام رشيقة
كالمقصات ، اقدام تتحرك باحتشام الى ان تسمع اول موسيقى
راقصة . وتحت نشرة الاحتشام الواثقة من نفسها تستطيع ان

تكتشف اشارات لماض مشاكس .. واحيانا ماض قاس، ان كل واحدة من هؤلاء مرت بالكثير . وبعد كأس المارتينى الرابعة يمكن ان نخبرك بشيء واحد اوشينين . انها امرأة تعرف كل شيء عن معاش زوجها .. ومع الحديث عن المعاش او ثروة زوجها الراحل - دمة او ذمتين - تبدا ملامح الانشراح في التسلسل الى وجهها . انشراح ممسوك بلجام . انشراح لا يبعد مطلقا عن نقيصه : الياس . فهذه المرأة هي تجسيد لكل الصفات التي يعيش بها الرجل الأمريكى جاذبية المرأة .. كل الصفات ماعدا واحدة : الشسباب !

هذه المرأة هي التي يوجه لها الرجل الأمريكى كل عواطفه - ليس في سن الستين طبعا ولكن ابتداء من سن الثلاثين . امرأة وسط العمر . امرأة نعرعلى نماذج كثيرة لها في السينما الأمريكية : دوريس داي ولوسيل بول وشيرلى ماكلين مثلا . ان دوريس داي هي امرأة غنية على الطريقة الأمريكية . انها « رجل أعمال » ناجح مثلما هي ممثلة مشهورة . لقد كانت - في وقت ما - تدير شركة لانتاج « ملابس دوريس داي » وتوزيعها على نطاق واسع في أمريكا ، ولمدة سنوات عديدة كانت صبورها منتشرة في المكاتب وحجرات الاستقبال داخل المنازل الأمريكية ، بابتسامتها الكاشفة عن معجون أسنانها - ووجهها المعرض لاشعة الشمس . انها في افلامها دائما فتاة ، عاملة ، بريئة ، ظريفة ، وان كانت غير جذابة جنسيا . ان براءتها وعذريتها تتعرض للتهديد غير الجاد ، ولكنها في النهاية تصبح آمنة على نفسها .

ان المرأة الأمريكية التي جعلت من دوريس داي نجمة مشهورة، قد وجدت فيها تعبيرا عن أشياء كثيرة تمتلكها أو تفتقدها ، وهذا هو السبب نفسه الذي جعل شيرلى ماكلين هي الاخرى تصبح نجمة في منتصف الخمسينات كاستمرار لنفس النموذج الذي تعبّر عنه وتخطبه دوريس داي . بأن شيرلى ماكلين بوجهها الذي يشبه السيرك تبدو فتاة في الاصل انها لا تشرب ، وفتاة تحبها بجوار طبق مكرونة وابريق من الخمر ، فتاة تستطيع ان تلخص فلسفتها في الحياة في ثلاث كلمات : التفاؤل ، الامل ، الحب ، انها اول نموذج أمريكى كبير لفتاة منتشرة في أوروبا - الفتاة البوهيمية . انها في الحياة الواقعية تناصر الحقوق المدنية وشفوف بالفلسفة الهندوسية « بالمناسبة : مرة لكت صحفيا في وجهه . انها دائما تبدو في متاعب . ان الكارثة لا تحدث لها في اللحظة الاخيرة بسبب غريزة بريئة حادة : غريزة البقاء « انها هائلة ، تتمتع بحلوسة

السخرية الفظة ، وتنظر لاعقد الامور واكثرها ربة في براءة شديدة انها تعبير حي عن المرأة الامريكية العادية. المرأة التي تقرأ النصائح العاطفية في الصحف ، وتذهب الى طبيب نفسي ، وتستطيع ان تحدث في التليفزيون امام جمهور واسع عن اشياء في حياتها لم تكن امها تستطيع الأدلاء بها لابيها ، انها تمثل المرأة الامريكية التي قرأت في حياتها كتابا او كتابين على الاقل في الجنس، وتهوى قصص المفامرات ، وتشترى لمبة كهربائية خاصة لكي تعطى لوجهها لون الشمس . المرأة التي لاتجد صعوبة كبيرة في التعبير عن عواطف ميكانيكية ، المرأة التي تتحول الى الراديو والافلام لكي تحصل على التسلية والاثارة والمتعة والضحكات ، والدموع . المرأة التي تتعلم الحب من المجلات وتنجب طفلها الاخير قبل سن الثلاثين وتحمل اقراص منع الحمل وتكره الاجهاض. نعم . في السنوات الاخيرة كانت المرأة الامريكية على رأس الذين مايزالون ضد عمليات الاجهاض ان الاجهاض من وقت قريب في أمريكا كان - طبيا - يعتبر من المحرمات التي يتفادى اطباء مناقشتها . وكان تحريم الاجهاض - اخلاقيا - يعتبر جزءا من القماش الذي يحقق به المجتمع تماسكه ولكن الآن، بدأت رياح التغيير في أمريكا تمزق هذا القماش، كما فعلت في اشياء اخرى كثيرة. ان القاعدة ان معظم الولايات تعتبر جريمة حمل المرأة خارج نطاق الزواج وعند رغبتها ، وقبل سن ال ٢١ جريمة ضخمة يعاقب عليها القانون ، والقاعدة ان معظم الولايات تسمح بالاجهاض في حالة واحدة ، هي ان يؤدي الحمل الى تعريض حياة المرأة للخطر . وخلال السنوات الثلاث الماضية قامت ١٣ ولاية - بما فيها كاليفورنيا - باجراء تعديلات في قوانينها تبيع الاجهاض في حالات اخرى غير انقاذ حياة الحامل ، وفي ولاية واحدة - هي هاواي - تركت المسألة كلها الى رأي المرأة وحكمة الطبيب .

ان الاجهاض هو مشكلة نجدها - بدرجات متفاوتة - في كل مجتمع. انه اذن ليس علامة مميزة للمجتمع الامريكي، ولا حتى للفتاة الامريكية .

اذن .. ماذا يميز الفتاة الامريكية .

لقد رأينا منذ قليل - دور المرأة في المجتمع الامريكي ، امرأة يعطيها المجتمع ثروته وحبه وتقديره .. ولم يكن الرئيس الامريكي الاسبق ترومان يقصد مجرد الفكاهة عندما قام - اثناء انتخابات الرئاسة - بتقديم ابنته وزوجته الى الناخبين قائلا :
هاكم بنت الرئيس ، وهاكم رئيسة الرئيس!

نعم ، لم تكن مجرد فكاكة .. ولكنها حقيقة في المجتمع الأمريكي المعاصر ، حقيقة المرأة التي عرفناها منذ قليل بعد سن الستين ، وبعد سن الثلاثين . بقي الآن دور الفتاة الأمريكية قبل سن الثلاثين .. كيف تفكر .. كيف ينظر إليها المجتمع ؟

اننى الآن سوف اختار نموذجا لهذه الفتاة الأمريكية . فتاة اسمها ستيفانى ، ان ستيفانى هي أكثر قليلا من مجرد نموذج للفتاة الأمريكية المثقفة التي تعيش بمفردها .. الفتاة تحت سن الثلاثين ، انها كانت بالنسبة لى موجودة أكثر من أمريكا نفسها . موجودة في نيويورك .. شارع من شوارع الجانب الشرقى بمدينة نيويورك . شقة أنيقة في مبنى من مباني هذا الشارع . شقة لا تزيد على حجرة واحدة ومطبخ . الأيجار مائة وثمانون دولارا شهريا ، هذه هي نيويورك . ان ستيفانى تسكن وحدها في شقتها مثل نصف بنات نيويورك .. عندما اتحدث عنها هنا فانى اتحدث عن الفتاة الأمريكية ، وعن نيويورك . من خلالها .

ان ستيفانى ليست مجرد شخص واحد . انها تضم - في داخلها - حزمة من أشخاص مختلفة ، أحيانا متصارعين ، كل هؤلاء الأشخاص يحتلون جسما واحدا له عمر واحد : ٢٦ سنة بالكثير ٢٧ .

عندما تتحدث ستيفانى فان صوتها يرغمك على الانتباه له . صوت خفيض رقيق ، تحتاج الى أربع آذان لسماعه . ان الصوت يبدأ أولا في لفت نظرك ، في الحصول على انتباهك ، على اذنك . صوت منتش بطيء ، رنان ، لا تختلف درجاته وأنغامه كثيرا في البداية . نادرا ما يتحول الصوت الى صوت جازم متأكد اثناء الحديث . لحظتها تكرر ستيفانى بضع كلمات سوف تألفها من الآن فصاعدا ، كلمات مثل « غير معقول . غير ممكن » ، او تقول مثلا - تقبل لنفسها . « بكلمات أخرى .. » ، ثم تبدأ في تأكيد آرائها السابقة بكلمات أخسرى .

انه صوت ديكتاتورى ، ينزع الى تملكك ، الى السيطرة على مسامعك . انه الشيء الوحيد الذى يتحرك في قوامها النحيل الرقيق وعندما تتكلم ستيفانى ، بوجهها المتجه الى الامام ، وشعرها الطويل الاسود المنسدل على كتفيها ، ونظارتها الطبية على عينيها ، و .. حسنا .. انا لاحب النظارات الطبية . اخلعى هذه النظارة باستيفانى . انها تخلعها بحركة تلقائية لأشعورية ، أحيانا اخلعها أنا قبل أن تستأنف ستيفانى الحديث عن موضوعات عديدة لا التقط غير اطرافها .. اعتدت أن ان اكون طموحة جدا .. ان امى طيبة

جدا .. انها اقصر منى ، ولكنها طيبة .. تصور ، عندما طلبتني في التليفون اليوم ورددت عليها اندهشت .. انها تصورت اننى لابد أن اكون مريضة حتى اجلس في البيت .. كان يجب أن اكون في المدرسة ، أو العمل .. انا لا تذكر الاسماء جيدا .. تشرب قهوة ؟ .. انا افضلها بغير سكر .. مجانين هؤلاء المتظاهرون في الشوارع .. انهم يريدون حرق البلد كلها .. انا ايضا اجد الكثير ممسا يستحق السخط .. لكنى لا احرق بلدى .. هل لديك فكرة عن الهبوط الذى تم في أسعار البورصة .. فظيع فظيع .. « بكلمات أخرى ... »

هكذا تستمر ستيفانى في الحديث . أحيانا يخفض صوتها الى درجة التحدث مع نفسها .. نادرا يرتفع الصوت الى درجة تتسع لسماع شخصين . ان صوتها لا يصل الا الى شخص واحد فقط . يادوب . ستيفانى لا تتحدث الا مع شخص واحد . ان الكلمة لا تخرج من فمها الا بعد اختيار ، بعد تفكير . اننى استطيع ان أشعر بأفكارها تدق في سرايينها . ربما هنا - هنا - تتميز ستيفانى عن بنات كثيرات في سنها . شكلها . الباقي تشترك فيه ستيفانى مع أى فتاة أمريكية تحت سن الثلاثين . انها مجنونة أحيانا . انها تكره الفقر ، تعشق الموسيقى ، تحب الراحة ، تريد الفخامة ، تحتفظ بقدميها على الارض دائما ، لديها حماسة رجل الاعمال ، تريد التملك ، انها تعرف أين تتجه . لا المشاكل ، ولا العقد ، ولا العقبات .. تستطيع أن تؤثر فيها . انها أكثر دقة من ساعة سويسرية ، أكثر سرعة من صاروخ . أكثر قوة من دبابة . أكثر عنادا من ثور .. ان ستيفانى تعمل لتعيش .. وعندما تعيش ستيفانى فيجب أن تكون للحياة عندها معنى .

ان معنى الحياة بالنسبة لستيفانى يتركز في أشياء قليلة : الملابس ، الكتب ، الراحة . النبيذ . الرقص . نعم الرقص انها تريد أن ترقص دائما ، حتى لو كانت مفلسة ، بل - خصوصا عندما تكون مفلسة .

« اننى اليوم جائعة جدا ، مفلسة جدا ! »

انها تقول ذلك ، ثم تبسّم . انها - بابتسامتها ، تبدو غير مبالية . جائعة ، ولكن ليست جائعة جدا ، مفلسة ، ولكن ليست جدا . قلت لها : حسنا - هذا معناه أن تبقى في المنزل الليلة ، على ساندويتش وفيلم في التليفزيون .

ان كل فتاة - خصوصا عندما تكون جائعة « جدا » مفلسة

« جدا » تفعل ذلك .. ولكن .. ليست ستيفانى . ان ستيفانى - حتى لو كانت مفلسة - تحب ان تسير، ان تمشي، ان ترقص ان ترى الناس .. انها لاتستطيع احيانا ان تواجه نفسها، فتفضل ان تواجه الناس . في هذه اللحظات يجب على ستيفانى ان تلوب . لكى تنسى ، لكى تضحك، لكى تتحرك ، يجب ان ترقص .

عندما ترقص ستيفانى فانها لاترقص بقدميها فقط ، ولا حتى بقدميها ويديها ، مستحيلة هذه الانانية على قدميها ويديها . عندما ترقص ستيفانى فان اشياء كثيرة ، فيها ترقص . كل شيء فيها يرقص . عندما اقول كل شيء أقصد كل شيء . عيناها، قدمها، يداها، وجهها، فمها، اذنانها، اصابعها . اظافرها . ان عقلها في هذه الحالة قائد اوركسترا ، وكل عضو في جسمها يرقص باشارة من قائد الاوركسترا ، كل عضو - حتى من غير اشارة - يعرف ان الرقص بالنسبة له هو السعادة ، الذوبان . النسيان .

في هذه اللحظات فقط تحس ان عقل ستيفانى ليس في راسها . انه في قدميها . وبمجرد ان ينتهى الرقص يعود العقل الى مكانه .. يعود الى راسها .

ان ستيفانى هي نموذج للفتاة الامريكية المعاصرة . الفتاة التى تعيش أسرتها في نيويورك ولكنها هي تفضل ان تعيش وحدها . تستاجر شقتها الخاصة في نفس المدينة بعيدا عن أسرتها . انها تعيش حياتها . انها حرة في حياتها . وتكن الحرية عنمتها المسئولية . لاقيمة للحرية بلا مسئولية . انها تستطيع ان تفعل أى شيء معك . تستطيع ان تعجب بك ، ان تحبك .. ان تقضى عطلة الاسبوع معك، ولكنها لاند ان تقتنع بك اولا كصديق .. قبل ان تفكر فيك كعاشق ، او حتى كزوج ، انها حاليا تفضل العمل على الزواج ، ولكن المجتمع لم يتهمها بالاستهتار . لا المجتمع ، ولا الناس ، ولا الاسرة .. يتهمونها بالعقوق او يطلقون على سمعتها الاشاعات .

ان ستيفانى تعمل عندما تصبح شخصا آخر .. ربما يكون رئيسها في العمل صديقا لها ، ولكن الصداقة شيء والعمل شيء آخر .. انك في المكب تجدها كاي رجل يعمل من الاثنين الى الجمعة . من صباح الاثنين الى مساء الجمعة هي شخص يعمل . يقرأ . ينام مبكرا .. حتى لاتتأخر عن عملها خمس دقائق . ان الاسبوع بالنسبة لها هو يومان فقط . من الاثنين الى الجمعة .. هذا يوم واحد اخر لاينفصل .. يوم من الراحة .. من الرقص ، اللهو ،

التسلية، الخروج بعيدا عن نيويورك، الاسترخاء على أنغام الموسيقى
ان هذه الفتاة ستيفانى - هذه الفتاة العاملة - تميز المجتمع
الامريكى ، واكثها ليست الشئ الوحيد المميز للمجتمع الامريكى .
هناك اشياء اخرى كثيرة مميزة . اشياء كثيرة، منها ثلاثة بالتحديد:
لعبة البيسبول ، سندويتش السجق ، والكوكاكولا .

ان البيسبول هى لعبة قومية امريكية يقدر ما الكريكت لعبة
قومية انجليزية . والبيسبول لعبة يمكن أن يلعبها أى عدد من
اللاعبين غالبا ، بأى أدوات غالبا ، فى أى مكان غالبا . ان عدم
النظام هنا كان بداية مهمة جدا للعبة . فأمريكا نفسها بدأت بلدا
بلا نظام على الاطلاق . . . وخلال الخمسين سنة الاخيرة فقط أصبح
كل شئ فيها يخضع للنظام . الفتيان والفتيات فى المدارس، رجال
الاعمال ، الاصدقاء ، والجيران ، والمستوطنون والقادمون الجدد،
النباتيون ، والمطابئون بمنع الخمسور ، وزراع الزهور ، هواة
الحدائق ، جامعو الطوابع ، وقراء الكتب، انه مجهود لاعطاء مظهر
الاستقرار لمجتمع بدأ بلا استقرار . مظهر من الثبات لمجتمع بدأ
غير ثابت . . . مجهود لخلق النظام فى مجتمع آمن طويلا بالفوضى .

ان الكاتب الانجليزى الراحل برناردشو زار امريكا فى سنة ١٩٣٣
وفى الزيارة خاطب الامريكيين فى إحدى محاضراته قائلا : انكم اذا
فحصتم الدستور الامريكى لوجدتم انه فى حقيقة الامر ليس دستورا
ولكنه تعهد الفوضوية ، انه ليس أداة للحكم . . . ولكنه بمنابة تعهد
للشعب الامريكى بأنه لن يحكم أبدا ، وهذا بالضبط ما يريد
الامريكيون . . . لقد أقمتم فى غمرة فزعكم من الدكتاتوريين وحكم
الديكتاتوريين مجتمعا، كل رئيس وردية فيه ديكتاتور، وكل ممول
ديكتاتور ، وكل صاحب عمل ديكتاتور ، ان كل هؤلاء الديكتاتوريين
يضعون حياة العمان ومعاشهم تحت رحمتهم تماما ، ولا يشعرون
بحق المجتمع الذى يعيشون فيه بأية مسئولية عامة . «

ان الفوضى اذن كانت - فهى الان تتراجع - من مميزات الشعب
الامريكى . الفوضى وسندويتش السجق والكوكاكولا .

فالرجل الامريكى عندما يدخل لا يطلب سوى الهامبيرجرا او
سندويتش سجق . سندويتش يفزع كل مصرى فى البداية من
مجرد اسمه ، ان اسمه هو Hot Dog أى سندويتش كلب
ساخن ! مع انه لا تدخل فيه أى قطعة من لحم الكلاب !
والرجل الامريكى سوف تجده دائما يكره الفلسفة . . . وياكل
سندويتش السجق . يلعب البيسبول . . . وياكل السجق . . .

يشاهد التليفزيون .. ويأكل السجق . يأكل السجق .. ويشرب الكوكاكولا .

ان الكوكاكولا في أمريكا ليست مجرد مياه غازية منتشرة . أنها أسلوب عمل . أسلوب تفكير ، تنظيم ، ترويج ، دعاية .. وحتى .. أسلوب استعمار جديد ! وعندما أناقشها الان بقليل من التفصيل فأننى أناقشها على هذا الاساس .

ان سكان العالم يشربون الان مائة مليون زجاجة كوكاكولا يوميا - انهم يشربونها في ١٣٨ دولة ، أى أكثر من عدد الدول الاعضاء في الأمم المتحدة ب ١٥ دولة ! لقد أصبحت أكثر السلع توزيعا في العالم كله . وإذا استخدمت الأسلوب الأمريكى في الكتابة فسوف أقول : اننا اذا وضعنا كل الزجاجات التى تم انتاجها من الكوكاكولا بجوار بعضها فأنها سوف تشكل حزاما يلف حول الكرة الأرضية ٣٥٠٠ مرة ، أو يصل الى القمر ويعود مائتى مرة . وإذا وزعت كل الزجاجات التى تم انتاجها من البداية على سكان العالم الان، فسوف يحصل كل شخص على ٢٢٠ زجاجة !

ان الكوكاكولا ليست أكبر شركة في الولايات المتحدة . انها الشركة رقم ٨٢ في ترتيب الشركات الأمريكية الكبرى ، رغم أن ممتلكاتها تزيد قيمتها الان عن أربعة الاف مليون دولار . الكوكاكولا ليست أكبر شركة أمريكية ، ولكنها نموذج لاسلوب العمل الأمريكى وهى - من زاوية اهتمامنا هنا - تصاح كنموذج لمقاييس المجتمع الأمريكى .

ان الأمريكى العادى قد يقول لك بكل فخر : أن مؤسس شركة الكوكاكولا جاء الى اتلانتا في البداية وفي جيبه أقل من دولارين . ولكنه حينما مات في سنة ١٩٢٩ ، كانت ثروته تساوى خمسين مليون دولار ، وأرباح شركته السنوية تقترب من ال ٢٥ مليون دولار ؛ ان أسائندلر - هذا اسمه - كان رجل أعمال . انه رجل أعمال على الطراز الأمريكى : يعبد الله ، وأمريكا ، والدولار ، والكوكاكولا !

هكذا يخبرك الأمريكى بفخر . فالأمريكى - في الحياة العملية - يبحث عن الوصفات الجاهزة التى تقدمها له ، وسائل الاعلان والاعلام للتجّاح . انه يمجّد الساعى الذى يصبح رئيسا للجمهورية ، راعى البقر الذى يصبح صاحب بنك ، الكاتب المبتدئ الذى يمتلك صحيفة ، الشحاذ الذى يصبح مليونيرا .

حسنا . دعنا نأخذ هذا الكلام على علاته . ودعنا نسلم انه في سنة ١٩١٩ كانت قيمة السهم في شركة الكوكاكولا أربعين دولارا ، بينما أصبحت الآن ٨٥٠٠ دولار .. وأن قيمة مبيعات الشركة

مسويا هي أكبر رقم في التاريخ (الف مليون دولار) ، أو ان أرباحها السنوية هي أكبر أرباح (مائة مليون دولار) .

بعد ذلك دعنا نبحث خلال شركة انكوكاكولا - عن ملامح التفكير الأمريكي ، والاسلوب الأمريكي في العمل عندما بدأ بانتاج الكوكاكولا (في سنة ١٨٩١) فان أول خمسين دولارا كسبتها الشركة في سنتها الأولى ، خصصت منها ٤٦ دولارا للإعلانات والدعاية . ان هذا يشرح جزئيا ظاهرة الكوكاكولا . فمادامت انها مشروب لا يمكن تحسينه ، فان الدعاية وحدها هي التي تستطيع ان ترفع المبيعات ، ولكن هذا يشرح أيضا دور الدعاية والإعلان في الاقتصاد الأمريكي ، ثم في الحياة الأمريكية كلها .

ان أهم قسم في شركة أو مؤسسة أمريكية هو دائما قسم الدعاية والعلاقات العامة . ان الايمان الأمريكي بفائدة الدعاية والعلاقات العامة في الاقتصاد هو بلا حدود ، وحتى السياسيون ونجوم السينما لهم وكلاؤهم المتخصصون في تنمية علاقاتهم العامة . . حتى الجامعات لها مكاتب علاقات عامة ، حتى الكنائس ، لها أساليبها هي الاخرى في الدعاية صحفيا واعلانيا .

والكوكاكولا ليست مجرد شركة تنتج الكوكاكولا . انها شركة تعمل عددا ضخما من البرامج الرياضية ، نوادي الشباب ، والافلام التعليمية والثقافية التي تعرض في الكنائس والمدارس ، كل هذا جميل وبرىء في حد ذاته ، ولكن هذا لا يتم ابدا لوجه الله أو للثقافة . انه تنشيط مبيعات . . انكوكاكولا تنتج لك فيلما سينمائيا عاليا ، أو تمويل برنامجا تليفزيونيا ، أو تطبع كتابا ثقافيا لشيء الا تكي تعرض لك في كل موقف - وبشكل يبدو عارضا - تلك الزجاجة المشهورة التي تشربها امرأة - نادرا رجل - تبدو عليها السعادة ! بهذا الاسلوب تعمل الشركات الأمريكية برامج التليفزيون والاذاعة والصحف والافلام .

ولكن الدعاية وحدها لا تكفي . فالانتاج معرض للتقليد ، والنجاح معرض للتقليد ، لهذا فان أهم عمل قال هو حماية الانتاج من التقليد حماية سر المهنة سر الانتاج . لهذا فان معظم الشركات الأمريكية تضم أقسام مخابرات خاصة بها للتجسس على الشركات الاخرى المنافسة وحماية منتجاتها من التقليد ، ان القانون يحمي كل سر انتاج مسجل من التقليد ، ولكن القانون وحده لا يكفي في أمريكا . هناك دائما أسرار انتاج ، وابحاث لتطوير الانتاج ، لا بد ان تعمل الشركة نفسها لحمايتها من التسرب .

وفي حالتنا السابقة مثلاً - شركة الكوكاكولا - نجد ان تركيب الكوكاكولا يمثل واحداً من ادق الاسرار الصناعية في العالم . ان ١٤ من ال ١٥ مادة التي تدخل في تركيب الكوكاكولا معروفة فعلاً، سكر مكرر ، كرملة، كوكا ، كولا ، قرفة ، جوزة الطيب ، عصير ليمون . فانيليا ... الخ ..

ولكن المادة الخامسة عشرة لا يعرفها أحد . مادة تسمى V اكس 7 مادة لم يعرفها في الشركة كلها طوال عمرها اكثر من ثلاثة ولا اقل من شخصين . انهم لا يسافرون معاً واحياناً لا يعرفون بعضهم !!

ان الاحتفاظ بسر الانتاج هو أمر مهم للانتاج في امريكا اذن ، ولا شيء يأتي بعد ذلك سوى المنافسة . منافسة قاتلة . ان قواعد اللعبة معروفة مقدماً ، واللاعبون لا يرحمهم أحد . من الممكن ان تنجح شركة اليوم ، وتفشل غداً . اذن : تفلس الشركة ، وتخرج من حلبة السباق !

واذا عدنا الى نموذجنا السابق - شركة الكوكاكولا - فانتفا سوف نجد انه بعد كل هذا النجاح ، فان الشركة تعرضت لازمة نفسية ضخمة في اوائل الخمسينات ، كانت الشركة في ذلك الوقت تنتج سلعة واحدة هي الكوكاكولا ، في الحجم التقليدي للزجاجة المشهورة ، ولكن فجأة ، بدأ نصيب الكوكاكولا من مبيعات السوق يتناقص .. لقد أصبح مشروب آخر - هو البيبسي كولا - منافساً خطيراً ! عند هذه النقطة قررت الشركة ان تلغى سياستها المطبقة طويلاً في التركيز على انتاج سلعة واحدة . قررت ان تعبئ الكوكاكولا في احجام اكثر تطوراً . خطوة قررتها الشركة سنة ١٩٥٤ بعد هذه الخطوة فقط ، بعد هذه الابحاث فقط على ذوق المستهلك - قفزت الشركة مرة أخرى الى الامام حتى أصبحت تنتج الان ٢٥٠ سلعة أخرى غير الكوكاكولا ، في خمسمائة عبوة مختلفة . ان البيبسي كولا تباع الان في امريكا اقل من نصف مبيعات منافستها، ومع ذلك فان وجودها في السوق - مجرد وجودها أعطى للكوكاكولا درساً لا تترك للكل مرة أخرى .

ان المجتمع الأمريكي يستطيع ان يتحمل منك اشياء كثيرة، الا الكسل ، هذه قواعد اللعبة ، بمجرد ان دخلت ميدان التجسار والاقتصاد ، فقد أصبحت خاضعة للعبة . بمجرد ان تصبح رجل أعمال على الطراز الأمريكي - فلن تستطيع مطلقاً التأكد من غناك او فقرك الا اذا دقت النظر كل يوم في ارقام البورصة . من الممكن

ان نكون غنيا في لحظة وفقيرا في اللحظة التالية . قلت هذا من قبل .. ان ممارسة البورصة لا يحكمون على الصحة الاقتصادية للمجتمع بكمية المحاصيل في المزارع ، اوراق الانتاج في المصانع .. ولكن بما تم اثراهم عليه في البورصة، شيء تمت تربيته وزراعته في الشخصية الأمريكية نفسها .

واذا دخلت اى مكتب في هذه الشركة ، او في اى شركة اخرى .. فان قواعد اللعبة سوف تتضح لك اكثر واكثر . ان المدير في داخل اى قسم من اى شركة وظيفته ان .. يدير ، ان سلطته واسعة وفراراته سريعة . ان عليه ان يتصرف كما لو كان سيصبح رئيسا لشركته غدا . الوافع ان كل موظف مطلوب منه ان يتصرف كما لو كان سيصبح رئيسا لشركته غدا . لانه لو آمن بذلك .. فانه سيتعلم دائما ، وينمى مواهبه دائما ، ويحصل على برامج تدريب جديدة دائما . باختصار : انه لن يصبح رئيسا للشركة . لا اليوم ولا غدا ، ولكن عليه دائما ان يكون جاهزا لهذه المهمة . لهذا السبب فان من الممكن ان يفصل الموظف - يفصل المدير نفسه - في لحظة ، لانهم وجدوا مديرا اكفا منه . لقد سئل احد المقامرين مرة : ماذا تفعل اذا ضببت امامك لاعبا يغش في اوراق اللعب ؟ فاجاب المقامر : ماذا افعل ؟ اراهن عليه بكل تأكيد !

حسنا . هذا هو نفس الاسلوب الذى يدار به العمل في اى شركة هنا . ان مكافأتك جاهزة فورا عندما تمتاز ، ولكن عقوبتك جاهزة ايضا عندما تهمل . ثم ان الامتياز ليس هو المطلوب فقط ، ولكن الموظف مسئول عن المحافظة على سمعة الشركة ايضا ، ومسئول عن اعطاء كل دقيقة من وقت العمل للشركة .

عندما تدخل مكتبا - اى مكتب في اى شركة - فانك .. لا مؤاخذه .. لن تجد شخصا يدخل الى مكتبه بعد موعد العمل بربع ساعة او حتى بخمس دقائق . لن تجد موظفا يشرب شاي او قهوة ، يرش في التليفون ساعة ، يقترض جريدة من زميله ليتسلى ، يحكى لزميله مشكلته مع زوجته امس . لن تجد واحدا ينقطع فجأة عن العمل ، او يطلب اجازة مرضية ، او يقترض سلفة من المرتب . لن تجد كرسيًا تستقبل عليه ضيفا . لن تجد ساعيا تعطيه بقشيشا لاحضار الغداء .. بعد هذا لن ترى موظفا يقف لرئيسه عندما يدخل المكتب ، او ينحنى له عندما يتحدث ، او يقول له : افندم او « حاضر يا بك » اذا زاد احترامه لرئيسه عما يجب فهذا ضعف في الشخصية ، اذا تلعثم في شرح افكاره فهذا معناه

ان تفكيره مضطرب - ان الكلام الواضح دليل على تفكير واضح ، اذا انتهى عملا بعد موعده فهذه عدم كفاءة . اذا عمل سكرتيرا فيجب ان يرد على التليفون ويأخذ الرسائل ويكتب على الآلة الكاتبة . ان الشركة ، المجتمع ، الناس ، يتوقعون منك ان تكون منطقيا . . . بسيطا . . . كفئا . . . مشغولا بالمستقبل ان حافظك هو السلطة والثروة . ان عينيك تريان كل شيء كأدوات تساعدك في المنافسة على السلطة والثروة . انك مسئول عن البحث لنفسك باستمرار عن عمل احسن ومرتب اكبر .

وحيثما تحصل على عمل في شركة اخرى ، فان الشركة الجديدة تسألك عن خبرتك ، وتسألك ايضا : لماذا تركت العمل في آخر شركة . انهم سيقبلون كلامك كما هو ، خلال يوم واحد سيتأكدون من صحته . فكل شركة مستعدة لاعطاء الشركة الاخرى اى بيانات عن عملك وسلوكك وكفاءتك . وكل شيء ماعدا مرتبك .

ان الصدق يأتى فى الترتيب بعد الكفاءة فى العمل . . . شرطان ضروريان لنجاح الادارة ، اى ادارة . ان امريكا كلها هى تنظيم . هى ادارة . هى علم تنظيم الادارة . . . هنا فى امريكا . سوف تحصل على الاحساس ان تاريخ الحضارة كلها هو مجرد تاريخ شركة جنرال موتورز ، او بنك تشيز مانهاتن . انه تاريخ اى شركة او بنك . !

ان هولندا هى يقال اوربا . . . والمانيا هى مصنع اوربا . وفرنسا هى كوافير اوربا وسويسرا هى مصحة اوربا . واسبانيا هى ملهى اوربا . . . واليونان جرسون اوربا . وايطاليا مطعم اوربا . . . ولكن هنا . . . فى امريكا . . . سوف نحس ان هذا البلد هو بنك العالم !

عندما يصاب بنك فى هذا البلد . . . تتلوى امعاء رجل الشارع فى امريكا ! فاسلوب العمل كله ، اسلوب الادارة كله ، هو اسلوب بنك . . . نظام بنك . . . ان اى بنك يعتمد على : سمعة ، سرعة ، ثقة يستطيع ان تأخذها قرضا من اى بنك بغير اى ضمان . . . ولكنك لو تأخرت مرة فى السداد فسوف ترفض كل البنوك بعد ذلك التعامل معك !

ان هذا الاسلوب فى العمل له ضرورته ، البعيدة فى الشخصية الامريكية نفسها .

ان هذا البلد - امريكا - قد عمره واستوطنه فى البداية اناس لم يكونوا ناجحين فى مواجهة الظروف الاجتماعية ببلدهم الاصلى ، او كانوا يعتقدون بانهم يستحقون نجاحا أكثر . انهم فروا من تلك

الظروف املا في حياة احسن . لقد جاءوا يبحثون عن تعويض
لحرمان سابق تعويض يبحثون عنه في اقل وقت ، وبأى ثمن .

هذه العملية في حد ذاتها أدت الى بقاء نوع معين من الاشخاص
.. نوع هو الذى يستطيع ان ينجح ويستمر حتى الجولة الاخيرة
يخضع لعملية انتقاء واختيار بجريها المجتمع يوما بعد يوم . نوع
من الاشخاص له مميزات الايجابية .. وعيوبه السلبية ، انه
مجتمع من المهاجرين .. من العطشى .. عطشى للنجاح ، للنقود
للتفكير ، للتقدم ، هذا معناه ان من يستطيع ان يبقى في السباق
هو فقط من لديه كمية هائلة من النشاط ، الطموح ، الحركة ،
والتفاؤل .

ولكن هذا له جوانبه السلبية ايضا . فاذا كان المجتمع الأمريكى
قد كسب الشخص الجرىء والنشيط ، اذا كان قد كسب نصيب
الاسد من شخص ، فانه قد حصل ايضا على شخص بلا حذر ..
شخص طموح - نعم .. ولكنه يؤجل عواطفه دائما . تفاؤل -
نعم ، ولكن النقود عنده اهم من العواطف ، الرحمة عنده اسوأ من
الفشل ، الفشل أسوأ من الموت ، شخص .. العطف عنده ابراف
.. الوسط . عند فشل ، الهدوء مصيبة ، الجمود تأخر ، والفقر
جريمة ، جريمة شخص لاجريمة مجتمع .

لقد أدى هذا المناخ مهمته . أصبحت أمريكا اقوى دولة اغنى
دولة ، اكثر دولة تقدما . لقد أصبح البطل الجديد - المعبود
الجديد للمجتمع الأمريكى ، هو الدولار ، رجل الأعمال ، صاحب
البنك ، عملاق الصناعة ، لقد خرج رأس المال الأمريكى خارج
الحدود ، يستثمر في أوروبا ، يستثمر في آسيا . ويشترى انزعاء
السياسيين في « جمهوريات الموز » أمريكا اللاتينية .

ولكن من ناحية أخرى - لم يتوقف تأثير هذا المناخ عند هذا
الحد . لقد امتد ليخلق في المجتمع الأمريكى شياطين أخرى كثيرة
.. التوتر ، العنف ، العنصرية ، العواطف الميكانيكية ، السرعة الجنونية
« لقد أصبحت أمريكا مجنونة » .. هذه جملة تقليدية نسمعها
باستمرار في أوروبا كتعبير عن رأى الاوربيين في حماقة الأمريكين
أحيانا .. لاشيء يبتسم منه الأمريكيون قدر هذه الجملة !

ولكن الحماسة لها جمهور في الولايات المتحدة . اننى لا اريد ان
أصدر احكاما ضد المجتمع الأمريكى لانها في النهاية سوف تكون
احكاما اخلاقية . في الواقع ان الشخص الأمريكى العادى يتمتع
بصفات كثيرة تسحق الاعجاب والاحترام والفهم ولكن المسألة

هى انك لا تستطيع ان تأخذ فكرة كاملة عن أى مجتمع من خلال انجازات المجتمع الأمريكى يراها كل الناس ابتداء من العقل الالىكترونى الى الهبوط على القمر ان الفكرة عن أى مجتمع لا تكون كاملة .. الا اذا تضمنت أيضا شرحا لجروح هذا المجتمع . ان اول هذه الجروح هو العنف .. انتشار العنف . فمنذ سنة ١٩٠٠ قتل فى أمريكا ثمانمائة الف شخص - أى اكثر من قتلها فى الحرب العالمية الاولى ، والحرب العالمية الثانية ، وحرب كوريا ، وحرب فيتنام .. معا .. !

لقد اغتيل اربعة من رؤساء امريكا ال ٣٧ لينكولن ، جارفيلد ، ماكينلى ، وكينيدى ، وتعرض للاغتيال ثلاثة اخرون : روزفلت - ترومان ، نيكسون .

والسبب فى هذا كله بجده فى طبيعة وتكوين المجتمع الأمريكى نفسه . ان التاريخ الأمريكى يبين لنا ان التغيير فى أمريكا يكون دائما بانغ العنف . فالمجتمع الأمريكى مجتمع عنيف ، ولد فى عنف ، وتطور اعنف ، وآمن بالعنف ، وعاش ليبنى الثمار المرة للعنف . وفى القرون الخمسة التى مرت على اكتشاف « كولومبوس » للدنيا الجديدة كان العنف جزءا من الحياة الأمريكية كان هناك عنف الغزو والقاومة ، عنف التفرقة العنصرية ، عنف الحرب الاهلية ، عنف المجرمين والعصابات ، وقطاع الطرق ، عنف شريعة اثنار .. ثم كل هذا معا ضد عنف العصابات .. وعنف المدنية ..

وتستطيع ان تلمس هذا العنف فى الافلام الأمريكية نفسها . ان أبطال الشاشة الذين يصفق لهم الجمهور الأمريكى هم هؤلاء الذين تراهم دائما مشغولين بكيل اللكمات للناس فى وجوههم عندما لا يكونون مشغولين بتقبيل البطلة . أو البطلة التى تصفع البطل .. فيقبلها هو فى اللحظة التالية ..

ان المجتمع الأمريكى كان يحتفظ بالعنف دائما كوسيلة اخيرة لتصفية خلافاته وانقساماته .. انه مجتمع يعلم انه من البداية منشق على نفسه .. انه يعلم ان أمريكا نفسها قد ولدت فى لحظة الشقاق ، والجمهورية ولدت فى لحظة الشقاق ، وان كل رائد حمل عصاه على كتفه وتوجه الى أمريكا بثقة فى المستقبل فصل ذلك فى لحظة انشقاق على ماضيه .

وهذا الانشقاق نتبينه اليوم فى مظاهر كثيرة فى الحياة الأمريكية . انشقاق مع خيبة أمل .

ان اليمين الأمريكى مصاب بخيبة أمل : ان هزائم أمريكا فى العالم

تزايد يوما بعد يوم خارجيا ، والسود ينتصرون في مقاومتهم
للتفرقة العنصرية محليا .

واليسار الأمريكى مصاب بخيبة امل : أمريكا تتحول بسرعة الى
مجتمع بوليسى ، والاحزاب الأمريكية اثبتت أنها ضد أى تغيير
جندى .

البيض مذعورون من اصرار السود على المساواة الاقتصادية
والاجتماعية .

والسود مذعورون من شراسة الرجل الابيض في التمسك
بالتفرقة العنصرية .

الجيل القديم يريد الاستمرار في الحكم والسلطة ، برغم كل
الكوارث التى سببها لأمريكا خارجيا ، وبرغم كل جهوده لاسكات
الاصوات المعارضة داخليا . انه جيل بلا مبادئ ولا اخلاق ولا مثل
عليها . ومع ذلك فهو أعلى الاجيال صوتا في التشدد بالاخلاق
والمثل العليا .

والجيل الجديد هو الجيل النظيف الشريف في أمريكا . انه
يواجه الجيل القديم بمطالبه : قوة اقل ، وشرف اكبر ، تورط
اقل . ومبادئ اكثر . انه لا يريد لأمريكا أن تكون رجل البوليس
في العالم . يريد هامة مجموعة من المثل والمبادئ والتقدم بغير عجرفة،
والقوة بغير عنجهية بغير غرور .

وكل فريق من هؤلاء يحتفظ بالعنف كوسيلة اخيرة لتسوية
خلافاته وحساباته مع الفريق الاخر وحتى حينما يتحرك المجتمع
الامريكى ضد العنف .. فانه أيضا يتحرك بعنف . ان رد الفعل
يكون متطرفا .. عنيفا .. جامحا . رد فعل تستطيع أن تلمسه في
جميع الانتخابات التى جرت في أمريكا خلال السنوات الاخيرة .
ففى كل انتخابات الرئاسة يتحرك اليمين الأمريكى بشراسة حاملا
شعار « محاربة العنف » او شعار « محاربة الجريمة » .

لقد كان بارى جولد ووتر مرشح الحزب الجمهورى للرئاسة
سنة ١٩٦٤ رمزا لهذه الظاهرة في انتخابات تلك السنة .

كان الشعار بالنسبة له سنتها هو « الجريمة في الشوارع » .
وفى انتخابات الرئاسة سنة ١٩٦٨ - التى حضرته وشاهدها
عن قرب - رشح اليمين الأمريكى مرة اخرى جورج والاس . لقد
اعطى والاس للقضية اسما جديدا هو « اقرار النظام والقانون » ان
ال ٢٧ مليون صوت التى حصل عليها جولد ووتر فى سنة ١٩٦٤ ،
كانت هى نفسها نقطة البداية بالنسبة لوالاس سنة ١٩٦٨

والواقع أن جولد ووتر وولاس هما شخصيتان تقليديتان في السياسة الأمريكية .. تقليدية كشخصية العم سام . انهما عبارة عن مزيج من الايمان بالترفة العنصرية والعداء نحو المثقفين . وهذا المزيج ليس جديدا كظاهرة عامة في السياسة الأمريكية .. ففي الخمسينات كان هناك مكارثي الذي قاد حربا مروعة ضد المثقفين الأمريكيين بحجة محاربة الشيوعية في أمريكا . ان مكارثي كان نتيجة للتورط الأمريكي في حرب كوريا .. وكان ايضا رمزا لسقوط وتدهور الحزب الديمقراطي .

وفي انتخابات عام ١٩٦٨ كان جورج والاس هو نتيجة للتورط الأمريكي في حرب آسيوية أخرى : حرب فيتنام ، نتيجة لتدهور نفس الحزب : الحزب الديمقراطي .

ان مكارثي وجولد ووتر ووالاس، يعبرون اذن عن ظاهرة مستمرة في السياسة الأمريكية والمجتمع الأمريكي، لهذا فان ظهورهم على المسرح لا يشير تساؤلا ما ، ولكن ما يجب أن يثير الاهتمام هو التعرف على القوة التي تختارهم للتعبير عنها .

لقد حاولت أن اتعرف على هؤلاء الناس حينما ذهبت الى أمريكا لأول مرة سنة ١٩٦٨ ، وحضرت انتخابات الرئاسة وقتها . لقد اردت أن اكتشف من هم المؤيدون الذين يعبر عنهم والاس . حسنا .. لافز هناك .

انهم - كما اكتشفت - هم جزء هام من الشعب الأمريكي . طبقة تقع في اسفل الطبقة الوسطى . ناس يعملون بأجسادهم ، يفكرون بأيديهم ، يدفعون اشتراكات لنقابات لا تهتم بهم .. ناس يسوقون تاكسيات او يخدمون في بار . ناس ينهبون للصيد مع أطفالهم في الاجازات . ناس يناولون أطفالهم الى زوجاتهم بينما يصفقون لرشحيهم ، انهم يتحدثونك عن دنيا مليئة بالاعداء طلبة ، شيوعيون ، صينيون ، النيويورك تايمز ، فيدل كاسترو، الروس ، نيويورك ، السود ، مدخنو المخدرات .

انها دنيا غريبة ، مليئة بالمدعورين والخائفين . المدعورين من الهزيمة الأمريكية في فيتنام . المدعورين من اصرار السود على المساواة بهم . المدعورين من مطالبة الفقراء بنصيب في الثروة . المدعورين من سعى الطلبة لنصيب في السلطة .

ان نموذج هؤلاء المدعورين هو الرجل الذي « ليس شابا » ليس اسود . ليس فقيرا . هذا النموذج يعيش في منزله الخاص ، لديه سيارة ، عليه قرض ، يؤمن بأن الضرائب التي يدفعها مرتفعة

وان الفقير يريد الحصول على شيء مقابل كسبه وان السود يريدون اكثر مما يستحقون . ان دنياه مليئة بالخوف اكثر ما هي مليئة بالكرهية ولكن فيها من الكراهية مايكفى لجعلها خطوة . انه يريد التغيير . لهذا يعتمد على اليمين المتطرف في اجراء هذا التغيير . يعتمد على جولد ووتر ووالاس لمجرد انهما يقولان له ان التغيير بسيط . فقط غير الرجل الذي في كرسي الرئاسة فيعود المجتمع الامريكى الى سنة مثل سنة ١٩١٠ . انهم يقولون له ان ثورة السود في أمريكا غير موجودة !

يكفى القمعياء مزيد من القنابل ، يقولون له ان حرب فيتنام غير موجودة . يكفى ان تسقط أمريكا عددا كافيا من القنابل خارجيا ، وتسكت كل الاصوات المنشقة داخليا . . ثم يأتى النصر . يقولون له ان اى معارض لحرب فيتنام يجب «محاكمته» بتهمة الخيانة بعد جرجرته من شعره علنا امام المحكمة ، وكل متظاهر يجب ان تدوسه سيارة البوليس . انهم يقولون له - باختصار - ان مشاكل المجتمع الامريكى المعاصر لاتمثل فى الواقع اية مشكلة . انها جميعا ممكن حلها بتعيين مزيد من رجال البوليس وانتاج مزيد من القنابل بعدها يمكن للمجتمع الامريكى ان يعود الى سنة ١٩١٠ ، حينما كان هناك حصار فى الشتاء ، وولائم فى الربيع ، حينما كان الاطفال يذهبون الى السباحة فى البحيرات ويلعبون كرة القدم ويعبدون الله ويحترمون والديهم والدولار وامريكا . ان معظمهم يريد ان يعود الى زمن فى أمريكا كان يعيش فيه فى نفس المنزل طول عمره ، ولا يعرف كل شخص يقابله فى الشارع . زمن لم تكن فيه فيتنام ، الصين ، الاتحاد السوفيتى ، الشيوعية ، الطلبة . انهم - كمريض فى مستشفى - لا يسألون انفسهم ابدا . . هل فيتنام تنتمى لامريكا ؟ اهل هى مهمة لها ؟ ليست واحدة من الاسنان المؤلمة للشعب الامريكى التى يجب خلعها ؟ . . ابدا . انهم فقط يرددون لك حجة واحدة : « لقد فقدنا الصين من قبل . . ولن نفقد فيتنام الان » . يقولون لك ذلك كما لو كانت الصين ولاية امريكية . كما لو كانت الحرب الاهلية الطويلة التى عاشتها الصين لتحرير نفسها هى مجرد مباراة كرة .

هؤلاء هم الملايين التسعة الذين اعطوا لجورج والاس سنة ١٩٦٨ والملايين ال ٢٧ الذين اعطوا اصواتهم لجولد ووتر سنة ١٩٦٤ ، هؤلاء هم الذين سوف يستمرون - مع انهم يتناقصون - كقوة ضاغطة فى السياسة الامريكية لسنوات طويلة مقبلة . انهم يريدون

حرباً مقدسة ضد كى شىء فى العالم يختلف مع الاسلوب الأمريكى فى الحياة .

هؤلاء هم الذين تنبأ بهم معلق أمريكى - جون فريمانك - سنة ١٩٤٧ ، حينما كتب معلقاً على موجة طاغية وقتها ضد الشيوعية : « ان خوفنا من الشيوعية سوف يستمر فى الایماء لنا بسياسات عدوانية معادية للشيوعية فى اسيا وكل مكان آخر ، وسوف ينتقد الشعب الأمريكى الى ان يفكر - وربما يعتقد حقاً - ان مساندة الحكومات المعادية فى اسيا هى بشكل ما دفاع عن الاسلوب الأمريكى فى الحياة . ان هذا اخطر من السياسة الأمريكية الى ان تقيم نظاماً تحاول اخماد الحركات الشعبية فى اندونيسيا والهند الصينية ، والفلبين ، والصين ، وهكذا . . بعد الوقوف لمحاربة الشيوعية فى اسيا ، سوف يضطر الشعب الأمريكى فى النهاية الى محاربة شعوب اسيا .

ان هذا الخوف الذى تنبأ به المعلق الأمريكى بآثاره المدمرة مبكراً فى سنة ١٩٤٧ هو الذى جعلنا نفهم عودة اليمين الأمريكى الى العنف عقب كل فترة من الهدوء ، ان مكارثى وجولد ووتر ووالاس لم يكونوا اذن سبباً فى هذا المرض الأمريكى ، ولكنهم كانوا واحداً من اعراضه .

ان المرض الحقيقى بعد ذلك فى المجتمع الأمريكى هو التفرقة العنصرية فحتى الان - حتى هذه السنة - مازال الأمريكى الاسود يعيش فى اجزاء كثيرة من امريكا كمواطن من الدرجة الثانية . فى الوظائف ؟ آخر من يعين واول من يفصل . فى البطالة ؟ فرصة تعطله هى فرصة الرجل الابيض فى الاجور ! اجرد هو نصف اجر الرجل الابيض . فى نيويورك يعيش منفاً فى حى خاص به هو حى هارلم .

ان حى هارلم فى نيويورك مشهور بأنه حى الزنوج ، ولكنه فى الواقع ليس اكثر احياء السود بؤساً . ان هذا « الشرف » تحظى به احياء اخرى كثيرة غير حى هارلم . اما حى هارلم فهو العاصمة الزنجية ، مثلما نيويورك هى العاصمة الأمريكية غير الرسمية . ان الاحصائيات تقول ان ٥٠ ٪ من الاسر الزنجية هنا يقل دخلها السنوى عن اربعة آلاف دولار ، بينما تنخفض النسبة الى ٢٠ ٪ فى الاسر البيضاء .

ولقد كان الرئيس الأمريكى الراحل جون كينيدى يقول مستنكراً : ان العنصر الأمريكى الاسود - بصرف النظر عن مواهبه - لديه

احصائيا نصف فرصة الطفل الابيض في التخرج من مدرسة عليا، ثلث فرصته في التخرج من كلية ، ربع فرصته في الحصول على وظيفة ، وأربعة أضعاف فرصته في التعطل .

ان هذه المشكلة هي التي جعلت أمريكا من البداية بلدا منقسم الشخصية ، هناك دائما أمريكا البيضاء ، وأمريكا السوداء . ان أمريكا لم توقع الهدنة قط بين هاتين الصورتين المتعارضتين . وأحيانا - كما حدث مرة من قبل أثناء الصراع المرير بين الشمال والجنوب - وصل هذا الصراع الى قمته في الحرب الاهلية . حرب كانت تمثل نقطة المواجهة بين الأمريكتين .

ان تاريخ أمريكا كله ليس الا تاريخا لمحاولات التوفيق بين هاتين الأمريكتين : أمريكا البيضاء ، وأمريكا السوداء . انه توفيق لا يتم ، وصلاح لا ينعقد .. لانه يتحرك على أساس اقتصادي . فما دام الأمريكي الاسود هو الاضعف اقتصاديا فانه لن يحصل ابدا على المساواة الكاملة مع الأمريكي الابيض . مادامت جرائم المرض حية .. فان اعراض المرض مستمرة .

بل ان اعراض هذا المرض نفسه امتدت لتصيب قطاعات أخرى كثيرة في المجتمع الأمريكي ؛ ان الجيل الأمريكي الجديد - في نوبة من الاحتجاج الاخلاقي ضد امراض المجتمع الأمريكي - بدأ يحمل لواء المعارضة ضد هذه الامراض - انه كما قلت من قبل - يريد لامته الشرف حتى بغير قوة . . بعد ان أصبحت أمريكا قوة . بغير شرف . انه يتساءل دائما « لقد غزونا الفضاء ماذا عن الجوع؟ » ويتساءل ايضا « اننا نتحمل أعداءنا .. فلماذا لا نتحمل انفسنا .. لماذا لا نستطيع مائتا مليون أمريكي ان يتحملوا بعضهم ؟ » .

انه جيل جديد يريد ان يفصل قاذورات اليمين الأمريكي . جيل متنبه لامراض مجتمعة ، متطلع لعلاجها . هذا هو الجيل الذي وقف بقوة ضد رئيسه حينما قرر غزو كمبوديا نفسها ، جيل يعرف المشكلة .. ولكن ردود فعله تختلف كثيرا في مواجهة هذه المشكلة .

ان بعضهم - بعض الشباب الأمريكي - يخرج في مظاهرة ، وبعضهم يتحول الى هيبيز كما يسمونه في أمريكا . ان حركة الهيبيز انتشرت بين الشباب الأمريكي - المتعلم بالذات - ويهتمونها هنا في أمريكا بالانحلال وبعدم ايمانهم بالقيم التي تعارف عليها المجتمع الأمريكي . وانا ضد هذه النظرة السائدة في بلاد كثيرة - ومن بينها

مصر - التى ترى حركة الهيبيز فى هذا الاطار .. الاطار الذى يعتبرها حركة انحلالية كل مقوماتها تعاطى المخدرات واطالة الشعر وممارسة الجنس ، ان هذه المظاهر صحيحة .. نعم . ولكنى اختلف فى تفسيرها .

ان هذه الحركة هى وجه آخر للتفسخ الذى يشعر به الجيل الأمريكى الجديد . يجب أن نفهم أولا ان هؤلاء الهيبيز هم أولا ساخطون ثم بعد ذلك نختلف معهم فى كل شيء . نختلف مثلا فى ان الفرد حينما يسقط نفسه من المجتمع - فتعاطى المخدرات هو سقوط من المجتمع - فانه بذلك لا يحل مشكلة ، ولكنه يخلق مشكلة . انه لا يقدم حلا .. ولكنه يمارس حلا سلبيا اذا كانت السلبية حلا على الاطلاق . ان الهروب ليس حلا ، الفرار ليس حلا ، الغياب عن الوعى ليس حلا . انه فقط .. غياب عن الوعى .. عن الواقع . عن الحقيقة . انه يعتبر الدوس هسكى - مجرد « اجازة كيميائية » يأخذها الفرد من الواقع .

x x x

لقد حاولت مرة ان ادخل الدنيا التى يعيش فيها هؤلاء الهاربون من الواقع . هؤلاء الهيبيز ! كنا فى نيويورك . مجموعة من الشباب فى هذه الشقة . خليط مشترك من الشبان والشابات . بعضهم طويل الشعر ، بعضهم عارى الصدر ، بعضهم كثيف الشارب ، كلهم يحمل الماريجوانا !

ان الماريجوانا هو النوع المنتشر حاليا من أنواع المخدرات فى امريكا . ان « تعميرة » الماريجوانا التى توضع فى سيجارة واحدة ملفوفة تتكلف ٧٥ سنتا ، ستين قرشا بسعر السوق السوداء فى القاهرة ، خمسة وثلاثين قرشا بالسعر الرسمى .

ولكن السجائر ليست هى الوسيلة الوحيدة لتدخين الماريجوانا .. لقد اخترت وسيلة أخرى عندما دعيت الى هذا الحفل : « جوزة » نعم « جوزة » كالتى يستعملها أى حشاش ، بعد اضافة التكنولوجيا الأمريكية اليها . انها بعد هذه الاضافة - لم تبقى جوزة تماما ، لقد أصبحت دورقا زجاجيا بأنبوبة عند الرقبة . أنبوبة يتفرع منها خرطومان . خرطوم لك ، والثانى لفتاتك ، او زميلك فى التدخين ، داخل الاناء الزجاجى خليط من الخمر او أى خليط آخر يختاره المدخنون . بعد ذلك معروف : الدخان ، الماريجوانا ، النار ، التدخين .

كانت التجربة جديدة بالنسبة لى . تجربة ترددت فيها اكثر

من مرة ، الى ان هزمنى حب الاستطلاع فى النهاية ، وها انا الان فى وسطها . قبل ان يبدأ التدخين .

عندما تدخن الماريجوانا - هكذا قالت لى الفتاة المثقفة بجانبى - امسك بهندة .

ماهندة ؟

- هذه انبوبة تنظر منها الى الشقة والناس والاشياء من خلالها . انبوبة ترى من داخلها الشئ الواحد مضروباً فى ستة . الكرسى تراه ستة . الوجوه تراهم ستة .. وهكذا ! صندوق الدنيا .. معين !

ثم .. « أستمع الى هذه الموسيقى .. سوف تكتشف الان ان الموسيقى قد بدأت فجأة تصبح اكثر عظمة . موسيقى الخنافس .. انظر الى الانبوبة .. تأمل فى رأسك . تحول الى النافذة ... انظر الى السماء .. ان الشمس الواحدة فى السماء سوف تراها شمسين ، القمر قمرين ، النجمة نجمتين ، و .. و .. و .. »

ولم اشعر بشئ من هذا كله . كان الصداع فى رأسى اكثر وجوداً من اى شمس أو قمر فى السماء .. صداع ، صداع ، صداع ، ثم رغبة فى القىء .. ولكن ، لاشئ من المتعة ، لاشئ من اللذة لاشئ حقيقى من هذه الاوهام ، هذه الاجازات الكيميائية . كل شئ خرج من رأسى ماعدا حقيقة واحدة : ان هؤلاء الهاربين من الواقع ، ليسوا ظاهرة منعزلة .. ولكنهم يمثلون عملية سقوط سلبى من المجتمع . هؤلاء الهاربون مؤقتاً . تقدرهم مجلة « تايم » الامريكىة بمثيرين من الشباب .

x x x

ولكن الشباب الامريكى ليس كله من هؤلاء . ليس - حتى - معظمه . ان معظمه اكثر ايجابية وتنبها للواقع . انهم يريدون تصحيح الاخطاء الضرورية فى المجتمع الامريكى . انهم - مثل جميع حركات الشباب فى العالم - حركة لم تقدم البديل للامر الواقع . ان كل ما هو موجود هو فى رأيهم موجود بخلل . حسناً . ولكن ما هو البديل ؟ هذا السؤال ليس من مهمة الشباب الاجابة عليه - انهم - بحكم سنهم المبكرة وخبرتهم المحدودة - يعرفون فقط ما يقفون ضده . ولكنهم لا يحتفظون بصورة واضحة الملامح لما يقفون من أجله ليس هذا خطأ ، ليس هذا عجزاً . هذا شباب .

ان الامل الوحيد لتصحيح المجتمع الامريكى هو الشباب الامريكى .. انهم شباب يرى ان الانسان المعاصر أصبح قريب الشبه

بالصورة التي رسمها هكسلي له في روايته « عالم جديد شجاع »
إنسان : يأكل جيدا ، يلبس جيدا ، يمارس الجنس جيدا ، ومع
ذلك فهو بلا روح .

وإذا كنا حتى الآن قد استعرضنا اتجاهات قطاعات كثيرة في
المجتمع الأمريكي ، فما زال أمامنا القطاع الأكبر ، الذي يشكل
الأغلبية . أن نموذج هذا القطاع هو « الرجل المتوسط » .
أن معظم تعاملك اليومي سوف يكون مع هذا « الأمريكي المتوسط »
أمريكي الطبقة الوسطى . أنه قد لا ينتمي اقتصاديا للطبقة الوسطى
ولكنه ينتمي إليها بأفكاره وهمومه . أن « الأمريكي المتوسط هو
— فوق كل شيء — مفهوم عقلي ، وضع أخلاقي ، حالة نفسية ،
مجموعة من القيم والاهواء والميول . بهذا المعنى سوف يمثل
« الأمريكي المتوسط » بالنسبة للمهاجر دائما نصف الشعب الأمريكي
تقريبا . أنه قد يكون رئيسك في العمل ، أو جارك في المسكن ،
أو البائعة في محلك المفضل ، أو أم الفتاة صديقك ، أو صاحب
المنزل .

أنك قد تعرفه بما ليس فيه أكثر مما تعرفه بما هو فيه . أنه
ليس غنيا ، وليس فقيرا . ليس مثقفا ، وليس جاهلا . أنه يكره
الفقر ، يخشى التغيير ، يتطلع إلى الثروة .
أنه يؤمن بالديمقراطية ، الحرية ، الدستور ، ويعبد الله —
مع أنه قد ينسى صلاة الأحد من أجل برنامج تليفزيوني ، أنه
يأكل جيدا ، يسكن جيدا ، يتسلى جيدا ، يعمل بمشقة ، ويعظم
بييت في ضواحي المدينة .

أنه قلق ، ولكن أمامه صناعات ضخمة كاملة تعيش على هذا
القلق : السجائر ، المشروبات الروحية ، الأفلام ، التليفزيون ،
الالعاب الرياضية ، اليانصيب ، المحاضرات .. الخ ..
أن شيئا في العالم يجب ألا يزعجه في أجازته الأسبوعية .
إذا رآك في هذه الإجازة فإنه دائما يسألك « هل أعجبتك
أمريكا ؟ » أنه يصبح سعيدا لو أعجبتك . ولكن يتزعج جدا إذا
قلت له أنها لم تعجبك . في الواقع ، ربما يشعر نحوك من الآن
فصاعدا بشيء من الجفاء .

أنه يسألك أيضا : « مارايك في هذا العنف بالجامعات ؟ أتني
لا أرى داعيا أبدا لخوفهم على أمريكا . لماذا الخوف ؟ ممن تخاف ؟
من الحكومة ؟ من البوليس ؟ من الكونجرس ؟ لا . لا . بالله

عليك ، هل رايت بنات المستر نيكسون وزوجته في التليفزيون امس ؟ هل يخاف الانسان من رجل هو رب لهذه الاسرة ؟)
انه يحب ايزنهاور لانه اب في كرسي الرئاسة . يكره ترومان لان (. . العمل كبير عليه) يعجب بكنيدى لانه تعبير عن الحكم الامريكى) . يكره جونسون لانه يتصرف كراعى بقر .

ان هذا الامريكى المتوسط له مقياسه التى يحكم بها على الاشياء دائما . ان الصورة الرومانتيكية للانسان فى راسه هى فرد ضد الظروف ، بشرط ان ينجح هذا الفرد فى النهاية ضد الظروف . ان الفشل بالنسبة له هو خروجك من السباق قبل الجولة الاخيرة . الفشل هو ان تبدأ فى اليأس أو الفش فى قواعد اللعب . اما النجاح فهو قدرتك على التكيف مع الظروف . النجاح هو ان تبدأ من الصفر .

انه يقرأ النيويورك تايمز - احيانا الديلى نيوز - ويحب افلام المغامرات ويهوى الكتب التى تحدثه عن أمريكا سنة ٢٠٠٠ ، ويخرج الى الريف فى الاعياد ، ويحتفظ باليوم مصور عن كل رحلة ويحلم بجولة حول العالم بعد التقاعد .

انه عندما يشعر بالخوف يتحرك الى اليمين بسرعة . وعندما يشعر بالطمأنينة يتحرك الى اليسار ببطء . فى الازمات يصبح متطرفا . فى الرخاء يصبح سعيدا .

انه احيانا يشعر بالتجاهل . احيانا يرى نفسه ((اغلبية صامتة)) فى أمريكا . انه يفكر فى التضخم ويحس بالفوضى ويتزعج من انتشار العنف ويحذر من تعليم الجنس لاطفاله فى المدارس ويقلق من احتمال تعاطيهم المخدرات فى الجامعات ، مبتس من خفوت صوته فى المسائل السياسية الكبرى .

ان كل القضايا الكبرى لها دائما معنى شخصى بالنسبة له . ان المنزل والاسرة هما بؤرة اهتمامه ، وكل قضية كبرى يجب ان تفسر على ضوء علاقتها به شخصيا وبأسرته . ان التضخم معناه قطعة لحم أقل ، والجريمة معناها قلق على طفله الصغير عند رجوعه من المدرسة .

لقد جاء بنيكسون الى البيت الابيض لانه وعد بحل لكل هذا . لقد طرد جونسون من الرئاسة لان من يخلق مشكلة لن يكون قادرا على حلها . لقد صلى خوفا على حياة طاقم ابولو ١٣ لانهم صورة للرواد فى خياله ، لقد اختلف مع ابنه امس لانه جعل امه تبكى طوال المساء . لقد اعطى ثقته لايزنهاور ، ولكنه معجب

بنيل ارمسترونج اكثر من اعجابه بنيكسون ، ويحب جون واين اكثر من مارلون براندو .

انه يرسل من جيبه برقية تعزية لجاكلين كينيدي بعد مصرع زوجها . ان كل شخص يقنعك بشراء سيارة قديمة ، ويجعل زوجته سعيدة ، هو شخص صالح - في رايه - لعضوية الكونجرس . كل شخص بدا من الصفر وتحدى الظروف هو مرشح صالح لعضوية مجلس الشيوخ .

انه دقيق في مواعيده وشغوف بتجديد حياته وحريص على تذكر عيد ميلاد زوجته . انه يقف بالصف الطويل في عز البرد كل كريسماس لكي يدخل « راديو سيتي » في نيويورك ، ويرسل بطاقات ! التهنئة لاصدقائه في اعياد الميلاد ، ويفني النشيد القومي في مباريات كرة القدم ، ويتبرع بدولار من اجل نجاح مرشحه في الانتخابات ، وخمسة دولارات من اجل بناء كنيسة ، وخمسين دولارا لانقاذ طفلة مريضة من الموت !

انه لا يفعل لخبر .. ولكنه يهتز لمأساة .

ان حجم أسرته محدود ، بالكثير اثنين أو ثلاثة .. ان أسرته صغيرة ونشاطه ضخم وحركته سريعة وأولاده يعتمدون على انفسهم منذ صباهم المبكر . ان زوجته لها قيمة عنده لانها زوجته .. وليس لانها أم لأطفاله .

انه يدخر لشراء هدية لزوجته ، وشراء سيارة جديدة .. والقيام برحلة حول العالم عند التقاعد . ان قصة كفاحك في الحياة تسحره أكثر وأكثر مما تسحره شهادتك واصرارك بدهشه أكثر من استمرارك وشخصيتك تعجبه أكثر من أصل أسرتك . انه لا يجد مانعا أبدا في ان يبدأ من جديد .. ويعرف كل شيء جديد .. ويتعود على كل شيء جديد .. ويبدأ في دراسة شيء جديد في سن الستين .

انه مستعد لارتداء أي شيء .. والتحدث في أي شيء .. وتجربة كل شيء .

انه يفكر دائما كما لو كان يعيش بمفرده وسط قارة خالية من السكان .

انه يدخر قسط التأمين على حياته وزوجته وسيارته قبل ان يدفع أيجار المنزل .

انه يقول لك ان في امريكا الآن مائة ألف شخص تزيد ثروتهم

على مليون دولار . لهذا لا يرى مانعا ابدا في ان يكون هو رقم واحد بعد المائة الف !



انه يؤمن بالمسيح والتكنولوجيا . يعبد العذراء والدولار . .
يصلى من أجل الحصول على الثروة الآن والفقراء فيما بعد !

x x x

و . . هذا هو «الرجل المتوسط» في أمريكا . هذا هو الاغلبية
هذا هو «مستر أمريكا» . . الذي ستقابله زميلا في العمل أو
رئيسا أو صديقا أو مجرد جار لك في الشقة التالية .
بعد ان تتعرف على هذا الرجل - على مستر أمريكا هذا -
تستطيع ان تبدأ في التعرف على الحياة في أمريكا وعلى المصريين
في أمريكا .

المعلم سكر.. مهاجر رغم أنفه !



سافر المعلم سكر الى نيويورك !

ان المعلم سكر - هذا الشاب الذي يعمل في محل جزارة في بولاق بالقاهرة - هاجر الى امريكا ! انه لم يقصد الهجرة .. ولم يقصد امريكا .. ولم يقصد اى شىء اكثر من العودة الى دكان الجزارة في بولاق بالقاهرة . حيث يبيع اللحم ويدخن الشيشة كل يوم .. بالمسبحة في يده والطاقيـة البلى على راسه والجبـاب المفتوح الصدر ذى الاكمام الواسعة فوق جسمه جسم ضخم يدل على الرجولة المطلقة .. من وجهة نظر المعلم

سكر . رجولة يرمز اليها هذا الشارب الضخم الذى تستطيع
ان تراه فى وجه المعلم سكر من مسافة بعيدة ..

بهذا الجسم أصبح سكر جزارا ، ومعلما .. وكل شىء يحلم به
منذ الطفولة ! ان كل رأسماله فى الحياة هذا الجسم .. ((بكتفين
يقف عليهما ناسدان . وذراعين يقف عليهما جملان ، وشارب يقف
عليه صقران .. الى آخر الصورة التى يعبر عنها زكريا أحمد
فى الاغنية المشهورة .

ان المعلم سكر لم يقصد ان يهاجر .. ولم يقصد ان تكون
هجرته الى أمريكا .. انه مبدئيا - لا يصرف أين توجد أمريكا
هذه . ان كل ما يعرفه فى هذه الدنيا هو المسافة بين محل الجزارة
الذى يعمل فيه . وبين البيت الذى يقيم به فى حى بولاق ..
بالقاهرة .

ان كل ما يعرفه المعلم سكر هو محل الجزارة .. والكرسى امام
الدكان والشيشة امام الكرسى .. وورقة اليانصيب التى يشتريها
كل يوم .. وكوب العرقسوس الذى يشربه مرتين فى اليوم ..
والبنت القمر - قمر الدين يعنى - التى تتمخطر فى مشيتها امام
المحل كل يوم . البنت عزيزة .

((يا صلاة الزين .. يارب توعدنا .. يارب توعدنا وتعمل
المراد)) .. هكذا كان المعلم سكر يتمتم كل يوم بصوت تسمعه
بنت الجيران القمر - عزيزة - عندما تمر امامه مرتين فى النهار
.. ربما كان مرورها هذا لا يتم الا لجرد سماع كلمات المعلم
سكر .. انه شاب ، جزار ، قوى الصحة ، مفتول الشارب ..
انه ليس صاحب المحل بعد - ولكنه يحلم بذلك يوما ما . انه
يرى فى عزيزة كل الحلاوة التى توجد فى العالم .. عندما تمر
عزيزة امامه .. بالشيشب فى قدمها واللبان فى فمها .. والكحل
فى عينيها .. والبرقع على وجهها والملاية الف فوق جسمها فان
الانشراح ينطق من كلماته والبهجة تقفز الى صوته ، والسرور
يشع من عينيهِ ((يا صلاة الزين ، النبى تبسم .. يا ارض
احرسى ما عليكى)) .

كيف تحرسها الارض وعزيزة تسير فوقها بجسم هزاز .
جسم راقص ؟

ولكن الواقع انه كان رفصا متبادلا . عندما يرقص جسمها

يرقص شاربته . عندما يهتز خصرها يهتز قلبه . عندما يتلوى
وسطها يتلوى خرطوم الشيشة في يده !

× × ×

تم .. اختفى هذا كله . لم يعد يتلوى في المعلم سكر شيء
سوى امعائه . ان الجوع صعب والاكل قليل والنقود غير
موجودة . والغربة في بلاد الخواجات صعبة .. خصوصا عندما
يكون هؤلاء الخواجات امريكان ! ان المعلم سكر لم يفكر مطلقا في ان
حظه سوف يأتى به الى هنا ، الى نيويورك .. ان كل ما كان
يفكر فيه منذ سنتين - عندما كان في القاهرة - هو ان يصنع
ثروة يعود بها الى حى بولاق ليقيم فيه محل الجزيرة ليشتريه
به والبنت عزيزة لكى يتزوجها . هذا كله ما دار في ذهنه يوم
ذهب يتطوع في صفوف قوات الجيش الانجليزى التى تحارب
باصرار ضد قوات المحور في تلك الايام السوداء من ايام سنة
١٩٤١ . لقد تطوع في صفوف الجيش الانجليزى لانه سماع من
رفاق له جاءوا من التل الكبير عن الثروة التى يحققها كل من
يعمل منهم في الجيش البريطانى ، ويتاجر بعد ذلك في مخلفات
الجيش البريطانى .

بهذا الهدف - هذا الامل - دخل المعلم سكر متطوعا في صفوف
الجيش الانجليزى شهر ، شهران ، ستة اشهر .. ثم نقلوه على
ظهر سفينة انجليزية محاربة في البحر الاحمر . شهران آخران
ثم انتقلت السفينة الى العمل في المحيط الهندى يوم .. يومان
.. ثلاثة .. ثم وقع المحذور .. فبعد ان تم تموين السفينة في
أحد موانئ جنوب أفريقيا .. استطاعت البوارج الالمانية ان
تكتشف هذه السفينة الجديدة الانجليزية و .. أصابتها في مقتل !
الآن غرقت السفينة ، غرق البحارة .. غرق كل شيء .. لم
تكن السفينة هى وحدها التى غرقت .. وانما غرقت معها ايضا
في تلك البقعة من المحيط الهندى .. كل تلك الامل داخل المعلم
سكر - كل امل في الثروة ، في محل الجزيرة ، في عزيزة .

× × ×

ان المعلم سكر - الله وحده يعلم كيف ولماذا - استطاع النجاة
مع ستة آخرين من البحارة . هؤلاء هم بقايا السفينة
الحربية الانجليزية الفارقة . ان الله يعلم ان عزيزة تعيش الآن في
بولاق دون ان يقول لها احد « يا صلاة الزين .. يا قمر ..
يا قمر الدين » ! ربما من اجل هذا - من اجل هذا فقط ..

صمم المعلم سكر على النجاة بجلده من الشمس الحارقة والمياه المالحة في تلك البقعة السوداء من المحيط الهندي . ربما من أجل هذا فقط .. ظلت الحياة تدب داخل ذراعى المعلم سكر وهو يصارع الموج سابحا في اتجاهه لا يعلم بالضبط أين يمكن أن يقوده .. وبحث عن شاطئ لا يعلم بالضبط متى يظهر في الأفق . ومع الانفاس قبل الأخيرة من حياة المعلم سكر استطاع أخيرا أن يرى من بعيد شيئا يشبه الشساطىء .. أى شاطئ ؟ أى أرض ؟ أى قطر ؟ أنه لا يعلم بعد ..

أن كل ما يعلمه أنه بعد ساعتين أو ثلاثة استطاع أن يصل الى هذا المكان .. وأن يتأكد بنفسه أنه أرض ، عليها ناس ، ثم أن هؤلاء الناس يسكنون في دولة اسمها : جنوب إفريقيا !! سبحانه الله .. يحيى العظام وهى رميم !

هذا كل ما يتذكره المعلم سكر . أنه يتذكر فقط أنه كان في ذلك اليوم مجرد رميم .. أقل من رميم . وأن الأمل الذى غرق منه في المحيط الهندي قد عاد اليه الآن من جديد : الأمل في العودة الى عزيزة .. والله زمان على القمر .. قمر الدين الذى يتمخطر في بولاق .. كيف يصل المعلم سكر الى بولاق ؟

— أين بولاق هذه ؟

— فى كايرو يا خواجه .. أنا أصلى من كايرو ..!

وبمجهود غير قليل استطاع المعلم سكر أن يفهم أخيرا من الناس الذين سألهم أن الوصول الى كايرو من جنوب أفريقيا يحتاج الى ركوب باخرة ، أى باخرة فالباخرة التى كانت تتجه من جنوب أفريقيا الى قناة السويس وقتها كانت كثيرة . أن المعلم سكر لا يستطيع أن يركب باخرة .. فلا توجد معه نقود .. ولكن .. هل عدم وجود النقود يمنع الانسان من التسلل الى أى باخرة ليلا .. والاختفاء فيها الى أن تبحر .. فتصبح المسألة أمرا واقعا ؟، حيمملوا ايه يعنى ؟ يرمونى فى البحر ؟ يرمونى .. !

وركب المعلم سكر الباخرة ، أى باخرة .. لايمهم ، فكل البواخر لابد أن تؤدى الى كايرو ! يوم .. يومان .. اسبوع .. « متى تصل الى بولاق ؟ الى كايرو ؟ »

— كايرو مين يامستر ؟ الباخرة دى رايحة نيويورك !!

نعم ؟ نيو ايه ؟ نيويورك ؟ أين توجد نيويورك ؟ أن المعلم سكر لا يستطيع أن يسأل كثيرا .. أن لغته الانجليزية لاتزيد على تلك الكلمات القليلة التى استطاع أن يلتقطها خلال شهور تطوعه فى

الاسطول البريطاني . وحتى لو كان المعلم سكر لا يستطيع ان يسأل . .
 بلغة انجليزية معقولة - فانه ايضا لم يكن سيعرف بالضبط اين
 توجد نيويورك هذه . ان المعلم سكر يعرف الدنيا بالجملة . .
 ولا يعرفها بالتفاصيل . انه يعرف فقط ان العالم يعيش فيه جنسان
 اولاد عرب . . واولاد افرنج . . ان الانجليز والالمان والاطليان وكل
 شخص اخر ليس ابن عرب . . هم اولاد افرنج . . خواتم يعنى !
 انهم على السفينة الان يقولون للمعلم سكر ان هناك بلادا اخرى
 غير بلاد الانجليز اسمها بلاد الامريكيين . . وان هناك مدينة اخرى
 غير كايرو اسمها نيويورك . . لا . . لا . . الان سيدخلون مع المعلم
 سكر فى التفاصيل . . كلام لا يفهمه المعلم سكر . . الم اقل لك انه
 يريد ان يعرف العالم بالجملة . لزومها ايه التفاصيل دى بقى ؟!
 ولكن المعلم سكر لا يستطيع الان ان يختار . . ان عليه ان يعرف
 الان كم تبعد نيويورك هذه عن بولاك . . عن كايرو . . !
 - تبعد كثير . . كثير قوى يامستر . . كلها كام اسبوع وتوصل
 نيويورك !

وتتمتع المعلم سكر بلغة لا يعرفها احد على السفينة غيره . . « يا عالم ؟
 ياهوه ؟ الواحد ينوى يروح مصر . . يلاقى نفسه رايح بلاد الامريكان ؟
 علم الانسان ما ثم يعلم ! » !
 ولم يكن امام المعلم سكر مفر . لم يكن يستطيع ان يختار . انه -
 فى مثل هذا الوضع - لا يملك سوى حلين اثنين فقط : ان يلقى بنفسه
 فى المحيط الذى تسير فيه الباخرة ، او ينتظر حتى يصل الى نيويورك
 هذه . . لعله يجد قطارا هناك او حتى « اوتوبيس » يوصله الى
 بولاك . . والله زمان يا عزيزة !!

x x x

فى ميناء نيويورك . . يسأله الضابط المختص :

- معاك باسبور ؟

- لا

- اسمك ايه ؟

- سكر . .

- سكر ؟ ده اسمك انت شخصا ؟

- ابوه

- طيب . . اسمك بالكامل ايه ؟

- سكر محمد سكر !

- ايه اللى جابك ؟

.....

في البداية لم يستطع المعلم سكر أن يروي . ان اللغة لاتسعه . .
بعد قليل استطاع بكثير من الاشارات وبعض الانجليزية وقليل من
العربية - أن يعطي لضابط الجوازات فكرة ما عن حكايته : انجليز . .
اسطول . . بحر . . ألان . . طاخ . . غرقنا . . شاطئ . . كايرو
. . نيويورك . . خواجات . .

وبشكل ما . . لم يتصور ضابط الجوازات ان سكر لا يملك في
جيبه شيئاً . . انه لم يتصور ، أو لم يشأ ان يتصور . المهم . . انهم
أعدوا له اوراقاً مؤقنة بديلة عن جواز السفر ، واعطوه مهلة ثلاثة
اشهر . . يغادر نيويورك بعدها . . يغادرها الى كايرو . . أو الى
اى مكان آخر - لا يهم .

وفكر المعلم سكر . سأل الناس . . وفكر . . استفسر . . وفكر
. . ثم جلس وفكر . انه الآن في بلاد الامريكان بلا مليم واحد . معدته
بلا طعام . . طريقة الى بولاك . . الى عزيزة في بولاك . . هو طريق
بعيد بعيد . . لابد من باخرة والباخرة لابد لها من تذكرة . . التذكرة
لابد من نقود . . والنقود غير موجودة . . اذن ما العمل ؟ . لا عمل
سوى . . العمل . هكذا فكر المعلم سكر وهو في يومه الاول بتلك
المدينة بلاد امريكان .

ولكن المشكلة لم تحل بعد . . اى عمل يستطيعه المعلم سكر مع
هؤلاء الخواجات اى عمل . . ومعلوماته فى الانجليزية لا تتجاوز
الخمسين كلمة ؟ ان ما يعرفه يتضمن بغير شك كلمات اساسية
يستطيع أن يبدأ بها . كلمات مثل . . فود . . مونى جود مورننج .
تأئك يو . . ويرك . . جود . .

« انت راجل جود ! ابن حلال باين عليك !!

هكذا قال المعلم سكر لاحد اصحاب محلات مسح الاحذية في
نيويورك عندما دخل عليه في نفس اليوم يجرب حظه في العمل . .
هل يرضى المعلم سكر ان يقوم بمسح الاحذية ؟ . . نعم . . ماهو
السيء في هذا ؟ انه يحتاج الى طعام . . الى فود ! والفود عايز مونى
. . ومسح الاحذية يمكن ان يأتى له بهذه ال . . مونى . . هذه
النقود !

يوم . . يومان . . اسبوعان ، ثم بدأ المعلم سكر ينتقل الى اعمال
اخرى كثيرة . . تقول كناس ؟ تقول يباع ؟ تقول صبي بقال ؟ تقول
صبي جزار ؟ يمكن . .

المهم ان هذه اتكنيا الجديدة بدأت تدهش المعلم سكر .. ان الناس في الصباح مسرعون كما لو كان « .. ضاربهم السلك » وفي المساء يرقصون كما لو كان « .. (مخبوطين بحقنة بنج) » .. ان الشوارع نظيفة .. « تلحس من عليها العسل! (والبنات) » .. مفاعيص زى مايكونوا يياكلوا في الشهر مرة! !

ومع ذلك .. فلن الحياة الجديدة بدأت تعجبه وتسحره .. انه لم يفهمها في البداية .. ولكنها أعجبتة .. انها لم تعجبه كمقيم فهو موجود هنا رغم أنه .. موجود بالصدفة .. انه موجود الى ان يدخر نقودا كافية لعودته الى بولاق على الاقل . ولان النقود الكافية لم تتجمع لديه في الاشهر الثلاثة المسموح له بها فقد استطاع ان يحصل على تصريح بثلاثة اشهر اخرى .. نعم . بالكمات الانجليزية المتابعة التي يلتقطها المعلم سكر كل يوم أصبح يستطيع التفاهم مع الناس . التفاهم بصعوبة في البداية ، ثم بصعوبة أقل فيما بعد ..

x x x

وبهذا الشكل مرت على المعلم سكر في نيويورك ستة اشهر ، تسعة أشهر ، سنة .. نعم . سنة كاملة .. استطاع خلالها ان يدخر نقودا كثيرة . نقودا اكثر بكثير من قيمة التذكرة التي كان يريد لها أصلا .. ان المعلم سكر لم يكن امامه مفر من ذلك .. انه يكافح وظهره الى الحائط .. لا احد يعرفه هنا .. لا احد يساعده .. لا احد ولا شيء سوى ذراعيه ! بهاتين الذراعين استطاع سكر ان يدخر في اول سنة له بنيويورك - ٨٠٠ دولار .. بالضبط - ٨٠٠ دولار و ٥٥ سنتا . الان يستطيع المعلم سكر ان يفكر وهو مستريح . الان ، بهذه الدولارات وتلك اللغة المحدودة التي تكفيه - بدأ يفكر في المستقبل . ان اهدافا جديدة تدخل الآن في رأس المعلم سكر . اهدافا لم يكن يتخليها من قبل . لقد كان يريد ان يصبح صاحب محل جزارة في القاهرة .. لماذا لا يكون صاحب محل جزارة هنا .. نعم .. هنا في نيويورك ؟ ايه المانع ؟!

هكذا بدأ المعلم سكر يسعى نحو الهدف الجديد .. انه يدخر .. الدولار فوق الدولار - ويعمل .. الساعة بعد الساعة لكي يحقق هذا الهدف .. ان المعلم سكر اشتغل باعمال كثيرة ، ولكنه يرى ان القيمة كل القيمة ، والمركز كل المركز .. هو ان يكون الانسان : جزارا . يرى ان السحر كل السحر والاحترام كل الاحترام هو ان يصبح الانسان : معلما !

x x x

ومرت سنة . سنتان . ثلاث ، ثم حقق المعلم سكر هدفه ! لقد أصبح فعلا صاحب محل جزارة في نيويورك !
وفي اليوم التالي لدخوله هذا المحل . . ارسل المعلم سكر الى القاهرة - الى بولاق في القاهرة - يطلب قمر الدين . . يطلب عزيزة ! بعد شهور قليلة وصلت عزيزة ، وأم عزيزة ، وأخت عزيزة ، وأخ عزيزة . . وابن عم عزيزة و ١١ شخصا آخرين من الاصحار الجدد للمعلم سكر . .

و . . عندما تذهب الى نيويورك الان . تستطيع ان تسأل عن محل الجزارة - والمطعم - الذى يملكه سكر محمد سكر في بروكلين بمدينة نيويورك . . فوق المحل تستطيع ان ترى المنزل الذى تسكن فيه عائلة المعلم سكر . انه مستعمرة «المعلم سكر» ! على المحل نفسه تستطيع ان تقرأ باللغة العربية «المعلم سكر» كلمتين لم يجد صاحب المحل ترجمة لهما سوى ما كتبه على اللافتة باللغة الانجليزية «Mr. Sugar» وأرجوك - لا تخطيء في الاسم . لانك ان اخطأت . . فسوف تصححه لك سيدة تجلس في الداخل . . هذه السيدة هي : مسز شوجر - عزيزة . . سابقا !

x x x

انى لو لم اسمع هذه القصة بنفسى في نيويورك . . لو لم اشاهد ابطالها . . لو لم اتأكد من نتائجها . . لتصورت انها من حكايات الف ليلة وليلة . . ان احدا لو قص لى هذه الحكاية في القاهرة لقلت انها فيلم سينمائى من اخراج حسن الامام ! قصة لا يستطيع ان يتخيلها ابرع كاتب ولا احسن مخرج . ولكن الواقع يصبح احيانا اكثر براعة من كتابة القصة واكثر تليقا للاحداث من حسن الامام .

وبعد كثير من التردد ، وبعد اختصار كثير من الاحداث - قررت ان اكتب القصة كما وقعت . . فليصدق القارىء او لا يصدق هذا ما حدث على اى حال . ثم انها بعد هذا كله - ليست اغرب قصة رايتها للمصريين المهاجرين على اى حال .

فاذا كان المعلم سكر قد أصبح مهاجرا رغم انفه . . اذا كان قد أصبح مهاجرا دون ان يقصد الهجرة . . فلن هناك من الحالات ما هو اغرب منه . . نعم . هناك في هذه المدينة نيويورك - تستطيع ان تقابل نماذج اكثر غرابة . من المصريين . الذين لم اكن اتصور من قبل انهم يمكن ان يكونوا بهذه الجراءة . . وهذه القدرة على المغامرة . خذ مثلا قصة هذا المعلم الاخر : المعلم عطية . .

x x x

ان عطية - بعكس المعلم سكر - ليس من القاهرة . . انه من مواليد الاسكندرية . . انه على وجه الدقة - من مواليد شارع الباشا بقسم الجمرك - من مدينة الاسكندرية .

عندما قابلت عطية في شارع برودواى بمدينة نيويورك تصورت اننى قابلت شخصا قادمًا من الاسكندرية منذ خمس دقائق وليس منذ ٢٤ سنة . ان اللهجة ، خفة الدم ، الصوت ، التعبيرات ، الملامح الحركات . كلها هى العلامات المميزة لاي اسكندراني حقيقى تقابله فى الاحياء الشعبية بمدينة الاسكندرية .

انه مازال فى الثالثة والاربعين من عمره . . بجسم طويل ورأس نحيل الشعر يقترب من الصلع . . وشارب خفيف . . وبدلة تتحول عند اللزوم الى جلباب بلدى !

ان اى رفيق دراسة لعطية يستطيع ان يتذكرة الان عندما اقول : انه كان تلميذا بمدرسة ابراهيم الاول بالاسكندرية ، ثم طالبا بمدرسة محمد على الصناعية . انه لم يكمل تعليمه فى تلك المدرسة - تستطيع ان تقول انه فشل فى ذلك . . مع انه شخصيا لا يقول انه فشل . انت تعرف طبعا كم يكون الشاب مشاغبا وشقيا فى تلك السن المبكرة ان آثار تلك الشقاوة مازالت الى اليوم موجودة فى ذراعى عطية . آثار الفتوة والمعارك والخناقات .

ولكن الشقاوة لم تكن هى وحدها سبب انقطاع عطية عن التعليم . لقد كان الفقر سببا اقوى . فمع ان والد عطية كان يعمل مساعد مأمور بمصلحة الموانئ بالاسكندرية . . الا انه كان يرزح تحت عبء الاسرة التى انجبها . . هل تدرى كم طفلا انجبهم الحاج حسن - والد عطية ؟ هذا هو الرقم - ١٤ - نعم - اربعة عشر ولدا وبنتا !

ان الاحياء من اشقاء عطية ال ١٤ هم سبعة ، بعد ان مات سبعة . البقاء لله . . ولكن المهم ان الانسان عندما يولد فى مثل تلك العائلة . . ويعيش وسط تلك الهموم . . فان افكارا كثيرة تراوده . . الانقطاع عن التعليم ؟ ممكن . هكذا فعل عطية . العمل ؟ ممكن . هكذا اشتغل عطية فى جنرال موتورز بالاسكندرية . الهجرة ؟ جائزة ففى تلك السن ١٩ سنة يصبح كل منا طائشا لا تراوده سوى الافكار الطائشة ! . . ولكن الفكرة لم تكن طائشة ايدا بالنسبة لعطية . كانت الفكرة جادة جدا . . منتهى الجد . انها لو لم تكن كذلك لما دفعته الى ان ينفذ مشروعة . . ويهاجر فعلا الى استراليا فى سنة ١٩٤٦ . ولكن الشاب المصرى ذا التسعة عشر عاما لم يلبث ان مل الحياة فى استراليا بعد أشهر قليلة . لقد اصابه الملل . . او الفشل . .

لا أحد يلزم بالضبط .. ان كل ما يدريه صاحب الشأن نفسه — هو انه شد رحاله على . أمريكا ..

ماذا يفعل شاب في مثل سنه الصغيرة ، وخبرته المحدودة، ولغته الانجليزية الركيكه .. في أمريكا ؟ ماذا يفعل في نيويورك ؟ ان عطية لم يكن يعلم بالضبط ماذا يمكن ان يفعله . كل ما كان يفعله هو ان يهاجر .. وان الهجرة بالنسبة له امر جاد جدا . وانه مستعد لتحمل أية مصاعب تواجهه في سبيل هذا الحلم الجاد جدا . لهذا كافح — كافح عطية بيديه واسنانه الى ان استطاع ان يعمل في نيويورك .. مساعد طباط ! ان الاجر قليل جدا — مجرد ٢٥ دولارا في الاسبوع — ولكنه ليسر في موقف يسمح له بالاختيار .. انه فقط يسمح له بالبحث عن الطعام .. وهذا العمل الاول في أمريكا — مساعد طباط — يوفر له الطعام .. والخمسة والعشرون دولارا كل اسبوع .. رضا!

ولكن بعد ستة أشهر فقط بدأ عطية يحس بعدم الرضاء .. انه لم يترك الاسكندرية ومصر كلها ، مقابل خمسة وعشرين دولارا فقط يحصل عليها كل اسبوع .. يحصل عليها من مثل هذا العمل المرهق في نيويورك .. لم يكن هناك داع للهجرة اذن .. مادام عطية يستطيع ان يقتنع بمثل هذه النتيجة المتواضعة .. اذن .. ماهو الحل هل هناك حل ؟

× × ×

نعم .. هناك حل جنوني اهتدى اليه عطية .. ان أمريكا دخلت حرب كوريا . والجيش الأمريكي يعلن عن حاجته الى متطوعين لماذا لا يتطوع ؟ انه لا يحمل الجنسية الأمريكية .. ولكنهم لم يضعوا هذا ضمن شروط التطوع . لماذا اذن لا يجربوا حظه ؟ ..

ومرة أخرى — انت تعلم كم يكون الانسان طائشا في تلك السن المبكرة — قرر عطية ان يتغذ فكرته . وخلال شهور قليلة كان عطية فعلا يحارب مع كوريا ضمن اول دفعة متطوعين يرسلها الجيش الأمريكي الى هناك . شيء لا يصدق عقل .. ولكن من قال ان هجرة عطية كان يمكن ان يصدقها عقل ؟!

وهكذا أصبح عطية محاربا كوريا . ولكن حرب كوريا كان لابد ان تنتهي وعندما انتهت عاد عطية الى نيويورك ليكتشف انه لا يحمل الجنسية الأمريكية بعد .. وان ادارة الهجرة الأمريكية ترفض تلك الجنسية كمهاجر .. رغم انه حارب سنتين مع الأمريكيين في كوريا . قبل ان تظلم الدنيا في وجه عطية أمسك ورقة وقلما . فلقد

اصبح الان يجيد اللغة الانجليزية - وبدأ يكتب « .. عزيزى
المستر دوايت ايزنهاور .. رئيس جمهورية الولايات المتحدة
الامريكية .. !! »

هكذا مرة واحدة - قرر عطية ان يحول مشكلته الشخصية
الى مشكلة تحتاج الى قرار رئيس الجمهورية ! ان مكتبه عطية
بى الخطى لم يزد عن الوقائع التى حدثت بالضبط .
« اننى اقيم فى أمريكا منذ سبع سنوات .. حاربت فى الجيش
الامريكى فى كوريا لمدة سنتين .. وادارة الهجرة ترفض منحى
الجنسية الامريكية .. ويا عزيزى الرئيس ايزنهاور .. هل
يرضيك هذا ؟ ! .. »

طبعا ايزنهاور لا يرضى !! النتيجة : حصل عطية على الجنسية
الامريكية حصل عليها - بالضبط فى ٢٢ مارس سنة ١٩٥٣ .
ولكن الجنسية لاتزيد عن ورقة صغيرة .. انها ليست شيئا
بمليون دولار ، ولا هى تصريح بالسكن مجانا .. ولا هى بطاقة
تعفيه من دفع الايجار ! ما زال أمام عطية اذن أن يبدأ حياته من
جديد .. بالدولارات التى ادخرها خلال فترة تطوعه كجندي
فى كوريا .

وبدا عطية يدخل فى منافسات ومزايدات .. نعم .. اصبح
عطية تاجرا .. انه تاجر .. ومقاول .. ومتعهد .. لقد بدأ
يحصل على مناقصات توريد الاطعمة والتموين الغذائى لبعض
وحدات الجيش الامريكى . انه الآن امريكى .. واسعاره هى
الاقل فلماذا لا ينجح فى ذلك ؟ !

وهكذا استمر عطية فى تجارته الجديدة عشر سنوات اخرى .
وعندما احس بأن تقودا كافية قد تجمعت لديه . بدأ يفكر فى
الاستقرار . ان الاستقرار بالنسبة له لم يكن الزواج . لا ليس
بالنسبة لعطية .

ان الاستقرار بالنسبة لعطية كان شىئين : أولا أن يصبح
صاحب محل .. بقالة او جزارة او اكل .. المهم محل مملوك
نه والسلام .. وثانيا : ان يستدعى اكبر عدد من افراد أسرته
المقيمين بالاسكندرية لكى يحضروا الى هنا الى نيويورك - واذا
لم يمكن حضورهم للعمل معه - فعلى الاقل يكون لمشاهدة نجاحه
فى حياته الجديدة .

بالطبع من حق عطية أن يؤمن بأنه نجح .. مادام قد بدأ محله
الجديد هذا برأس مال ٧٥ الف دولار ! محل لم يكتب عطية على

لافتته من الخارج سوى مجرد كلمتين بالانجليزية .. « مطعم
كليوباترة » ! ..

وعندما اتجهت الى تقاطع شارع ٩٤ وشارع برودواى فى
نيويورك لكى أزور هذا المطعم .. دخلت من الباب لاجد مطعما
فاخرا تم تجديده مؤخرا فقط . ان تصميم الديكور فيه فن
وذوق وبساطة .. لان الذى صممه هو فنان مصرى مهاجر هو
الآخر اسمه جمال الزغبى . فنان سوف نسمع عنه فيما بعد .

اقول ان الديكور فيه ذوق ، وهذا فى حد ذاته سبب رئيسى
من اسباب نجاح المطعم .. انك عندما تدخل الى المطعم ستفاجأ
بان الباب الى يسارك عندما تدخل من الباب سوف تجد المناضد
مقسمة بطريقة ثابتة تفصلها حواجز فى مستوى رأسك . وعلى المائدة
التي جلست عليها وجدت قائمة الطعام مطبوعة فى كتيب صغير .
ان صورة عطية مطبوعة امامك على الغلاف بقميص مفتوح وكرافطة
مدلاه ويدين تشرحان شيئا ما - لا ادرى ما هو - ثم طاقة
الطباخ البيضاء متراجعة فوق رأسه الاصلع . فوق الصورة
مكتوب باللون الاحمر : « عطية ، رئيس طباخينا الدولى » .
دولى فعلا عطية هذا !!

وعندما قلبت فى الكتيب وجدت نفسى امام كلمات عريضة
منطوقة باللغة الانجليزية . يبدو ان عطية يريد تعليم اللغة
العربية لزيائنه ! ان اول سطرين فى الصفحة ينطقان هكذا باللغة
الانجليزية « نتمنى ان تتمتأوا بى تأمنا الاجنبى ، وبالموسسيكا
الشركية ، وديكور الفير مألوف .. نهيتكم لمصلحتكم ومصلحتنا
ان تجربوا كل الاتباك المختلفة » !

الترجمة - بالانجليزية الصحيحة فوقها - هى : نتمنى ان
تتمتعوا بطعامنا الاجنبى ، وبالموسيقى الشرقية والديكور
غير المألوف . اننا نستحنكم (نحيطكم كما ترجمها عطية)
لمصاحتنا ومصلحتكم ان تجربوا كل الاطباق المختلفة .

وهكذا تسير باقى صفحات الكتيب الصغير . ان اسم الطبق
فى قائمة الطعام مكتوب بالعربية المنطوقة انجليزيا ، ثم تحتها
الشرح باللغة الانجليزية الصحيحة .. مثلا :

همص تباهينا : حمص مخلوط بزبدة السمسم . الثمن - دولار

ماهش : فلفل اخضر محشو .. اوراق عنب محشوة ..

الثمن - دولار ونصف دولار .

شيش كباب : لحم ضأن مشوى على اعواد شواء مع فلفل

أخضر . طعامهم وبصل الثمن - ثلاثة دولارات ونصف دولار .
كوفته : لحم ضأن مطحون مشوى . . مع الارز . . الثمن
ثلاثة دولارات .

فتة كليونيترا : طبق خاص جدا . خبز شرقى مبلول فى حساء
اللحم . . يعنوه الارز . . وشرائح اللحم وعصير النوم . الثمن
دولاران ونصف دولار .

مولوخية بالفراخ : فراخ مطبوخة فى خضراوات شرقية مع
عصير الثوم والارز . الثمن ٤ دولارات .

فول مودامس : فول مجفف مع بيض وزيت وسلطة شرقية
الثمن دولاران ونصف دولار .

و . . هكذا تستطيع ان تحصل على الطعام فى قلب نيويورك
ووسط ديكور هو اكثر من مجرد ديكور . . انه مناخ وجو
كامل يحيط بك طوال الوقت الذى تجلس فيه على المائدة داخل
هذا المطعم المصرى .

فى هذا المطعم المصرى يعمل ١٤ شخصا على ورديتين . كل
وردية من سبعة ، من هؤلاء سوف تجد اثنين من السودان .
واحد من اليمن واثنين من المانيا وثمانية من مصر ! ان الثمانية
المصريين هم جميعا من اقارب عطية واخوته . فبعد ان نجح
عطية فى مشروعه الجديد هذا . . وبعد ان كتبت عنه جريدة
« النيو يورك تايمز » . . ارسل الى الاسكندرية ليستدعى أسرته
انه الآن يعيش مع والدته وابنة من اخوته وخمسة من اولاد
وبنات اخوته ، اصغرهم عمرها ١٧ سنة .

ان وجبة - هذه اصغرهم وعمرها ١٧ سنة - ممنوع عليها
ان تقف طويلا فى النافذة . عيب . ان عطية يقول « ما عندناش
بنات يبصوا للجلعان من الشبابيك ان عطية اذن رجل مصرى
« حمش » . . ان المصرى « الحمش » فى وسط نيويورك ان
بنت اخته هذه يجب الا تكون ملابسها خارجة عن متطلبات
الحشمة . . انها لا تستطيع ان ترى فى السينما الا اذا
راه عطية اولاً . و « انت فاهم ايه يعنى ؟! الاصول . . اصول !
هكذا يقول عطية بعد ٢٤ سنة عاشها وما زال يعيشها الان وسط
مدينة نيويورك ، وليس وسط حى بولاق بالتماهرة هكذا يطبق
مقابله الاسكندرية على الافراد العشرة الذين يكونون أسرته
فى نيويورك . . ويعيشون فى منزلهم الخاص ذى الطوابق الثلاثة
بشارع برودواى .

ونتيجة لهذا أصبح لدى عطية « مستعمرة » السكانية الأخرى في نيويورك - ثانياً « مستعمرة » سكانية مصرية في المدينة الأمريكية الفخمة . ان هذه المستعمرة هي المنزل المستقل الذى تعيش فيه أسرة عطية المكونة من ثلاثة أجيال في نيويورك .
واذا سألت عطية الان : كم تبلغ قيمة هذا المحل الذى تملكه؟
فانه سوف يرد بسرعة :

- **مائة ألف دولار .**

- كم يبلغ حجم المعاملات التجارية السنوية للمحل ؟

- **مليونين من الدولارات .**

- كم تبلغ الضريبة التى تدفعها للحكومة الأمريكية سنوياً ؟

- **سبعمائة ألف دولار .**

- لماذا تعتقد ان مطعمك قد نجح الى هذه الدرجة ؟

- **لانى موجود فيه دائماً .. لان الطعام فيه مطبوخ بعناية**

.. لان الاسعار فيه معقولة .. ثم لان الديكور به جذاب .

- لماذا اخترت اسم «كليوباترة» للمحل ؟

- **لانى كنت أريد أن يحمل المحل اسماً مصرياً ..**

- ما هذه الصورة المعلقة في مدخل المحل ؟

- **انها صورة السفير محمد حسن الزيات مندوبنا في الأمم**

المتحدة .. في احدى المرات الكثيرة التى جاء فيها لزيارة المطعم .

- هل الطعام الذى تقدمه مصرى حقاً ؟

- **انى أشتري المواد الخام من نيويورك طبعاً .. ولكن طريقة**

الطبخ هي المصرية .

- لماذا لم تتزوج حتى الان ؟

- **لان الزواج كان سيشغلنى عن النجاح فى عملى .**

- هل تعتقد أنك سعيد الان ؟

- **نحمدوه .. !**

والواقع ان قصة نجاح عطية .. بالاضافة الى القصة السابقة

نراها عن المعلم سكر .. يمكن ان تقودنا الى عدة نتائج هامة .

فالمصرى التقليدى عندما يوضع في ظروف التحدى يستطيع

ان يفعل المستحيل . انه يستطيع ذلك بشرط ان يتحرر من

نفسه . بشرط ان يتحرر من اتلال الصدا التى تراكمت فوقه ،

وطبقات السلاسل التى قيدت حركته . انه يستطيع ان يفعل

المستحيل رغم انه يدخل السباق بموارد محدودة واستعداد

متواضع للغاية . اننى استطيع ان اؤكد انه لولا هذا الاحساس بوجود التحدى .. لولا صعوبة كل شيء امام سكر وعطية .. لما كان ممكنا ان يصلنا الى تلك النتائج على الاطلاق .. انها مسألة تثير الاعجاب .. ولكنها ايضا تثير الدهشة .. فلو التجأت الى العقل والمنطق لكان يجب أن يفشل بطلا القصتين السابقتين فى حياتهما الجديدة فشلا مؤكدا . انهما - فى البداية - لم يملكا أى موهبة - أى كفاءة خاصة - يعرضانها على المجتمع الذى هاجرا اياه . لم تكن لديهما الموهبة ، ولكن كان لديهما شيء أكبر من الموهبة . كان لديهما الاصرار . والتصميم ... التحدى الامل - روح المقاومة .. مقاومة الظروف الصعبة والامكانيات المحدودة .

لقد القيا بنفسيهما وسط مجتمع لا يرحم .. مجتمع يعطيك كل القيمة اذا عملت ٢٤ ساعة فى اليوم .. ويسحب منك كل قيمة اذا اهملت ساعة فى اليوم . فلانه لا يوجد فى هذا المجتمع الجديد احد يعرفك .. ولا احد يجاملك .. ولا احد يتوسط لك ولا أحد يعطف عليك .. ولا أحد يهتم امرك أصلا .. فانك فى تلك الحياة الجديدة لا تملك غير يديك واسنانك وعقلك .. هذا كل ما تملكه .. كل ما تدخره . كل ما تبدأ به الحياة الجديدة . ان المحيط وراءك . والنجاح امامك . ان الفاشلين تحت قدمك والناجحين فوق رأسك . انك لا تملك بين القاع والقمة سوى عقل تفكر به .. وفكرة تؤمن بها . هذا راسمال كاف جدا .. مادام التصميم موجودا والارادة موجودة .. وروح النضال موجودة

اننى اجد ان هذا التفسير الوحيد المقبول للنتائج التى وصل اليها سكر وعطية وعشرات غيرهم انه التفسير الذى كنت انتهى اليه فى كل مرة اسمع او ارى او المس بنفسى النتائج التى حققها احد هؤلاء المصريين الذين هاجروا رغم انهم ..

ان سكر وعطية لا يمثلان اغرب نموذجين يمكن ان تقابلهما . هناك مثلا نموذج ثالث ، ولكن لم اقبله شخصيا .. لهذا لم اكتب قصته بالتفصيل .. رغم انى سمعتها من مئات المصريين وغير المصريين الذين قابلتهم فى امريكا .

ان هذا النموذج الغريب اسمه : احمد ابو العيلة . انه لم يكن اكثر من فقى ! نعم . شيخ معمم بالجبة والقفطان والمصحف فى يده وكل انوايا الحسنة فى رأسه . ان احمد ابو العيلة هو

الآن مهاجر مصرى يعيش فى نيوجيرسى بالولايات المتحدة . يعيش بعقل مع مصر وزوجة من امريكا . نعم . . زوجة مستر « ايللا » . . هكذا يسميه الامريكيون ، هى امريكية وتعمل فى سلاح الطيران الامريكى . ان زوجة المستر ايللا - الشيخ ابو العيلة سابقا - هى ضابطة برتبة كولونيل ! انها الان مسلمة ، وزوجة ، وام وكولونيل ، وتساعد زوجها احيانا فى محل البقالة الذى يملكه ، وتستطيع احيانا ان تقرأ بعض الآيات فى المصحف الذى يحمله زوجها دائما !

لقد كان من المفروض ان اقابل هذا الرجل المصرى - احمد ابو العيلة . . وبعد ان حصلت على رقم تليفونه فعلا من عم لبيب الرجل العجوز الطيب الذى يعمل موظفا بوفدنا فى الامم المتحدة . . اكتشفت ان الرقم قد تغير . . وان الوقت امامى لم يعد يتسع للبحث عن الرقم الجديد . . الا على حساب المواعيد الاخرى التى ارتبطت بها فى الاسبوعين التاليين . لهذا لم اذهب ولم اقبله . . ولكن ماسمعت عنه كان يكفى جزئيا للحديث عن هذه الظاهرة التى لمستها فى المصريين المهاجرين الاوائل الى امريكا .

فمن خلال النموذجين اللذين تكلمت عنهما فى البداية . سكر وعطية - ثم النموذج الثالث الذى سمعت عنه فقط ولم اقبله . . احمد ابو العيلة . . تستطيع ان تحدد بالضبط طابع الجيل المصرى الاول الذى هاجر الى امريكا . انه جيل يتكون من اناس هاجروا بالصدفة او - بالكثير - هاجروا وهم ينوون فى عقلهم الباطن ان يجعلوها غيابا مؤقتا . . هجرة مؤقتة . . تجسربة لا تضر . . اذا نجحوا كان بها . . واذا لم ينجحوا عادوا الى ما كانوا فيه . .

انهم اذن جيل وضع نفسه وسط ظروف اكبر منه . . واكبر من طاقته . . فلم يكن لديهم بديل سوى التقدم الى الامام او الموت فشلا . . ان هجرتهم لم تكن محسوبة . . انها كانت مجازفة اكثر مما كانت مغامرة . . ولكنها انتهت الى نتائج طيبة رغم انها كان من الممكن الا تصبح كذلك .

xxx

ان هذه الصفات كلها اختفت من الجيل التالى من المهاجرين المصريين . فمن النادر ان يهاجر الآن نموذج اخر مثل سكر او عطية . ان الهجرة اصبحت فى معظم الحالات الان مغامرة وليست مجازفة . وحتى بعد ان اصبحت مغامرة فهى مغامرة محسوبة مقدما بشكل او باخر .

والمهاجر لم يعد شخصا مجردا من اى تعليم .. فاقلنا لاي كفاءة . لقد أصبح شخصا متعلما كفتا ، يريد عملا أكثر مما يبحث عن تجربة ..

ان هذا الجيل التالى من المهاجرين تستطيع ان تلمسه من خلال نماذج كثيرة بين المصريين الذين يعيشون الان فى امريكا . اننا نستطيع ان نأخذ هذه القصة نموذجا على ذلك .

أمير ادوارد سابا . مصرى مهاجر . يعمل الآن مصمما لبرامج العقل الالكترونى فى نيويورك .

ان أمير هو شاب مصرى تخرج فى كلية تجارة عين شمس منذ ست سنوات فقط . أول عمل له كان محاسبا بشركة الشرق للمقاولات وآخر عمل هو محاسب بشركة الطيران العربية المتحدة ان البحث عن فرصة . كان بداية تفكير أمير فى الهجرة منذ ثلاث سنوات . ان تنفيذ قراره بالهجرة الى امريكا استغرق سنتين كاملتين . فى هاتين السنتين كان أمير يعد نفسه - علميا - لمواجهة المستقبل المجهول الذى سيواجهه بعد هجرته . لقد التحق بالجامعة الامريكية فى القاهرة لكى يدعم مستواه فى اللغة الانجليزية ، والتحق ببرنامج للتدريب على العقل الالكترونى - فى القاهرة ايضا - لانه يريد سلاحا اضافيا معه يساعده على العمل بعد هجرته .

وعندما هبطت طائرة أمير فى نيويورك .. نزل هو منها لكى يرى امريكا لأول مرة . من اليوم التالى مباشرة بدأ يبحث عن عمل . ان أول شيء فكر فيه هو الذهاب الى وكالة توظيف .. فى الوكالة حددوا له اسم شركة يتوجه اليها فى اليوم التالى لكى يختبروه شفويا ويسالوه عن خبرته . الان فقط احس أمير بقيمة الاستعدادات العلمية التى زود نفسه بها قبل مغادرته القاهرة . ان مجرد تدريبه على العقل الالكترونى فى القاهرة اعطاه فرصة فى الحصول على هذا العمل الجديد اكبر من غيره . وبتعبير أمير نفسه « .. ان مرتبك هنا - فى امريكا - يزيد بنسبة تتراوح بين ١٥ و ٢٥ ٪ لو كنت حاصلا على برنامج تدريبى فى العمل الالكترونى » . ان أول مرتب حصل عليه أمير هو سبعة آلاف دولار فى السنة . ان مرتبه الآن قفز الى تسعة الاف دولار فى السنة . ان السبب فى ذلك هو ان أمير لم يهمل . فرغم انه وجد العمل فعلا .. الا انه بعد شهرين فقط من وصوله الى امريكا التحق بمعهد فى نيويورك للدراسة ببرامج أكثر تقدما فى العقل الالكترونى . برامج استمر فيها الى جانب العمل - لمدة ستة

اشهر ، كلفته خمسمائة دولار . . بعد انتهاء الدراسة استطاع
امير ان يحصل على عمله الحالى - مصمم لبرامج العقل الالكترونى
فى شركة متروبوليتان لايف للتأمين . واحدة من اكبر واحسن
شركات التأمين .

ان امير يعيش الآن مع زوجته فى بروكلين بمدينة نيويورك .
ان زوجته مصرية . فى الواقع انه تزوج فى القاهرة قبل هجرته الى
امريكا . . ولكنه لم يستدعها الى نيويورك الا بعد شهر من عمله
هناك . ان زوجة امير لم تتحول الى عبء عليه فى امريكا ، بل
اصبحت عاملا رئيسيا فى مساعدته هناك . ربما كان ذلك لانها
حاصلة على ليسانس الآداب قسم انجليزى . ربما لانها هى ايضا
فكرت معه فى الهجرة الى هناك . ربما لان قدرتها على التكيف مع
المجتمع الجديد كانت اكثر من غيرها . المهم ان زوجة امير نفسها هى
الآخرى حاليا موظفة فى « بنك مونتريال » بمدينة نيويورك . ان
امير وزوجته يعيشان الآن فى شقة متوسطة بمدينة نيويورك -
الايجار مائتا دولار فى الشهر . . رغم انه من أهم المشاكل التى
واجهتها عن البحث عن شقة فى البداية هو ان صاحب المنزل - كما
هى العادة دائما فى امريكا - يطلب منك شهر تأمين وشهر مقدم
وشهر ايجار - اى ان عليك ان تدفع ايجار ثلاثة اشهر فى الشهر
الاول . ومع ذلك فان امير يرى ان الشخص الامريكى العادى
هنا يحاول ان يفهمك ويتعاطف معك ويساعدك ويقدر فيك
حرصك على تعلم شىء جديد باستمرار . هذا هو ما لمسته من زملائى
ورؤسائى فى العمل هنا . . مادمت تؤدي عملك جيدا وباخلاص
فانك ستحصل على تقدير الجميع . . وعلى الترقية ايضا .

ويقول امير ايضا « ان اجدادة اللغة الانجليزية تلعب دورا هاما فى
عثورك على العمل المناسب هنا . ليس هذا فقط ، بل ان هناك
اصطلاحات انجليزية فى كل مهنة لابد ان تكون ملما بها حتى لاتتصور
الشركة ان خبرتك غير كافية للعمل الذى تطلبه . ان اقل اعتراض
يثار فى هذه الحالة هو ما يقوله الامريكىون دائما عن مثل هذا
الشخص . انهم يقولون عنه انه : لا يستطيع ان يتفاهم ، .

× × ×

ومع اننا ربما نعود الى امير وقصته فيما بعد الا اننى اريد ان
اشير هنا ان النماذج الرئيسية الثلاثة فى هذا الفصل - سكر
وعطية وامير - يمثلون التغير الذى طرأ خلال سنوات قليلة على
طبيعة ونوع المصرى المهاجر الى الخارج - والى امريكا بالذات .
ان النماذج الثلاثة يمثلون اشخاصا ناجحين ، ولكن طبيعة

النجاح ومداه واسبابه اختلفت تماما خلال جيلين اثنين فقط من المهاجرين المصريين الى امريكا . فحيث بدأ الجيل الاول من الصفر .. بدأ الجيل الثانى من نقطة أعلى من مجرد الصفر . وحيث بدأ الجيل الاول من مجرد تعلم اللغة بدأ الجيل الثانى من تعلم لغات العقل الالكتروني . وحيث هاجر الجيل الاول دون قصد .. هاجر الجيل الثانى بقصد الهجرة مقدما .. وحيث هاجر الجيل الاول بأقل استعداد وأقل تخطيط .. هاجر الجيل الثانى باستعداد أكبر وتخطيط أكثر أحكاما .

ان الهجرة بالنسبة للجيل الاول كانت مجرد جملة اعتراضية فى حياته .. ولكنها بالنسبة للجيل الثانى كانت تغييرا نهائيا فى حياته ان الجيل الاول ذهب يبحث عن حلم وردى اللون . حلم الثراء بقفزة واحدة . ولكن الجيل الثانى سافر بحلم وردى اللون ايضا ، ولكنه حلم أكثر تواضعا . انه مجرد الحلم بوظيفة اعلى !

ان هذه الجملة الاخيرة تشير فى الواقع الى عيب خطير فى الجيل الثانى من المهاجرين المصريين . فرغم أنه جيل أكبر استعدادا وأحسن تعليما وأكثر قدرة على المساومة .. الا انه يهاجر بحثا عن .. وظيفة . انه يترك فى مصر حياته وصداقاته وذكرياته وأسرته ووظيفته .. انه يسافر .. يهاجر .. ينتقل من مجتمع الى مجتمع .. من حياة الى حياة .. انه يركب السيارة والسفينة والطائرة .. انه يبدأ الاندماج مع اسلوب جديد .. وتفكير جديد . انه يفعل هذا كله ، لكى يصبح فى النهاية : موظفا ! ان المرتب اكبر .. والفرص اوسع والحياة أكثر تنوعا .. والنظرة للامور اوسع مدى .. ولكنه فى نهاية الامر مازال موظفا .

ان هذا يمثل عيبا خطيرا نجده فى المصريين فقط . انك لاتجده فى اللبنانيين أو السوريين . أو الفلسطينيين الذين يشكلون جالية اخرى كبرى فى امريكا اكبر من المصريين . جالية حملت عصاها على كتفها - فلم تكن لديها مجرد حقيبة واحدة - ورحلت الى امريكا منذ أكثر من مائة سنة مضت .

ان التطور الذى حققته تلك الجاليات فى امريكا خلال مائة سنة .. اختصره المصريون لكى يتم فى عشرين سنة فقط ، مع فروق كثيرة فى النتيجة طبعاً ..

ان اهتمامنا الآن سوف يتحول فى الفصل التالى الى تلك الجالية الاكبر عددا .. والاكثر حركة .. الجالية العربية فى امريكا . ان الاهتمام بالعرب ككل .. يمكن ان يلقي لنا اضواء على المصريين - كجزء - الذى هاجروا الى امريكا ..

العرب في أمريكا .. مايوتس .. مع وقف التنفيذ !



١٨٤٠

• مرفأ نيويورك

٣٠ ابريل

صباح السبت

كل شيء هادئ في ميناء نيويورك • المراكب راسية على الارصفة
لا احد يعمل في الميناء •• فالיום عطلة اسبوعية • لا احد من عمال
التشحن • لا احد من عمال التفريغ •• ما عدا عشرين او ثلاثين
عاملا •• وقفوا على الرصيف في انتظار شيء ما • على بعد خطوات
قليلة يقف عمدة نيويورك ، والى جانبه مدير الميناء ورئيس عمال
التفريغ • ان الحديث بينهم يسير في اتجاه واحد •• من العمدة الى
المدير الى رئيس العمال • كل شيء سوف يكون جاهزا •

صوت بوق ينطلق من تلك النقطة التي يتطلعون اليها في الافق مرتين
بوق ينطلق من تلك النقطة التي يتطلعون اليها في الافق مسرتين
وثلاث مرات . انها هي . نعم . . هي بالضبط . . السفينة التي
وقف الجميع في انتظارها من الصباح الباكر .

بعد قليل اصبحت تلك السفينة راسية على الرصيف . مدير
الميناء يتأكد من اسم السفينة المكتوب في المقدمة . نعم - اسمها
« السلطنة » . رئيس العمال يصعد مع اثنين من مساعديه الى ظهر
السفينة لالانتهاء من الاجراءات الادارية بسرعة . ان قائمة البحارة
طويلة : واحد ، اثنين ، ثلاثة ستة . . . ستة وستين . مضبوط
٦٦ بحارا . قائمة البضائع المستخدمة داخل السفينة هي ايضا
طويلة : بهارات . . بن . . عاج . . بلع . . هدايا . . سجاجيد
. . سجاجيد فارسية . . م هذه شحنة ثمينة ، ! هكذا يتمم رئيس
العمال فالسجاجيد نادرة هنا . . خصوصا اذا كانت فارسية .

وفي نفس الوقت كان العمدة - عمدة نيويورك - قد صعد الى
السفينة لكي يرحب بضيفه الكبير .

- « اهلا وسهلا . . بمستر احمد بن نعمان . . ممثل فخامة
السلطان سيد سعيد . . سلطان مسقط وزنجبار . اننى باسم سكان
نيويورك الثلاثمائة الف . . وباسم رئيس جمهورية الولايات المتحدة
مارتن فان بورين . . وباسمى ارحب بك كأول ضيف عربى رسمى
فى مدينتنا ،

ويرد احمد بن نعمان : « اننى باسم سلطاننا المفدى الشيخ
سيد بن سعيد . . أشكرك . وارجو أن اتمكن من مقابلة فخامة
رئيس الولايات المتحدة ، لانقل اليه تحيات سلطاننا وهداياه التي
احملها تعبيرا عن تقديرنا لبلاد الامريكان . . »

وبسرعة يقول العمدة : « نعم بكل تأكيد ياسيدى . اننا ايضا
لدينا الهدايا التي نود أن نرسلها الى فخامة السلطان . . كما اننا
سوف نقوم بتجديد هذه السفينة السلطانية التي حملتكم الى هنا .
تفضل ياسيدى . . تفضل . . فاصحاب المقامات الرفيعة ورجال
الاعمال فى مدينتنا ينتظرون ذلك لتقديم تحياتهم » .

× × ×

وعندما نزل احمد بن نعمان من سفينته السلطانية فى ذلك اليوم من
شهر ابريل سنة ١٨٤٠ ، نزل بعبايته الواسعة وعقاله العربى ،
وعينييه المتجولتين ، نزل سائرا على البساط الاحمر المفروش له على
ارض الرصيف . ونزل ليكون أول عربى على مستوى عال يصل الى
هذه الدنيا الجديدة . . بهدف اقامة اول علاقات تجارية بين بلد عربى

.. وبين هذه البلاد الامريكية الجديدة . زيارة مازالت ترمز اليها
الآن تلك الصورة الفخمة المرسومة لاحمد بن نعمان ، والمعلقة اليوم
في مكتب لجنة الفن بقاعة مدينة نيويورك .

وعندما قام احمد بن نعمان في تلك الزيارة بتفقد احياء مدينة
نيويورك .. لم يكن يتصور أن واحدا أو اثنين من هذه الاحياء نفسها
سوف يصبح فيما بعد مقرا لآلاف متزايدة من المهاجرين العرب
الى أمريكا .

انه لم يكن اول عربي يصل الى الولايات المتحدة . لقد سبقه
عربي آخر الى عبور الاطلنطي قبل ٧٢ سنة . عربي اسمه القس
الياس الموصل . جاء وقضى ١٥ سنة يتجولا في الولايات المختلفة،
قبل أن يعود من جديد الى بلاده .

ولم يكن احمد بن نعمان ايضا آخر عربي يضع اقدامه على تلك
الارض التي تقع في الجانب الآخر من العالم . وانما كان قدومه
بداية لقدوم عرب كثيرين الى هذه الدنيا الجديدة بهدف التجارة .
ومن الآن فصاعدا سوف نلمح من وقت لآخر بعض الاسماء العربية
ضمن قوائم المسافرين القادمين الى نيويورك . سوف نلمح مثلا اسم
القس كافوري قادما من سوريا الى نيويورك في سنة ١٨٤٩ .
وسوف نلمح ايضا في شوارع نيويورك المزدحمة رجلا آخر يتجول
مرتديا الملابس العربية المميزة - العباية والعقال - ونكتشف ان
اسمه هوانطون بشلاني .. سوري من بيروت ، فلم تكن هناك بعد
دولة اسمها لبنان .

وبعد ١٦ سنة فقط من زيارة احمد بن نعمان سوف نسمع عن
صفقة ضخمة أبرمتها حكومة الولايات المتحدة الامريكية مع
الامبراطورية العثمانية . بمقتضى هذه الصفقة وصلت الى أمريكا
سفينة بضائع تسمى « سابلای » ، حاملة على ظهرها ٣٣ جملا تم
شراؤها من الجزيرة العربية لكي تستخدمها الحكومة الامريكية في
تسهيل السفر داخل الولايات المختلفة في الجنوب الغربي . مع
هذه الشحنة وصل أيضا اثنان من المرافقين الاتراك وثلاثة من
الاعراب . مهمة تدريبية . ان واحدا من هؤلاء الاعراب اسمه
« الحاج على » .. ولكن الاسم تحول - على الطريقة الامريكية -
ليصبح « هي جولي » ! هكذا سجل الاسم عندما عين الحاج على
فيما بعد موظفا في الحكومة الامريكية . العمل : كشاف .

وحتى الان كان العرب المسافرون الى أمريكا يذهبون الى هناك
لاهداف تجارية أساسا . انهم عرب .. تجار .. يهود أو مسيحيون
.. نادرا مسلمون .. يعبرون الاطلنطي لكي يعودوا الى بلادهم بعد

فترة تطول أو تقصر حسب نوع التجارة التي يزاولونها . ان سفر هؤلاء الى أمريكا في البداية كان ضروريا قبل ان تبدأ الهجرة الى أمريكا في السنوات التالية . ففي كل مرة يعود واحد من هؤلاء التجار الى قريته بسوريا أو لبنان . . فانه يحكى القصص والاخبار عن أمريكا . . عن تلك الدنيا الجديدة . . عن الذهب المكتشف والاراضى الواسعة والمزارع الضخمة والتجارة المزدهرة .

وسرعان ما بدأ المهاجرون العرب يتجهون الى أمريكا ابتداء من سنة ١٨٦٥ فما بعدها . لقد ذهبوا بالآلاف في البداية ثم بالآلاف قبل نهاية القرن التاسع عشر .

X'X X

وحتى قبل نهاية القرن التاسع عشر - حتى سنة ١٨٧٥ - كان المهاجرون العرب القادمون من سوريا قد بدأوا يفتتحون فسادق متزايدة في نيو أورليانز . . ولويزيانا . . ونيويورك . . لكي يستقبلوا فيها مواطنيهم القادمين من الشام .

ان هؤلاء القادمين الجدد لم يأتوا الى أمريكا بدافع الهجرة . . او بنية عدم العودة . لقد جاءوا على اعتبار انهم سوف يقضون هنا - في أمريكا - عدة سنوات . . ثم يعودون من جديد الى قراهم وعائلاتهم في الشام . لهذا جاءوا بعد ان تركوا غالبا كل حيازاتهم في رعاية اسرهم التي ما تزال تنتظر في الشام .

ان السوريين المهاجرين - مع مراعاة ان هذا الاسم يشمل اللبنانيين ايضا - كانوا يتجهون اولا الى مدينة نيويورك . ربما يقعون فيها . وربما ينتقلون منها الى ولايات اخرى بعد ذلك . مسألة ظروف . ان نيويورك هي محطة الوصول بالنسبة للجميع ، ومحطة العمل بالنسبة للاغلبية . لهذا فقبل ان تنتهى سنة ١٩٠٠ كان عدد السوريين المهاجرين المقيمين في مانهاتن وبروكلين بمدينة نيويورك قد تجاوز رقم العشرة الاف . ان كل هؤلاء المهاجرين . . كل هؤلاء القادمين من مدن وقرى الشام . . كانوا اصحاب قصة واحدة ، وبداية واحدة ، مع ان نهاية كل منهم كانت مختلفة .

ونحن نستطيع ان نأخذ مثلا قصة هذا المهاجر السوري . . بطرس سعد . ان سعد شاب ترك قريته في الشام ليصل الى نيويورك مع وصول العاصفة الثلجية سنة ١٨٨٨ . لقد وصل ليجد اولا ان نيويورك ليست مدينة الذهب ، ولكنها مدينة الثلج ، لقد جاء - ليس بهدف الاستيطان هنا نهائيا - ولكن بهدف تكوين اكبر ثروة ممكنة في اقصر وقت ممكن . . ثم يعود بعدها الى قريته

يعود ليشتري قطعة ارض ويبني منزلا ويتزوج ويصبح رب أسرة انه لم يعد الى قريته .. ولكن هذا ما كان في رأسه على أى حال يوم وصوله الى نيويورك في تلك الايام الباردة من سنة ١٨٨٨ . وفى نيويورك نصح المجربون السابقون هذا المهاجر الجديد ورفاقه الاربعة بالاتجاه الى الداخل .. الى الولايات الاخرى .. والعمل كباعة متجولين . ان احدا منهم لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية .. وربما كان هذا العمل احسن طريقة بالنسبة لهم لكى يتعلموا الانجليزية من واقع الحياة الامريكية .

وفعلا .. بدأ سعد رحلته في ولايات امريكا كبائع متجول .. يشتري البضائع بالجملة وبيعها بالقطاعى . ان رحلته - مع رفاقه الاربعة استمرت ثلاث سنوات . فى تلك السنوات قام الرجال الخمسة بالتجول ، بالبيع والشراء ، وتعلم اللغة الانجليزية . بعد السنوات الثلاث عادوا الى نيويورك . قليل من الاستقرار ثم التحقوا بمدرسة مسائية . بعد فترة بسيطة عاد سعد الى عمله كبائع متجول . هذه المرة انحصر تجوله فى ولاية كاليفورنيا . من كاليفورنيا عاد الى نيويورك من جديد لكى يبدأ نفس الدائرة . بداية ونهاية .

وقبل ان يغادر سعد نيويورك هذه المرة . كان قد بدأ يحس انه قد أصبح ثريا بشكل ما . وكتعبير منه عن هذه الثروة .. ارسل حوالة بريدية الى اخيه فى سوريا .. حوالة بمبلغ مائتى دولار . وفى اليوم التالى لوصول هذه الحوالة الى الاخ المتلهف المنتظر فى سوريا .. كان اربعون سوريا - من أسرة بطرس سعد واقربائه قد حزموا امتعتهم مهاجرين الى نيويورك .. ليكونوا فى رعاية اخيهم الذى أصبح مستوطنا هناك .

× × ×

بهذا الشكل استطاع عدد المهاجرين العرب فى امريكا - سوريين لبنانيين ان يصل الى ربع مليون شخص قبل نشوب الحرب العالمية الثانية .

ومن المفيد هنا ان نتساءل : ماهو نموذج الاشخاص الذى كان يغلب على تلك الهجرة ؟ ماهو نوع الكفاءات التى كان يتمتع بها ؟ وماهى الاعمال التى كانت متاحة امامه ؟ ..

ان معظم العرب الذين هاجروا الى امريكا فى الحسب العالمية الثانية كانوا : فقراء غير متعلمين غير مهرة غير مدربين ويحترفون الزراعة أو التجارة ويجهلون اللغة الانجليزية . ان نصفهم انتهى به المكان الى الولايات الجنوبية فى امريكا .. حيث الحاجة الماسة الى

عمال للمزارع بأجور منخفضة .. وحيث استطاع بعضهم ان يشتري بعد فترة مزرعته الخاصة في ولايات جورجيا .. او تكساس .. او تينيسى .. او ميسيسبي او نيومكسيكو او اريزونا وربعمهم تقريبا استقروا في ولايات الشاطئ الشرقي لامريكا .. في نيويورك .. او نيوجرسي .. او بنسلفانيا .. او نيوانجلاند . اما الباقون فقد عملوا كباعة متجولين في مختلف الولايات .. افتتحوا محلات بقالة .. او عملوا في البارات والجراجات والمطاعم والحقيقة المؤكدة بعد هذا كله انهم جميعا واجهوا في البداية ظروفًا اقتصادية صعبة .. بلغت قمته في سنوات الكساد العظيم بأمريكا في أواخر الثلاثينات . لقد وجدوا امامهم المشاكل والحواجز والعقبات . لقد ذاقوا احيانا قسوة الفقر ومرارة الجوع . لقد تعرضوا للاستغلال بواسطة التجار الجشعين الذين اعطوهم اقل القليل . ولكنهم - قليلا وبالتدرج - استطاعوا ان يتغلبوا على الهزيمة المؤقتة . ان الكساد لم يجرفهم ، لانهم كانوا فقراء أصلا . غير مهرة أصلا . لهذا استطاعوا البقاء حتى تمر العاصفة . وحينما حدث فيضان البطالة استطاع كل منهم ان يطفو برأسه - رأسه فقط - فوق تيار البطالة . ومثلما يحدث في البحر حينما تهب العاصفة .. حيث تنجو القوارب الصغيرة من الفرق .. فانهم استطاعوا النجاة بأنفسهم في الوقت الذي غرق فيه غيرهم . واستطاعوا العمل . حينما تعطل غيرهم .

انهم لم يعودوا الى بلادهم لانهم لم يستطيعوا قبول الياس كنتيجة أخيرة لهذه الرحلة الطويلة ، ههنا جزء من سيكولوجية المهاجر عندما يواجه هذا الموقف . ان الياس معناه الفشل .. والفشل معناه الهزيمة . والهزيمة معناها ان تبسدا ((شماتة)) الاعداء .. ويختفى اعجاب الاصدقاء والاقرباء . لهذا لم يكن امامهم بديل عن العمل - والعمل الشاق . ان اختيارهم لمهنة التجارة المتجولة مثلا هو احدى التصحيحات التي قبلوها حتى يتفادوا الياس والفشل والهزيمة . فان تكون بائعا متجولا في امريكا - في تلك الايام المبكرة في القرن العشرين - معناها ان تحمل بضاعتك على كتفك وتندق المنازل بابا بابا . ومع اشتغال العمال في امريكا وقتها ساعات طويلة بالمصانع والمزارع .. مع المسافات الطويلة التي كانت تفصل منازلهم عن المراكز التجارية . فان البائع المتجول في امريكا كان يعتبر بين الاوساط الفقيرة في تلك الايام زائرا مطلوبا في اى منزل انه صديق ياتى بالبضائع المطلوبة ، مثلما ياتى ايضا بالاخبار المتناثرة ان السوريين واللبنانيين الذين مارسوا هذا العمل اكتشفوا

الولايات المتحدة مرد ومرة من شاطئ الى شاطئ . لقد تجولوا في أمريكا ولاية ولاية .. مدينة مدينة .. شارعاً شارعاً .. منزلاً منزلاً . ان هذا السوري ، هذا اللبناني المهاجر .. هذا البائع المتجول .. كان يظل طوال النهار يبيع .. ويتجول الى ان يحسب مكافأته في آخر الليل . أنها مكافأة لا تزيد عن وجبة ساخنة ومكان ينام فيه . انه يسكن في بيت مزدحم بزملائه المهاجرين العرب المتجولين مثله . بيت مزدحم بقدر ما تتسع الأرض لأجسامهم النائمة . انهم ينامون معا .. يأكلون معا .. يواجهون المصير المجهول معا في هذه الأرض الجديدة معا .

لم يكن أمام السوري أو اللبناني المهاجر بديل عن تلك الحياة الشاقة . انه معدم الثروة .. محدود المعرفة .. جاهل باللغة . لهذا كان محتاجاً الى مثل هذا الحل للتفاهم مع المجتمع . ومع قبوله بالأجر المخفض واستعداداته للحياة عند حدها الأدنى ، فان تاجر الجملة كان محتاجاً له .. محتاجاً لتشغيله كوحدة بيع مستقلة .. بأقل التكاليف .

وأحياناً كان هذا اللبناني البائع المتجول يصبح - بعد فترة من الوقت تاجر جملة . ساعتها كان يقوم باستدعاء مجموعة جديدة من أقربائه ورفاقه القدامى بسوريا ولبنان .. لكي يبدأوا معه نفس الدورة من جديد .. هو تاجر الجملة .. وهم الباعة المتجولون . ان الفارق في هذه الحالة هو أنه سوف يتولى رعايتهم بأكثر مما راعاه التاجر السابق . انه سوف يوفر لهم المسكن وسوف يتعامل باسمهم مع السلطات المحلية .. وسوف يفض نزاعاتهم ، ويحل مشاكلهم ويدخر لحسابهم . هكذا فعلت مثلاً سيدة لبنانية في مدينة سبرنجفيلد اسمها منتورة فرنجية . انها هي نفسها بدأت الحياة في أمريكا كبائعة متجولة .. قبل أن تصل - مع زوجها - الى تجارة الجملة . ان السوريين واللبنانيين في جيلهم المهاجر الاول بأمريكا - استطاعوا الوصول الى هذه النتيجة من خلال بدايتهم المتواضعة في التجارة المتجولة ، ومحلات البقالة والبارات والمقاهي والأطاعم ومحلات الجزارة والجراجات والمزارع والسكك الحديدية ان هذه النتيجة تبدو مذهشة . في الواقع ان مجرد استمرارهم يبدو مذهشاً - لو تذكرنا المستوى التعليمي المنخفض جداً الذي بدأوا منه حياتهم في أمريكا . مستوى لم يضمّن - في الغالبية العظمى من الحالات - مجرد معرفة عشر كلمات من اللغة الانجليزية

مستوى فرض عليهم - عند وصولهم الى أمريكا - ان يدخلوا المجتمع من القاع تماما - من تحت القاع أحياتا . انهم .. عندما وضعوا اقدامهم على اول درجة في السلم .. تمكنوا . بأيديهم واقدامهم واسنانهم - من الوصول الى تلك الدرجة التي أصبحوا عندها في جيلهم الثانى جزءا من الاغلبية فى امريكا - جزءا من الطبقة المتوسطة .

ان الحواجز العالية الكثيرة التى واجهت المهاجرين السوريين واللبنانيين فى البداية كانت ضخمة . يكفى هنا جهلهم باللغة . يكفى ان نعلم ان ٩٧٪ من الجيل الاول فى أمريكا سجل ان تعلم اللغة الانجليزية كان اكثر المصاعب التى واجهته بالنسبة للاندماج فى المجتمع . فلانهم جاءوا بلا تعليم ولا لغة ولا كفاءة فقد كان كل شىء فى أمريكا يبدو لهم غريبا عليهم . كل شىء غريب .. كل شىء صعب الفهم .. مستحيل الادراك . ان تسكيفهم مع المجتمع فى البداية واجهته حواجز جعلتهم مضطرين الى التجمع معا - كأقارب او مجرد زملاء - فى مناطق سكنية متجاورة كاسلوب من أساليب الدفاع عن النفس ثقافيا . من هذا الدفاع بدأ تكيفهم مع المجتمع . بدأ من نقطة الصفر . واذاكن الحاجز اللغوى قد استطاع ان يؤخر اندماجهم فى المجتمع الجديد خلال جيلهم الاول .. فإنه - من ناحية أخرى - حافظ على تراثهم العربى الذى جاءوا به من مجتمعهم القديم .. من سوريا ولبنان . لقد جعلهم يسرعون الى اقامة أحيائهم الخاصة وبناء كنيستهم الخاصة ومسجدهم الخاص واصدار صحفهم الخاصة نعم .. لجأ السوريون واللبنانيون الى التركيز معا فى احياء خاصة ومنازل متجاورة . وأحياتا كانت هذه الاحياء تتحول الى « مستعمرات » لبنانية وسورية داخل مدن أمريكا . عندك شارع واشنطن مثلا فى نيويورك قبل سنوات .. وشوارع بروكلين فى نيويورك الان .

ولجأوا ايضا الى اقامة كنائسهم الخاصة ومساجدهم الخاصة ونواديبهم الخاصة . ان معظم المهاجرين العرب الاوائل الى أمريكا كانوا مسيحيين ان المهاجر العربى المسلم كان يجد نفسه هنا من البداية . اقلية . ولكن العربى المسيحى كان يجد نفسه - ايضا - اقلية . ان الاثنين اذن كانا يشعران انهما فى موقف واحد من الدفاع الثقافى والروحى داخل هذا المجتمع الجديد . ان العربى المسيحى لم يجد فى كنيسة هذا المجتمع بديلا عن كنيسة هو .. لهذا استطاع ان يقيم خمسين كنيسة عربية فى أمريكا . والعربى المسلم

كان هو الآخر يجد ان بناء المسجد ضرورى بالنسبة له لى يحتفظ بترائه هنا . لهذا قام ببناء ١٧ مسجدا واربعة مراكز اسلامية في أمريكا . مراكز ومساجد تجدها الان في واشنطن العاصمة . . في ديترويت . . في ميتشجان . . في لوس انجلوس . . في نيويورك . . في شيكاغو في بنسلفانيا الخ

وقبل ان يتم بناء اول مسجد اسلامى في أمريكا سنة ١٩١٩ . كانت الكنيسة العربية قد بدأ بناؤها في أمريكا قبله بعشرين سنة ان الفارق الزمنى لم يكن هاما . لان الكنيسة والمسجد لم يكونا مجرد كنيسة ومسجد بالنسبة للعربى المهاجر سواء كان مسيحيا أو مسلما . لقد كانت الكنيسة أكثر من مجرد كنيسة ، والمسجد أكبر من مجرد مسجد . ان كليهما كان رمزا للتاريخ ، رمزا لحضارة . . اتراث . . لثقافة . . رمزا لارتباط روحى بأسرة ومنزل وارض تقع هناك بعيدا . فى الشرق الاوسط . لهذا كان المسجد والكنيسة بديلا عن الآخر . حيثما وجدت الكنيسة فهى بيت للمسلم والمسيحى . حيثما وجد المسجد فهو رمز واحد عند المسيحى والمسلم . انها سيكولوجية الاقلية - الاثنان معا اقلية - ضمن هذا المجتمع الجديد . انها سيكولوجية الدفاع عن النفس . انها نفس السيكولوجية التى وقفت وراء اصدار اللبنانيين والسوريين لصحفهم الخاصة . صحف باللغة العربية بدات الجالية المهاجرة من اللبنانيين والسوريين فى اصدارها داخل أمريكا نفسها ان مشاكل الحياة وضرورات التكيف مع المجتمع الجديد لم تمنع هؤلاء المهاجرين الاوائل من اقامة نشاط ثقافى مشترك .

وكالعادة دائما . . كانت الصحافة هى اول تعبير عن هذا النشاط . . فبدات الجالية العربية فى نيويورك اصدار صحيفة ((كوكب الشرق)) . . كأول جريدة باللغة العربية فى أمريكا . بعدها تتابع صدور الصحف العربية على مر السنين : جريدة ((الايام)) مثلا . الناشر : يوسف معلوف . جريدة ((الاصلاح)) الناشر شبلى داموس . جريدة ((الهدى)) الناشر : اخوان مكرزل . جريدة ((مرآة الغرب)) . الناشر نجيب دياب . جريدة ((السائح)) . الناشر : عبد المسيح حداد . جريدة ((السهر)) . الناشر : ايليا ابو ماضى .

ان هذه الصحف وغيرها كثير لعبت دور الرمز المشترك ، التعبير المشترك ، اللسان المشترك . . . هؤلاء المهاجرين الاوائل القادمين من الشام . . بالاضافة الى دورها التقليدى فى ربط المتناثرين منهم معا .

وقبل أن ننتهى سنة ١٩٢٠ كان هذا التعبير الثقافى المشترك قد امتد خطوة أخرى الى الامام .. عندما قام بعض المثقفين العرب - الان بدأ وجود المثقفين العرب - فى تشكيل جمعية اسموها «رابطة الكلاميات» . رابطة لاهل الشعر والنثر منهم . ان انتاجهم من الشعر كان يعكس روحا رومانتيكية بلهجة ميتافيزيقية مع شىء من الواقعية فى انتاجهم الادبى من النثر . ان المجموعة المؤسسة لتلك الرابطة تقابلت اولاً فى منزل جبران خليل جبران فى مدينة نيويورك . مجموعة كانت تضم أسماء لامعة من المقيمين فى المهجر .. من بينهم مثلاً : ميخائيل نعيمة .. عبد المسيح حداد .. أمين الريحاني .. وايليا أبو ماضي .

ومن الان فصاعدا سوف تبدأ عجلة الحياة فى الدوران بهؤلاء المهاجرين العرب فى أمريكا . ان الحواجز العالية امامهم تتساقط واحدا بعد الآخر . ان تفاهمهم مع المجتمع بدأ يصبح أسهل . . ان لغتهم الانجليزية بدأت تصبح كافية . ان عددهم ينمو بسرعة . ان ضعفهم الاقتصادى يتجه تدريجاً نحو القوة . ان احياءهم الفقيرة تتحول ببطء الى مساكن انظف . ان اعمالهم المتواضعة بدأت تتحول الى تجارة واسعة . لهذا بدأ عدد منهم ينمو الى درجة تسمح له بالانتقال من شارع واشنطن فى نيويورك الى الشارع الخامس - شارع البنوك ورجال الاعمال فى مدينة نيويورك . فى هذا الشارع تتابع ظهور عدد متزايد منهم : سليم ملوك - مسنورد . عائلة البردويل - تجار . عائلة جبارة - تجار . نعيم قادرس - مستورد للسجاجيد الفارسية البير سليمان واخوان عطية . . مستوردون أيضاً للسجاجيد الفارسية .

ان هذه الأعداد المتزايدة فى المهاجرين اللبنانيين والسوريين قد بدأت تتصرف الان بنية الاستيطان . ان كلا منهم قام باستدعاء أسرته و « استيراد » زوجته من قرينته الأصلية فى الشام . زوجة جاء بها لكى تساعد فى ادارة محل البقالة الذى أصبح هو مالكة أو محطة البنزين التى أصبحت صاحبها أو محل الازياء الذى يملك رأساله .. انهم يشكلون لانفسهم النوادى والجمعيات الخيرية . انهم يجمعون من بعضهم التبرعات لاقامة كنيستهم الخاصة أو مسجدهم الخاص .

ان تأثيرهم فى المجتمع وعملهم لنموه يبدأ فى الظهور شيئاً فشيئاً .. ان المجتمع نفسه يعبر عن تقديره لهم بطريقة تنمو مع نمو نشاطهم . فعندما تحتفل الجالية اللبنانية السورية فى مدينة سبرنجفيلد مثلاً بمرور ٢٥ سنة على قدوم عميدهم الى المدينة -

احتفالا جرى في سنة ١٩٣٨ - ان الاحتفال يحضره عمدة المدينة والشريف ومساعد النائب العام وبعض اعضاء الكونجرس ورجال الكنيسة الكاثولوكية .. ولكن .. عندما تحتفل نفس الجالية - في نفس المدينة .. بعد ٢٥ سنة اخرى - بمرور خمسين سنة على قدوم عميدهم الى سبرنجفيلد - فان الاحتفال يحضره حاكم الولاية .. بالاضافة الى عمدة المدينة وبعض اعضاء الكونجرس و .. رسالة تهنئة من البيت الابيض !

انهم الان - المهاجرون العرب في امريكا - اصبحوا من القوة والعدد بما يسمح لهم بالتحول الى جزء هام من المجتمع الامريكى .
وحيثما ننظر الان الى تجمعاتهم واعدادهم فسوف نجد فورا رقما مذهشا .. سوف نجد ان عدد العرب المهاجرين الان في امريكا ، او الامريكين الحاليين ذوى الاصل العربى ، قد وصل الى رقم المليون . وسوف نجد انهم متناثرون في عدد من ولايات امريكا على النحو التالى :

اريزونا ٢٠٠٠ - كاليفورنيا ٢٠٠٠ - كونيتيكت ١٧٠٠٠ - فلووريدا ٢٠٠٠ - جورجيا ١٢٠٠٠ - اليانوير ١١٠٠٠ - انديانا ٢٢٠٠٠ - ايووا ٢٠٠٠ - كانساس ١٠٠٠ - كنتوكى ١٢٠٠٠ - ماريلاند ١٠٠٠ - ماساشوستس ١٤٠٠٠ - ميشيجان ١٤٠٠٠ - مينيسوتا ١٠٠٠ - ميسورى ٢٠٠٠ - نيو انجلاند ٢٠٠٠ - نيوجيرسى ٢٠٠٠ - نيوميكسيكو ٢٠٠٠ - نيويورك ١٢٠٠٠ - اوهايو ٢٦٠٠٠ - اوكلاهوما ١٤٠٠٠ - بنسلفانيا ٢٠٠٠ - داكوتا الجنوبية ١٥٠٠٠ - تينيسى ٢٠٠٠ - فيرجينيا ١٨٠٠٠ - ولايات اخرى ٤٠٠٠ - المجموع = ٨٨٠٠٠ .

ان هؤلاء الـ ٨٨٠ الف عربى يضاف اليهم مائة الف اخرون هاجروا الى الولايات المتحدة فى السنوات العشر الاخيرة . وبذلك يصبح العدد الاجمالى للمهاجرين العرب فى امريكا حسب آخر احصاء هو ٩٨٠ الفا . أى انه من بين كل مائتى مواطن امريكى الان .. سوف نجد مواطنا واحدا عربيا ، او امريكيا من اصل عربى .
ان هؤلاء المهاجرين وصلوا الى امريكا فى أربع موجات متتالية :

● **الموجة الاولى :** هم الذين تكلمنا عنهم فى بداية هذا الفصل - هؤلاء المزارعون او التجار الفقراء الذين سافروا الى امريكا حتى نشوب الحرب العالمية الاولى . ان متوسط السن من مهاجرى تلك الموجة هو ٢٤ سنة ، و ٦٠٪ منهم كانوا غير متزوجين ، وعندما تزوجوا فلن ٨٨٪ منهم جاءوا بزوجاتهم من قراهم الاصلية .

● **الموجة الثانية :** هم الذين هاجروا الى امريكا بين سنتى ١٩٢٠ الى ١٩٣٠ . وهؤلاء يتكونون اساسا من ابناء فلسطين الذين هاجروا الى الولايات المتحدة تحت ضغط الازمة الاقتصادية التى

نشأت من بداية سيطرة اليهود على كثير من قطاعات الاقتصاد في فلسطين بالإضافة الى قطاعات كبيرة من اقارب المهاجرين اللبنانيين والسوريين الاوائل . وهذه الموجة بدأت تشهد تحول المهاجرين من مجرد عمال .. الى اشخاص ينتمون الى الطبقة المتوسطة .

● **الموجة الثالثة :** بدأت تصل الى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٧ . وفي هذه المرة أصبح الفلسطينيون أغلبية في هذه الموجة من المهاجرين . لقد كان هذا يرجع الى المأساة التي قامت بها الحركة الصهيونية عندما طردت وشردت أكثر من مليون فلسطيني من بلادهم ..

ويضاف الى ذلك ان هذه الموجة بدأت تضم أيضا عددا من الاردنيين والمصريين - الان يوجد مصريون لأول مرة - ذهبوا الى الولايات المتحدة للعمل او التدريس والتدريب والتعليم .. ثم اختاروا البقاء . معنى ذلك ان هذه الموجة تقف على طرفي نقيض مع الموجة الاولى .. فبينما حملت الموجة الاولى مهاجرين غير متعلمين ، حملت هذه الموجة مهاجرين متعلمين أساسا . وبينما استقر المهاجرون الاوائل في أعمال التجارة المتجولة ، او الزراعة .. فان هذه الموجة اتجهت الى التبعثر في المدن الكبرى بولايات أمريكا .. لانها عملت بالتدريس او المهن الفنية المتخصصة في أنحاء أمريكا .. وابتداء من هذه الموجة فقط .. أصبح من النادر الآن ان نرى جامعة أمريكية أو حتى كلية .. بغير عضو عربي في هيئة التدريس .. أو حتى مجرد طلبة في الدراسات العليا ..

● **الموجة الرابعة :** بدأت منذ عام ١٩٥٧ ، وطوال السنوات العشر التالية . في تلك الفترة هاجر الى الولايات المتحدة سبعون ألف عربي ، يضاف اليهم ثلاثون ألفا منذ سنة ١٩٦٧ .. حيث ساعد قانون الهجرة الأمريكي الجديد الذي صدر في أول يوليو ١٩٦٨ على ان يقوم كثير من الأمريكيين ذوي الاصل العربي بجلب اقاربهم كمهاجرين .

ومرة أخرى نجد ان هذه الموجة يغلب عليها - أكثر من أي موجة سابقة - النموذج العربي المتعلم ، المتخصص المدرب . ونلاحظ أيضا انها تضم نسبة كبرى من المصريين الذين ذهبوا الى هناك - بحكم تعليمهم - ليصبحوا أساتذة في الجامعات أو أطباء أو مهندسين أو فنيين . وبعضهم أحرز شهرة واسعة في مجال عمله خلال سنوات قليلة من وصوله .

وسوف نلاحظ أيضا ان تمتع المهاجرين في هذه الموجة بكفاءات

تعليمية عالية ومتخصصة ، قد وضعهم في مركز قوة افضل .. من حيث القدرة على المساومة والحصول على فرص احسن او أسواق العمل بالولايات المتحدة .

وتستطيع ان تخرج من الموجات السابقة ايضا بأن المهاجرين العرب المقيمون في الولايات المتحدة الان يمكن تقسيمهم بشكل آخر: ● **اولا :** هناك مهاجرون منذ وقت طويل - يمثلون ثلاثة اجيال جدودا وآباء وابناء . وهؤلاء سوريون ولبنانيون في نسبتهم الكبرى ..

● **وثانيا :** هناك مهاجرون منذ وقت قريب نسبيا ذهبوا يبحثون عن العمل والاستقرار المعيشي ، ومعظمهم من الفلسطينيين والمصريين وبعض العراقيين والاردنيين .

ومن الطبيعي أن ينحصر كلامنا هنا عن القسم الاول ، أي المهاجرون الذين يرجع اصلهم في البداية الى لبنان أو سوريا . . هؤلاء هم الذين تكلمنا عنهم من البداية ، وهم الذين يمكن أن نتابع النتائج التي حققوها حتى الان . . كمهاجرين ، وهم الذين نستطيع مقارنة في النهاية بالمهاجرين الحديثين ، الذين وصلوا الى امريكا منذ مطلع الخمسينات .

اننا سوف نلاحظ أولا ان المشكلة الاولى للجيل الاول من المهاجرين اللبنانيين والسوريين كانت هي التكيف مع هذا المجتمع الجديد ابتداء من الصفر ، ابتداء من مجرد فهم اللغة الانجليزية نفسها . الان اختفت هذه المشكلة من الجيل الثاني ، جيل الابناء الذي ولد متجنسا بالجنسية الامريكية .

وسوف نلاحظ ايضا انه بعد أن كان الجيل الاول يتكلم اللغة العربية ويجهل الانجليزية ، أصبح الجيل الثاني - جيل الابناء الذين ولدوا بأمريكا - يتكلم الانجليزية ويجهل العربية . ان ٢٠٪ من هذا الجيل الثاني ، و ٧١٪ من ابنائه . . لا يفهمون ولا يتكلمون ولا يكتبون اللغة العربية .

وهنا سوف نضع أيدينا على ظاهرة غريبة . ان هذا الجيل الحالي من الابناء أكثر ارتباطا مع تاريخ وتراث واهتمامات امته العربية ، مما كان عليه آباؤه الذين هاجروا في البداية . انها ظاهرة لاحظتها أكثر من مرة في أمريكا ، رغم ان الآباء كانوا اقرب الى تاريخ بلادهم العربية من ابنائهم . ورغم ان الابناء يجهلون حتى الحديث باللغة العربية . ولكن وجه الغرابة يفتى عندما نعلم ان الجيل الاول كان أكثر اهتماما بتوفير الطعام منه بمتابعة قضايا بلده . . حكم اضطراري . كما اننا بالإضافة الى ذلك سوف نجد مثيلا لهذه

الظاهرة من الجيل الثالث للمهاجرين الالمان او اليابانيين في أمريكا خلال سنوات الثلاثينات والاربعينات .

ولو نظرنا الى هذا الجيل الحالي من المهاجرين ذوى الاصل اللبناني او السوري - في مقارنة مع الجيل الاول من ابائهم واجدادهم الذين جاءوا الى أمريكا قبل نهاية القرن التاسع عشر او في مطلع القرن العشرين . . فاننا سوف نضع أيدينا فوراً على اختلافات رئيسية بين النموذجين . . أوجه اختلاف . . واجه تشابه أيضاً .

فالمواطن الأمريكي الحالي . . صاحب الاصل اللبناني او السوري . . هو شخص يتحول تدريجاً الى الاعمال المتخصصة التي تحتاج الى كفاءات اكبر وتعليم اطول . . هذا خلاف . ولكنه مازال من ناحية اخرى يفضل أن يكون هو صاحب العمل وليس مجرد مستخدم . هذا استمرار . انه اذا لم يكن صاحب عمل . . فانه يسعى ليكون كذلك غداً . لهذا نجده الان قد اصبح فعلاً - أو هو في طريقه الى أن يكون - صاحب رأس المال في المقارنات، مشروعات التأمين ، الحلاقة ، الفسيل ، ومحطات الخدمة . . . انه الان - بعكس جده أو ابيه - متعلم . في الواقع ان تعليمه كان رد فعل للمشكلة التي واجهها جده وابوه . لقد انشغل ابوه عن التعليم في البداية بمشكلة أكثر إلحاحاً ، وهي مجرد البقاء حياً . . وعندما احس الاب بان عدم التعليم يحصره في مجال اختيار محدود للغاية . . أصر على تعليم ابنه حتى النهاية . . وبينما كان الاب ينفق معظم امواله على الطعام والملبس والسكن ، فان الابن الحالي اصبح لديه مايسمح له بشراء اسهم والمضاربة في البورصة والادخار لشراء منزل . . وبينما كان جده مشغولاً بالحياة ، وكان ابوه مشغولاً بالحياة السعيدة ، اصبح الابن مشغولاً بالحياة مع الثروة . . لقد كان جده يتكلم العربية ويجهل الانجليزية ويفهم العربية، اما هو فانه الآن يتكلم الانجليزية بطلاقة طبعاً - ويتكلم الفرنسية أيضاً - ولكنه لا يتكلم العربية ولا يفهمها . . انه الان ياكل الهامبرجر الأمريكي والسجق . . ولكنه في المنزل يفضل الطعام العربي كل يوم احد . ان مايمنع زوجته من تقديم الطعام العربي كل يوم هو الوقت الضيق . ومع ذلك . . فانه حتى في الايام العادية . . سوف تجده . . يتناول الطعام الأمريكي في منزله . . بعد اجراء التحسينات العربية عليه ، وبعد ان يحجز مكاناً على مائدته لطبق من الكسبة اللبنانية . .

انه الآن يستمع الى موسيقى الجاز خارج منزله والى فيروز - مع انه لا يفهمها - داخل منزله . انه يرقص التانجو كل اسبوع

• • • والديكة كل شهر • ان برأجه المفضلة في التليفزيون هي الاسنراضات والرياضة والاحبار وبعض البرامج السياسية • انه مع الحزب الجمهوري بحفظته ، ومع الحزب الديموقراطي بمواطني والده الذي رأى سنوات الكساد العظيم • ان عريزة الملكية في داخله اقوى ما يمكن • • جزئيا بسبب الرغبة في الأمن • • وجزئيا بسبب الأمل في الثروة • انه مؤمن في الاقتصاد بمبدأ ((دعه يعمل)) • وفي السياسة بمبدأ ((دعه يتكلم)) • وفي المسكن بمبدأ ((دعه يرفع الايجار)) • • لانه هو شخصا مالك لمنزل • ان كل زملائه امريكيون ، ومعظم أصدقائه لبنانيون ، وبعض جيرانه مصريون • انه يكره الفقر لانه لم يحصل على الترقية من الطبقة العاملة الا مؤخرا • وبينما بدأ جده حياته في أمريكا عاملا ، أصبح أبوه متوسطا ، وهو الآن يحاول ان يحتفظ بمكانه فوق الطبقة المتوسطة • ان احدى عينيه تنطلع الى قمة الجبل ، والعين الاخرى تفرع من العردة الى السطح •

× × ×

هذا هو المواطن الأمريكي ذو الأصل اللبناني السوري • • الذي أصبح اليوم نتيجة حيه لتلك الموجات الاولى من المهاجرين العرب ، التي ذهبت الى أمريكا قبل نهاية القرن التاسع عشر ومع بداية القرن العشرين • هذا هو المواطن الذي أصبح يمثل الآن — بعد أن لحق به مؤخرا مصريون وعراقيون وفلسطينيون واردنيون — مليون مواطن في أمريكا •

والسؤال الآن : لماذا اذن لا نسمع عن نشاط مؤثر لهذا العدد الضخم الموجود فعلا داخل أمريكا كمواطنين أمريكيين ؟ لماذا لا نسمع عن ضغط سياسي فعال لهذه الاقلية العربية الأمريكية ، يتساوى على الأقل مع ما تمارسه كل اقلية اخرى داخل دهايز السياسة الأمريكية ؟

ولكى يكون الأمر مفهوما • • فلا بد ان اقرر مبدئيا ان الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٧ ، ثم حرب ١٩٦٧ قد أدت الهزيمة العربية فيهما الى اذلال كل عربي في أمريكا بشكل مفرع ومريع • ان هذا يبدو اكثر وضوحا ، واكثر الما ايضا ، خصوصا بعد النكسة المروعة التي وقعت للعرب امام اسرائيل في تلك الأيام السوداء من سنة ١٩٦٧ • ان هذه الهزيمة قد جعلت هؤلاء المهاجرين ينقسمون في ردود فعلهم الى قسمين :

القسم الاول : وهو الاقلية • • يتكون من هؤلاء الذين راوا في الموضوع كله مجرد هزيمة عربية لا يمكن تبريرها ولا تفسيرها •

ان مصادرهم الرئيسية في المعلومات عنها وعن الاسابيع السابقة عليها تعتمد على الصحف الامريكية والتليفزيون الامريكى - وهذا القسم كان رد فعله السلبي هو التنكر مطلقا لاصله العربى .

القسم الثانى : وهو الاغلبية . . لم ير الهزيمة كمجرد مواجهة عسكرية تمت بين العرب واسرائيل ، ولكنه رآى ايضا الدور الامريكى السابق واللاحق في تأييد الوجود الاسرائيلى . ولقد كان رد فعل هذه الاغلبية هو فقدان الثقة في صحة السياسة الامريكية بالشرق الاوسط واهتزاز ايمانهم بصحة تمشى هذه السياسة مع المصالح الحقيقية لامريكا في الشرق الاوسط . ان هذه الاغلبية هي التى بدأت تعطى مجهودها لشرح وتفسير حقيقة الموقف في الشرق الاوسط للرأى العام الامريكى ، وهذات ايضا توفر قاعدة مبدئية تعمل منها المقاومة الفلسطينية لايراز الشخصية الفلسطينية في مواجهة الاحتلال الاسرائيلى . مواجهة تبدو على حقيقتها لأول مرة .

وقد بدا هذا النشاط يصب في تنظيمات جديدة تتكون ، او منظمات سابقة اعيدت اليها الحياة . انها منظمات تضم شخصيات امريكية واعية ، بالاضافة الى اعتمادها على الوجود العربى في امريكا .

ولكن . . يثور السؤال مرة اخرى : لماذا لم تستطع كل هذه التنظيمات ، على امتداد السنوات السابقة ، ان تخلق فعلا اتجاهات مؤثرة في الرأى العام الامريكى ؟ لماذا - برغم هذه التنظيمات - لم تستطع الاقلية العربية في امريكا ان تبشأر ضغوطا كالتى تبشأرها الاقلية اليهودية هناك ؟ لماذا - على الاقل - لم تنظم حركات احتجاج ضد وسائل الاعلام كالتى نظمها الايطاليون مثلا ضد برامج التليفزيون التى تصورها كمجرمين ؟

ان مثل هذه الضغوط - مثل هذه الجهود لشرح الحقائق - لاتبدا من الصفر هناك ، فهناك هذا المليون عربى . . وهى لاتبدا من القاع . . فالأساتذة العرب موجودون في كل الجامعات والفنيون العرب يعملون في معظم المجالات التى لم يعمل فيها آباؤهم . ان الاعداد والامكانيات البشرية متوافرة اذن . . ومع ذلك فانها لم تنتظم حتى الآن بشكل مرض على الاطلاق . هذه هي المشكلة التى لم تحل حتى الآن مع أنها لو تم حلها . . لاستطاعت ان تحقق نتائج خيالية . يكفى انها تستطيع ان تقدم الوجه الحقيقى للقضية العربية . . الى مجتمع لا توجد فيه اغلبية . مجتمع اغليبيته هي مجموعة الاقليات التى تعيش في داخله ! .

عودة إلى المصريين : فنانة بلا أبواب !



جرسى سيتى . . . هى مجرد مدينة أمريكية تبعد عن نيويورك
٥٠ دقيقة بالسيارة . ولأن المساكن غالية فى نيويورك . . . وأرخص
قليلا فى خارج نيويورك . . . فإن عمدا من المصريين المهاجرين
العاملين بنويورك يختارون مساكنهم فى جرسى سيتى . . .

وعندما بدأ المصريون يتوافدون بكثرة على تلك المدينة الأمريكية
- جرسى سيتى - بدأوا يحسبون أنهم أصبحوا يشكلون جالية
يتزايد عددها يوما بعد يوم . وعندما فكرت هذه الجالية المصرية
فى تنظيم نشاطها الاجتماعى والروحى بدأت تسجد الحساب .
أن أول فاتورة تلقتها الجالية المصرية فى جرسى سيتى كانت تحمل
رقما بسيطا : ثلاثين ألف دولار . هنا هو المبلغ الذى كان يجب

على الجالية المصرية في جرسى سيتى أن تسدده خلال أسبوعين .
و . . . فعلا . في خلال أسبوعين سددت الجالية المصرية فاتورة
الحساب . سددت الثلاثين ألف دولار . . من مجرد التبرعات التي
جمعها المصريون في جرسى سيتى من بعضهم البعض .
ان هذا المبلغ كان ثمن شراء كنيسة جرسى سيتى . كنيسة
سأهم المصريون المهاجرون بنيويورك وجرسى سيتى - مسيحيين
ومسلمين - في التبرع لشراؤها . انها تقع الآن في ٤٢٧ ويست سايد
أفينيو بجرسى سيتى . انها أصبحت أول كنيسة قبطية يملكها
المصريون في أمريكا وأوروبا معا . انها ليست مجرد كنيسة يشتريها
المصريون لممارسة نشاطهم الدينى . . ولكنهم اشتروها لتكون
فوق هذا مركزا لنشاط وطنى واجتماعى . . ومركزا لمساعدة
المهاجرين الجدد أيضا . .

وعندما ذهبت لازور هذه الكنيسة في جرسى سيتى . . قابلت
هناك الدكتور ماهر كمل - ٥٢ سنة - الذى يسأهم بصفة
أساسية في ادارة الكنيسة الجديدة ، بعد ان يفرغ من عمله ايوامى
كعميد لمعهد شئون الشرق الأوسط في جامعة جرسى سيتى . وفى
المرات العديدة التى قابلت فيها الدكتور ماهر كان يقول لى :
« . . اننا كنا نريد شراء هذه الكنيسة أصلا في مدينة نيويورك .
ولكن كل الكنائس التى رأيناها لا يقل ثمن الواحدة عن مليون دولار .
رقم مازال أعلى كثيرا من امكانياتنا كمهاجرين مصريين حديثين
في أمريكا . .

« . . ولأن مدينة جرسى سيتى تعتبر عمليا ضاحية من ضواحي
نيويورك . . فان البديل التالى كان هو البحث عن كنيسة هنا
نشتريها لخدم المصريين المقيمين في نيويورك وجرسى سيتى معا .
« . . في البداية وجدنا أن الثمن الاصلى لهذه الكنيسة هو
١١ آلاف دولار ، بالإضافة الى التجهيزات الأخرى المزودة بها . .
ولكننا عندما تفاوضنا معهم هنا عرضوا علينا بيعها لنا بستين
ألف دولار .

« . . في الحقيقة نحن وافقنا على هذا السعر المنخفض
- ٦٠ ألفا - ولكنهم كانوا كرماء معنا للغاية عندما علموا اننا
ما نزال جالية حديثة في أمريكا ، واننا في أشد الحاجة لهذه
الكنيسة . لهذا استطعنا في اللحظة الأخيرة أن نشتريها بثلاثين
ألف دولار فقط . . اننا استطعنا أن نجمع هذا المبلغ من التبرعات التي
قدمها المصريون المهاجرون هنا في جرسى سيتى وفى نيويورك . .
وعندما أقول المصريين هنا فأننى أقصد المسيحيين والمسلمين . .

فلقد تبرع لشراء الكنيسة عدد كبير أيضا من الأخوة المصريين المسلمين هنا في جرسى سیتی . ولم تكن التبرعات تقتصر على النقود فقط . . وإنما امتدت الى التبرعات العينية أيضا . ان احدى السيدات المصريات مثلا تبرعت بخاتم من الماس كانت تحتفظ به كهدية من زوجها .

» . . انك اذا كنت تتصور ان الثلاثين ألف دولار هى مبلغ ضخم بالنسبة لحدثاثة هجرتنا الى امريكا . . فمن الضرورى ان تعرف ان عددنا ضخم أيضا . . فحسب آخر احصائية رسمية حصلنا عليها من ادارة الهجرة هنا . . نجد ان عدد العائلات المصرية فى مدينتى نيو يورك وجرسى سیتی وصل فى العام الماضى الى ثمانية آلاف عائلة . واذا اعتبرنا ان كل عائلة تتكون من ثلاثة افراد فقط - المهاجروزوجته وابن واحد لهما - فان معنى ذلك انه يوجد هنا ٢٤ ألف مصرى . . يعيشون فى مدينتى نيو يورك وجرسى سیتی وحدهما . »

x x x

والواقع ان المصريين فى امريكا أصبحوا يشكلون الآن واحدة من اسرع الجاليات نموا . . رغم انهم يعتبرون ايضا من احدث الجنسيات التى اهاجرت الى امريكا . .

ان الدكتور ماهر كامل نفسه هو واحد من هؤلاء المصريين المهاجرين الى امريكا . وبالإضافة الى ذلك فانه واحد من ثلاثة فقط فى امريكا كلها الذين حصلوا على الدكتوراه مرتين فى الآداب والعلوم معا . ان الدكتوراه الاولى حصل عليها فى علم نفس الطفل من جامعة رينى بفرنسا . . والثانية حصل عليها من جامعة لوزان بسويسرا .

ان آخر عمل شغله الدكتور ماهر هو رئيس لقسم الفلسفة بكلية المعلمين . لقد ظل كذلك الى اليوم الذى سافر فيه الى امريكا منذ ١٢ سنة . لقد عمل أولا أستاذًا مساعدا فى جامعة جرسى سیتی . . وظل يترقى فى عمله الى ان أصبح الآن عميدا للمواد الاجتماعية ورئيسا لقسم الاجتماع ومديرا لمعهد شئون الشرق الأوسط فى الجامعة نفسها . معهد يلتحق به الحاصلون على البكالوريوس على الأقل . . لكى يحصلوا منه على الماجستير فى شئون الشرق الأوسط .

ولان الدكتور ماهر كامل يمثل نموذجا مشرفا من المهاجرين المصريين فى امريكا . . ولانه من ناحية أخرى رجل جامعى ، ثم له من ناحية ثالثة نشاط اجتماعى واسع بين المهاجرين المصريين . .

فقد دارت بينى وبينه مناقشات كثيرة عن أسباب النجاح والفشل بالنسبة للمهاجر المصرى الجديد فى أمريكا .
وعندما زارنى الدكتور ماهر مرة فى غرفتى التى اقيم بها فى نيويورك سألته : ما هى احتمالات تعطل المهاجر الذى يعمل فعلا فى أمريكا ؟

وقال الدكتور ماهر : من الضرورى أن تعلم مبدئيا أنه يوجد فى أمريكا عمال عاطلون يزيد عددهم عن خمسة ملايين . . ولكن رغم ذلك فإن هذا العدد لا قيمة له فى دولة يزيد عددها عن مائتى مليون . ثم أنه بعد ذلك عدد يمثل كبار السن والمصابين بأمراض نفسية أو عصبية أو المدمنين على الخمر والمخدرات . . كما يشمل السيدات اللاتى يتوقفن عن العمل بسبب الحمل أو المدة الأولى من الأمومة . وفيما عدا ذلك فإن كل شخص فى أمريكا - رجلا كان أو امرأة - له دخل خاص . . ويعتبر عضوا عاملا منتجا وليس عالة على المجتمع الأمريكى . فإذا تعطل عن العمل لاي سبب أصبحت مسئولية المجتمع أن ينفق عليه الحد الأدنى اللازم للحياة عن طريق التأمين الاجتماعى . انما أقول هذا كله لأننى أريد أن يكون الشخص المهاجر على استعداد سيكولوجى لمواجهة أية مصاعب تطرأ على حياته بعد هجرته .

قلت للدكتور ماهر : هل الشهادات تمثل عاملا هاما فى خلق الاحساس بالأمن لدى المهاجر القادم الى هنا ؟

ولكنه أجاب بسرعة : ان شهادة البكالوريوس أو الليسانس مثلا لا تزيد قيمتها بالنسبة للمجتمع الأمريكى عن شهادة الإعدادية . ومهما كانت سن الشخص أو خبرته فإنه هنا يجب أن يواصل الدراسة فى الجامعات . واكم من مرة كان يؤم محاضراتى أفراد تزيد سنهم عن السبعين . . ويؤدون جميع الواجبات والتقارير والامتحانات جنبا الى جنب وبنفس الحماس الذى يتمتع به طالب أو طالبة فى العشرين مثلا . لهذا يجب الا يعتبر المهاجر ابدا ان الليسانس أو البكالوريوس هو آخر المطاف بالنسبة له . . بل اننى اذهب الى أبعد من هذا . فهناك أعمال وتخصصات يستطيع أن يلقى صاحبها نجاحا أسرع من غيره . ولهذا ينبغي أن يكون الشخص المهاجر على استعداد لتغيير تخصصه وأن يعمل فى ميادين أخرى غير ما يحب أو ينوى . . وأن يكون على استعداد لتعلم ما تستلزمه الأعمال الجديدة من خبرات . عندك المحامى مثلا . . ماذا يستطيع أن يعمل اذا نظرنا اليه عنى أنه رجل تخصص فى القانون المصرى . سواء القانون المدنى أو الجنائى . . الخ ؟ ان

القانون هنا يختلف عن المصري ، ونظام المحاكم مختلف ، واللغة المستخدمة مختلفة . لابد اذن على مثل هذا الشخص المحامي ان يكون مستعدا قبل هجرته الى تغيير خبراته واتجاه تفكيره وعمله . انه يستطيع مثلا ان يدرس علم المكتبات والحصول على الماجستير في المكتبات مع التخصص القانوني ، او يستطيع دراسة التصدير والاستيراد الدولي والقوانين الخاصة به والاجراءات الجمركية المرتبطة بهذه العمليات . . او يستطيع اذا سمحت الظروف وأصر على ان يظل محاميا - ان يدرس أربع سنوات ليتخرج كمحام امريكي ، لان كلية القانون هنا تدرس ثمانى سنوات وليست اربعا كما في مصر . وكذلك يمكنه ايضا ان يدرس ويتدرب على أعمال البنوك والشركات المختلفة . . وينسى اطلاقا تكوين القانون . وهكذا توجد ميادين كثيرة تبعد عن خبرة المحامي السابقة كأعمال السياحة او الأعمال الفنية او التصوير او دراسة العقول الالكترونية والتخصص في أعداد المناهج الخاصة بها للشركات المختلفة .

قلت للدكتور ماهر : هذا عن خريج الحقوق . لماذا لا تستمر في الامثلة ؟ لماذا لا تتحدث مثلا عن خريج كلية الزراعة ؟

قال الرجل : اذا نظرنا الى خريج كلية الزراعة . . فيجب ان يعرف مقدما ان الزراعة في امريكا تمارسها عادة شركات كبيرة جدا على مستوى آلاف الافدنة ، موجودة في وسط امريكا . اما الولايات الشرقية مثل نيويورك او نيو جيرسى مثلا فانها - رغم اتساعها - تهتم اساسا بالصناعة ، ولهذا اتجهت كليات الزراعة فيها الى التخصص في الكيمياء العضوية . وبهذا يصبح خريج الزراعة رجلا كيميائيا يستطيع العمل في مصانع الادوية ومعامل المبيدات الحشرية والنواحي المختلفة من الانتاج الصناعي الكيماوي مثل التجميل او انتاج الشعر الصناعي او الاقمشة الكيماوية او البلاستيك بصناعاته المتعددة او في معامل ابحاث الصناعات المختلفة . . الخ .

ثم يلاحظ الدكتور ماهر كامل ان هناك بعض الدراسات التي لا توجد في الجامعات المصرية . . بينما خريجوها يحصلون على فرص ضخمة بمرتبات كبيرة . من هذه الدراسات مثلا دراسة علم الفنادق . . وهي دراسة جامعية عالية يقبل فيها الطالب هنا - في امريكا - بعد حصوله على البكالوريوس - ويتخصص فيها للماجستير او الدكتوراه . ومن المفيد لمن يدرس هذا التخصص ان يجيد عددا من اللغات الاحنبية الحديثة وعلم الاجتماع والعلاقات الانسانية . . مع الالمام بادارة الاعمال والاقتصاد .

ويقول الدكتور ماهر : انه يوجد في أمريكا مهاجرة مصرية واحدة استطاعت الحصول على الماجستير في الفنادق وهي تعمل الآن نائبة المدير العام لاحد الفنادق الأمريكية الكبرى (على فكرة والد هذه الفتاة المصرية الناجحة يعمل حاليا استاذا بكلية هندسة جامعة القاهرة) .

ومن الذين يواجهون صعوبات بعد هجرتهم - كما يلاحظ الدكتور ماهر - خريجو العلوم السياسية .. وهذه الصعوبة قائمة حتى بالنسبة للأمريكيين أنفسهم . أما خريجو الهندسة فينجحون اذا كانوا متخصصين في الكهرباء والميكانيكا .. بينما يواجهون الصعوبات في البداية اذا كانوا متخصصين في العمارة .. لان هندسة العمارة في أمريكا مختلفة الى حد كبير جدا عنها في مصر .

xxx

ولقد نسيت بعد هذا كله ان اقول ان الدكتور ماهر كامل هو في الواقع أكثر من مجرد عميد لمعهد شئون الشرق الاوسط بجامعة جرسى سیتی . انه « عمدة » أكثر منه عميد . عمدة للمصريين المهاجرين المقيمين في جرسى سیتی . انه يعيش هناك مع ولده وزوجته التي تعمل استاذة لعلم النفس بجامعة نيوارك . ان واحدا من ولديه - رءوف - مازال طالبا في كلية طب جامعة كورنيل . وقبل ان يصل رءوف الى سنته السابعة - التي يدرس فيها حاليا - كان أول دفعته في بكالوريوس العلوم .. ومع ذلك فان هذا لم يمنعه من ان يمارس هوايته المفضلة .. البنج بنج . في هذه اللعبة مثل رءوف أمريكا ضمن فريقها في بطولة العالم .. واستطاع ان يفوز بالمركز الثاني في تلك البطولة العالمية . اما الابن الآخر للدكتور فقد تخرج منذ سنتين في كلية طب كورنيل ايضا ، ثم حصل على البكالوريوس في العلوم العسكرية بالاضافة الى شهادته الطبية .

xxx

والدكتور ماهر ليس هو المصرى الوحيد البارز في الجامعات الأمريكية . في الواقع ان هناك عشرات غيره من المصريين الذين اصبحوا يتمتعون بسمعة علمية طيبة داخل الجامعات الأمريكية . عشرات قابلتهم ، وعشرات سمعت عنهم .

من الذين سمعت عنهم مثلا .. الدكتور محمد الوكيل ، وهم يعتبرونه من أنبغ الاساتذة الجامعيين الذين تخصصوا في استخدامات الطاقة الذرية . وفي معظم المؤتمرات التي تجرى

لبحث استخدامات الطاقة الذرية .. سوف نرى كتب الدكتور الوكيل وآراءه مصدرا هاما يرجع اليه العلماء من جنسيات متعددة وهناك ايضا المهندس ابراهيم خليفة الذي يعمل الآن نائبا لرئيس مجلس ادارة شركة فيليبس دوتش وهى اكبر الشركات المنتجة لمعدات مصانع الاسمدة والكيماويات .. والمهندس محمود الطاهرى الذى يعمل مديرا لشركة اخرى من اكبر شركات تكييف الهواء ، والدكتور مصطفى العجيزى - واحد من ابرز خبراء بحوث العمليات فى شركة آى . بى . ام . للعقول الالكترونية ، والدكتور هارون محروس الذى يعمل حاليا رئيسا لقسم الهندسة الكهربائية فى معهد « برات » .. من اكبر المعاهد الهندسية فى شرق امريكا .

ولو عدنا الى اساتذة الجامعات فمن النادر - كما سبق ان اشرت - ان نجد جامعة امريكية بغير استاذ عربى .. او مصرى بالذات . عندك مثلا الدكتور عزيز سوريال عطية الذى يدير الان معهد دراسات الشرق الاوسط بجامعة « يوتا » ان الجامعة - بعد ان نشر الدكتور عزيز عدة كتب هامة باللغة الانجليزية - قررت ان تطلق اسمه على مكتبتها الضخمة فاصبحت تسمى الآن « مكتبة عزيز عطية » . وعندك ايضا الدكتور سامى بولس رئيس قسم التربية بجامعة نيويورك الحكومية فى « نيو بولز » بولاية نيويورك .. والدكتور عصمت المعارجى - من ابرز اساتذة جامعة سبرنجفيلد .. والدكتور حامد كمال الدين الاستاذ بجامعة اوكلاهوما .. والدكتور عباس يسرى الاستاذ بجامعة بنسلفانيا فى اوهايو .. والدكتور ساجا حبشى الاستاذ بكلية حقوق جامعة كولومبيا الذى اهدته الجامعة درجة الدكتوراه الفخرية بعد ان حقق نجاحا كبيرا هناك .

وهناك .. وهناك .. اسماء كثيرة لامعة من المصريين الذين لمعوا هناك رغم الصعوبات الكثيرة او القليلة التى واجهها كل منهم فى البداية .

ولو حسنا مدى الفائدة التى تعود علينا من وجود استاذ مصرى فى جامعة اجنبية - مجرد وجوده - فسوف نجد انها اكبر كثيرا مما نتوقع . فنحن من غير ان يتكلم هذا المصرى المثقف فى السياسة .. وبدون ان يضع نفسه وشعبه فى موقف الدفاع .. فان مجرد وجوده .. مجرد ثقافته .. مجرد بروزه علميا .. هو احسن اعلان متحرك عن حضارة الشعب الذى ينتمى اليه اننى استطيع ان اضرب على ذلك عشرات من الامثلة للاساتذة

المصريين الذين قابلتهم في أمريكا . ولكننى سوف اختار نماذج قليلة اقدمها كمجرد اختيار شخصى .

فلو بدأت - مثلا - بالدكتور رجائى الملاح - ذلك الاستاذ المصرى البارز فى الاقتصاد بجامعة كولورادو فسوف اقول فورا: ان رجائى ذهب الى أمريكا كمجرد طالب يدرس الماجستير منذ عشرين سنة . وعندما تفوق رجائى فى الماجستير أعطته الجامعة منحة للدراسة الدكتوراه .. الى ان حصل عليها فى الاقتصاد من جامعة رادجارز فى نيوجرسى . ومنذ سنة ١٩٥٦ أصبح الدكتور رجائى استاذاً للاقتصاد فى جامعة كولورادو . . ورئيساً لقسم دراسات الشرق الاوسط وافريقيا بنفس الجامعة . ولاول مرة قرر الملاح - بعد مجهود كبير - ادخال اللغة العربية كمادة اختيارية يدرسها كل من يعد دراسات جديدة عن الشرق الاوسط وتاريخه .

وعندما نشبت أزمة تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦ كان اول بحث علمى ينشر فى أمريكا مفسراً وجهة نظرنا فى الموضوع . . هو البحث الذى نشره الدكتور رجائى فى جريدة الشرق الاوسط بجامعة كولورادو . وبعدها ايضا نشر اول بحث مماثل عن السد العالى فى الجريدة الاقتصادية التى تصدرها جامعة اوسكانس . وبالإضافة الى ذلك فان آخر عمل كبير للملاح هو الكتاب الذى نشره له مركز دراسات الشرق الاوسط فى جامعة شيكاغو . كتاب عن اقتصاديات الكويت ، وأثنى عليه فى المقدمة يوجينى بلاك الرئيس السابق للبنك الدولى . ثم أصدر الملاح كتاباً آخر عن أهمية البترول العربى بالنسبة لاقتصاديات الولايات المتحدة ونشر فى بريطانيا وأمريكا فى وقت واحد . والملاح الآن هو مؤسسة تعليمية عربية فى حد ذاته . . بعد ان تخرج على يديه فى الجامعة ٩٥ طالبا عربيا من بينهم ثمانية مصريين . وفى السنة الماضية وحدها نال أربعة دارسين مصريين درجة الدكتوراه فى الاقتصاد على يديه .

وعندما تقابل الملاح فسوف يقول لك على الفور : ان فى أمريكا سبعة ملايين طالب بالجامعات والمعاهد العليا . انهم يمثلون عددا اكبر من سكان الكويت ولبنان والاردن وليبيا مجتمعة ومع ذلك فان الاعلام العربى لا يحاول مطلقا الوصـول اليهم . انهم - الطلبة - هم الذين عملوا على اقناع شعبهم بخطأ السياسة الامريكية فى فيتنام . . ومع ذلك فان جهة عربية واحدة لم تحاول

حتى الان ان تقيم علاقات فكرية لشرح قضايانا لهم . لا شيء مطلقا .. سوى المجهودات الفردية . وحتى حينما نعمل كأفراد على شرح حقيقة الموقف في الشرق الاوسط لهم .. فانفسنا لا نجد المساعدة الكافية من أجهزة الاعلام العربية .. اننى أتذكر ما حدث لى مرة فى سنة ١٩٦٨ ، عندما قرأت مقالا معاديا للعرب فى الجريدة التى تصدرها الجامعة وإقرأها ثلاثون الف طالب . وعندما أتصلت برئيس التحرير لاشرح له مدى انحياز المقال الى جانب اسرائيل ، قال لى انه يتلقى يوميا ثلاث نشرات على الاقل من منظمات صهيونية مختلفة تشرح نه وجهة نظر اسرائيل فى قضية الشرق الاوسط ، بينما لايتلقى أى شيء على الاطلاق يمثل وجهة النظر العربية .

وعند هذا الحد - يقول الملاح - اتصلت بمدير مكتب الجامعة العربية فى نيويورك مكالمة طويلة من كلورادو . ورجوت المدير ان يرسل مطبوعاته ونشراته الى جريدة « كلورادو ديلى » .. التى تصدرها جامعة كلورادو . ولكن السيد مدير مكتب الاعلام قال ان على الجريدة ان ترسل الى المكتب طلبا رسميا بذلك محددة فيه ما تطلبه بالتفصيل - والا فان المكتب لن يرسل اليها نشراته - كما لو كانت تلك نشرات سرية لا تصدر للتوزيع العام ! ولقد شعرت وقتها بالاسف الشديد لمثل هذا الاسلوب غير الاعلامى فى العمل الاعلامى . انه يتصور العمل الاعلامى عملا مكتبيا كل مهمته كتابة ملخص لاقوال الصحف . اسلوب لا يحاول مطلقا الاتصال والنزول الى القطاعات المؤثرة فى الراى العام الأمريكى .. ليس هذا مع السبعة ملايين طالب فقط .. وانما مع الـ ٢٢ مليون أسود فى أمريكا . ان هذا يحدث .. بالرغم من أن السود والكلية يمثلان قوتين ضخمتين ومتعاطفتين معنا داخل المجتمع الأمريكى ..

x x x

والواقع ان هذه الكلمات التى سمعتها من الدكتور رجائى الملاح هى نفسها التى سمعتها من كل معظم المثقفين المصريين المهاجرين فى أمريكا . وخصوصا أساتذة الجامعات منهم .. ولقد كان من الامور المؤسفة مثلا ان ارى عددا كبيرا من ابرز الاساتذة المصريين فى الجامعات المصرية يدخلون مكتب الجامعة العربية فى نيويورك لأول مرة عندما دعاهم ابراهيم شكر الله .. مدير المكتب - الى أكثر من اجتماع لسماع وجهة نظرهم . لقد فوجئت -

وفوجيء ابراهيم نفسه - بأنها اول مرة يتلقون فيها الدعوة من مسئول اعلامى عربى للاستماع اليهم ! ان واحدا من هؤلاء مثلا قال لى : « اننى احسست لأول مرة برابطة شخصية مع هذا المكتب عندما دخل معى الاخ ابراهيم شكر الله فى مناقشة علمية عن اليسار الجديد فى امريكا . هذه اول مرة احسست فيها اننى اتناقش مع خبير اعلام وليس مع موظف اعلام . خبير علمى يريد نتائج للنجاح .. وليس موظفا بيروقراطيا يبحث عن اعداء للفشل » . ان المتكلم هنا هو الدكتور محمد المصرانى استاذ ادارة الاعمال فى جامعة سان جون بنيويورك . ان الدكتور المصرانى هو نفسه نموذج آخر من نماذج النجاح بين المهاجرين المصريين فى امريكا . لقد بدأ حياته فى الاسكندرية كمجرد مدرس للغة الانجليزية ثم مأمور ضرائب وبعد ان ترك الضرائب وسافر الى امريكا .. حصل على الماجستير ثم الدكتوراه فى ادارة الاعمال .. حيث عمل بعدها استاذاً مساعداً فى جامعة سان جون بدخل سنوى يصل الى ١٨ الف دولار ، وله كتاب ممتاز قررته الجامعة على طلبة الماجستير فى ادارة الاعمال .

ومع كثرة اعمال المصرانى .. فانها لم تمنعه من تأسيس « النادى الأمريكى المصرى » فى مدينة نيويورك . ناد تأسس منذ اشهر قليلة فقط ، وبدأ بمائة عضو وهدفه تقديم المساعدات الاجتماعية المحدودة لاي مهاجر مصرى جديد . ومن خبرة الدكتور المصرانى ونشاطه بين المهاجرين المصريين فانه يقول : « ان اول مشكلة تواجه المصرى المهاجر هنا هى اللغة . انه يكتشف بعد حضوره انه لم يدرس اللغة الانجليزية بما فيه الكفاية . ونتيجة لذلك يكتشف ان عليه تدعيم دراسته فيها باحدى طريقتين .. اما الالتحاق ببرنامج خاص فى احدى الجامعات لمدة ستة اشهر بتكاليف تصل الى ستمائة دولار . طبعاً هناك طريقة ثانية وهى الاعتماد على الممارسة العلمية .. انها طريقة اوفر .. ولكنها اطول زمناً .. » . ومع ذلك فأننى أعرف عدداً كبيراً من المصريين الناجحين هنا وخصوصاً فى مجالات الهندسة والطب والاقتصاد وادارة الاعمال والمحاسبة ! .

× × ×

وفى مجال المحاسبة بالذات تستطيع ان تجد عدداً كبيراً من الشبان المصريين الذين تخرجوا حديثاً قبل هجرتهم بخمس

أو ست سنوات على أكثر تقدير . من هؤلاء مثلاً قابلت في نيويورك شاباً مصرياً اسمه فاروق سلامة بشاى . ان فاروق بعد تخرجه من شعبة المحاسبة بتجارة القاهرة - عمل محاسباً بشركة الطيران العربية في القاهرة ، ثم مراجع حسابات في شركة القاهرة للملبوسات . وعندما هاجر فاروق الى أمريكا منذ سنة ونصف سنة فقط كان عمره لا يتجاوز الثامنة والعشرين وكانت زوجته تعمل مأمورة ضرائب .. حيث تخرجت هي الأخرى من شعبة المحاسبة بتجارة القاهرة .

وقبل أن يقوم فاروق بالهجرة فعلاً بعدة شهور بدأ ينفذ مع زوجته تجربة جديدة . لقد قال لها : لماذا لا نجرب التحدث معاً في البيت باللغة الانجليزية منذ ساعة عودتنا من عملنا الى صباح اليوم التالي ؟ لماذا لا ننفذ ذلك كتجربة نطبقها بكل دقة لاجادة مستوانا في اللغة قبل أن نهجر فعلاً ؟

وفعلاً .. نفذ الزوجان هذه التجربة ، بالإضافة الى مراجعة وتنشيط معلوماتهما الدراسية .. والالتحاق ببرامج تعليمية جديدة في المحاسبة واللغات .. الى أن هاجرا فعلاً الى نيويورك . ان فاروق يعمل الآن مراجع حسابات بمرتبة تسعة آلاف دولار سنوياً في شركة « ويلمارك سيرفيس سيستم » وهي شركة للخدمات والتسويق . أما زوجته فهي الأخرى مراجعة حسابات في هيئة رقابية على مصانع ملابس السيدات .

وخلال مناقشتي مع فاروق في منزله بجرسي سيتي قال لي عدة ملاحظات منها مثلاً : « .. اننى اكتشفت عند حضوري الى هنا ان ٧٥ ٪ من معلوماتي من الحياة في أمريكا صحيحة والباقي خطأ » ..

« .. واكتشفت أيضاً ان على ان اقوم انا بعمل عدد من التأمينات الاجتماعية اللازمة لتحقيق نفس درجة الامن التى كنت اتمتع بها في مصر . ان على مثلاً ان اشترك في نظام للتأمين الصحى - بالنسبة لى ولزوجتى وطفلتى - بمبلغ يصل الى ثلاثين دولاراً في الشهر بخلاف التأمين الذى تدفعه شركتى بالنسبة للعاملين بها . وبالإضافة الى ذلك فقد عملت بوليصة تأمين بعشرين ألف دولار لحساب أسرتى .. وهى تكلفنى خمسين دولاراً شهرياً .

« .. واكتشفت أيضاً ان رخصة قيادة السيارات التى كانت معى في مصر قد افادتني هنا أكثر مما افادتني رخصة القيادة

الدولية الى عملتها من نادي السيارات بالقاهرة . لقد ترجمت
رخصة قيادتي في القاهرة الى اللغة الانجليزية واعدتها من
القنصلية الامريكية . . وبهذه الرخصة استطعت ان اتفادى اجراء
الاختبار العملى عن القيادة الذى تشترطه كل ولاية هنا . ان
الاختبار التحريرى ضرورى مهما كان شأنك . ان الاختبار العملى
الرسوب فيه معناه ان التحق باحدى مدارس التدريب على
قيادة السيارات هنا . . باشتراك يصل الى مائة وخمسين دولارا

x x x

والواقع اننى لم اجد فى نيويورك كلها شخصا « محافظا » فى
قيادته للسيارة اكثر من فارق هذا . ان معه الحق . . فنظام
المرور هنا دقيق . . والعقوبات صارمة . فعندما يزيد معدل
مخالفاتك عن نقطة معينة يسحبون منك رخصة القيادة نهائيا
ولا تستطيع الحصول على رخصة جديدة الا اذا انتقلت الى ولاية
جديدة . ان هذا التشدد ضرورى لمنع تزايد معدل حوادث
السيارات هنا . معدل وصل الى ١٥ مليون حادث فى العام
الماضى فقط . رقم كان يكرره لنا فاروق كلما ركبنا - امير سابا
وانا - فى سيارته الفولكس فاجن ذاهبين الى جرسى سيتى او
عائدين الى نيويورك او متجهين الى المكتب الترانستور لشركة
الطيران العربية .

فى هذا المكتب - مكتب الطيران العربية - تستطيع ان تلتقى
بشخصية ملقبة : عبد العزيز عيد . . المدير النشط للمكتب
وسميحة قورة الموظفة المصرية المؤقتة هناك . ان عبد العزيز
ليس مهاجرا ولكن سميحة هى مهاجرة بشكل ما .

ان سميحة - فتاة طويلة رشيقة واسعة العينين تدرس
المسرح فى نيويورك وتعمل مؤقتا كموظفة محلية فى الطيران العربية
وتقيم مع أختها الشابة الاخرى - نادبة - فى شقق الحي الشرقى
من مانهاتن فى نيويورك . شقة ايجارها مائتا دولار شهريا .
انهما اول فتاتين مصريتين اراهما فى امريكا كمهاجرتين . انهما
تمثلازفة فى رأى - بعد نادبة التى رايتها فى مونتريال بكندا - اول
نماذج للفتاة المصرية التى تجتاز الحدود وتهاجر وتعمل معتمدة
على نفسها . . انها فتاة تواجه الحياة هنا وحدها بكل ثقة . .
بكل جراءة وامل فى المستقبل . ان الحنين الى الوطن والاهل
والاسرة موجود هناك فى داخلها . . موجود باقوى مما هو موجود
فى اى رجل . . ولكن التصميم على الحياة بشرف موجود ايضا

.. موجود بأكثر مما يتوقعه أى رجل ! ان نادبة وسامحة تعملان كموظفتين محليتين فى نيو يورك . نادبة موظفة فى الوفد الكويتى بالامم المتحدة وسامحة موظفة فى الطيران العربية . ان نادبة أسبق من سامحة فى السفر الى أمريكا . انها أسبق أكثر خبرة أكثر احتمالا وأكثر مصرية . انها مصرية فى قلب نيو يورك .. من شعر الرأس حتى أخمص القدم . انك لاتملك فى النهاية سوى ان تحترمها وتقدرها وتتمنى لها النجاح ؟

× × ×

ان النجاح له سمعة .. مثلما لكل شىء آخر سمعة . ولقد سمعت عنهما أولا من صديق لى يعيش فى نيو يورك . صديق مصرية .. فنان .. فنان ذائع السمعة .

ان جمال الزغبى .. هذا هو اسمه - هو مجرد شاب مصرية درس العمارة بجامعة القاهرة وتخرج منذ ١٢ سنة وعمل معيدا بهندسة جامعة الاسكندرية . ولكننى سمعت عنه أولا - قرأت عنه أولا - فى الصحف والمجلات الأمريكية .. قرأت عنه فى مجلة « مدموازيل » ومجلة « أميركان هوم » قرأت عنه دائما باعتباره الفنان « .. الشاب المصرى الناجح الذى يملك افكارا جديدة ومتنوعة فى فن العمارة .. والذى يبحث عن حلول فنية لمشكلة الإنسان المعاصر الذى يعيش فى مدينة مزدحمة ضخمة كنيويورك »

هل جمال هو كل هذا ؟ نعم . هو هذا - وأكثر . لقد ذهب الى أمريكا فى البداية للدراسة الماجستير فى العمارة وعندما وصل الى مطار واشنطن فى تلك الليلة .. ليلة مصرع كينيدي - جلس مع حقائبه فى المطار ليلة كاملة بغير ملل واحد فى جيبه .. من هناك بدأ عدد من زملائه المصريين يساعدونه فعندما درس فى آن اربى بولاية ميتشجان ساعده الدكتور فتحى الديب - الذى كان - وقتها رئيسا للنادى العربى فى آن اربى - وقدم له مسكنه بعدها ساعده أيضا الدكتور صلاح عبد العزيز .. و .. و .. المهم ان جمال حصل بعد سنتين على الماجستير بدرجة الامتياز هنا بالضبط يقول جمال : « اننى فى الواقع لم أحس بالامتنان أو التقدير أو الوفاء لاساتذتى فى القاهرة .. الا بعد ان درست هنا فى أمريكا . لقد كنت أحس ان كل تفوق أحققه . انما يرجع الفضل فيه أولا للمستوى الذى علمنا به اساتذتنا فى جامعة القاهرة .

وبعد الماجستير تزوج جمال بأمرىكيه وحصل على اقامة دائمة ، وبدأ يعمل كمصمم معمارى بمكتب المهندس المعماري « ماكس ايريان » بمرتبة متواضع .. وهو ١٢٥ دولارا في الاسبوع وعندما نجح جمال في اول تصميم له للمدرسة ثانوية بمدينة نيويورك ارتفع مرتبه الى ١٦٠ دولارا في الاسبوع ، ثم الى مائتي دولار قبل ان تمر عليه سنة .. ومائتين وخمسين دولارا قبل ان تمر سنتان . وحينما أصبح جمال في عامه الثالث - رئيس قسم التصميم بالمكتب قدم استقالته . لقد عرض عليه صاحب المكتب رفع مرتبه الى خمسمائة دولار في الاسبوع ولكنه اعتذر . انه يقول « .. اعتذرت لاننى اردت لنفسى الحرية من زواجى ومن عملى .. حيث وجدت نفسى مشتتا بين الطرفين .. لقد اعتذرت رغم ان صاحب المكتب نفسه - ماكس ايريان - كان كريما جدا على ومقلدا لعملى .. ان ماكس هو الان رئيس لجمعية المهندسين المعماريين الامريكية .. وخلال عملى معه صممت مدرستين لهيئة التعليم بنيويورك فازت احدهما بجائزة احسن مدرسة من حيث التخطيط .. وفازت الاخرى بجائزة احسن مبنى خرساني .. وصممت ايضا مكتبة لجامعة نياجرا ومشروعين اسكانيين لمدينتى نيويورك وسان فرانسيسكو .. بالاضافة الى عدد من المشروعات الاخرى . لقد تركت هذا كله لاعمل مدرسا في كلية العمارة بمدينة نيويورك .. نيويورك سيتى كوليدج - حيث اعطى ١٥ ساعة للتدريس والباقي وقتا خصصه كله للعمل وادارة مكتبى الخاص للرسوم المعمارية . وفي خلال تلك الفترة اختارتنى لجنة من رؤساء تحرير مؤسسة لايف وتايم الامريكية لعمل رسومات لاعادة بناء مدينة يابل . مهمة كان اجرى فيها هو ٣٦٠٠ دولار . بهذا المبلغ قررت ان أعيد تصميم شقتى ومكتبى الخاص حسب نظرياتى التى اؤمن بها فى العمارة . هذه هى الشقة التى قرأت عنها انت فى المجلات والصحف الامريكية .. بعدها وقع على الاختيار لتصميم مكتب شركة استثمار فى وال ستريت كمشروع يتكلف نصف مليون دولار .. ثم مشروع آخر لجامعة نيويورك .. ومطعم مصرى فى بروكباوى ثم المعرض المعماري الذى اقامته مدينة نيويورك واختارونى للاشتراك فيه مع ١٨ فنانا معماريا اخر . اننى الان اعمل فى التدريس بمعهد برات فى بروكلين بنيويورك - وهو احد خمسة معاهد مشهورة فى الهندسة المعمارية بأمريكا .. كما اننى اقوم بتدريس الماجستير

في العمارة لثلاثة عشر طالبا اجنبيا من تايلاند والصين والهند وغانا ومصر » .

ان الشخص الذي يقول هذه الكلمات هو مجرد فنان مصرى شاب في الخامسة والثلاثين من عمره . ان ايراده من التدريس هو عشرة آلاف دولار في السنة ، ولكن ايراده من عمله الخارجى وصل في العام الماضى وحده الى ستين ألف دولار .. بالاضافة الى المنزل الذي اشتراه بسبعين ألف دولار في غرب شارع ٨٧ بمدينة نيويورك . منزل يؤجره جمال ويحصل منه على ٥٥٠ دولارا شهريا وينوى بيعه بعد تعديله بنصف مليون دولار .

وفي كل مرة كنت اذهب الى جمال لارى شقته الخاصة في ذلك المنزل .. كنت اريد ان اكتشف فيها الشيء الذي جعلها مشيرة للصحف والمجلات الامريكية . كنت انزل من غرفتي بجمعية الشبان المسيحيين في شارع ٤٧ واقول للتاكسي « لو سمحت .. اريد ان اذهب الى ٣١٣ غرب شارع ٨٧ وبلا كلمة واحدة من سائق التاكس - ولا حتى هزة رأس - كان السائق ينقلنى الى منزل جمال » ..

ان صديقى جمال هو عذري .. لكى اتحدث عن دنيا كاملة .. دنيا اخرى تعيش داخله وحوله ..

فمن اللحظة الاولى التى تزور فيها جمال بشقته .. فى ذلك الجزء الهادىء من غرب شارع ٨٧ - فانك تحس فوراً انك تركت الدنيا التى اعتدتها خلفك .. ودخلت دنيا اخرى مختلفة تماما لقد تركت نيويورك .. بزحامها وضجيجها وضوضائها واختناقاتها - ودخلت دنيا اخرى - وما زالت موجودة فى نيويورك ايضا . انها ليست مجرد شقة عادية .. تلك التى يسكن فيها صديقى جمال . ان الشيء العادى فيها هو فقط باب الشقة الخارجى . انه باب .. مثل اى باب . ولكن بعد هذا الباب لن تجد فى الشقة اى باب آخر . لا أبواب .. لا حوائط .. لا عوازل .. لا نوافذ .. لا ستائر .. لا شيء مطلقا سوى مساحة مفتوحة . لقد افنى جمال كل الحجرات داخل الشقة ، فتحوّلت الشقة كلها الى مجرد حجرة كبيرة واسعة . فى داخل هذه الحجرة الواسعة لن تجد سوى لونين اثنين فقط .. الابيض والرمادى .. ان اللون الثالث داخل الشقة سوف يكون بشرتك ! ان فكرة صديقى جمال فى هذه الشقة مازالت هى نفسها كما نشرتها له مجلة « تايم » الامريكية .. « ان كل شخص محتاج الى ركن يتأمل فيه

.. فى هذا الركن يستطيع ان يفكر .. يتأمل .. يحلم .. ويتبع
قليلا عن زحام الحياة » .

هذه هى فكرة جمال فى شقته . انه يرى ان « .. المهندس
المعمارى .. يجب ان يؤمن بان كل انسان محتاج الى مثل هذا
المكان ، تماما مثل حاجته الى الطعام والشراب » ..

ولان جمال فنان يريد هو الآخر مكانا يتأمل فيه .. فقد بدا
بنفسه . لقد بدا بتحويل شقته هذه الى مكان ينزل فيه عن
الطبيعة ، عن الدنيا ، عن الزحام والضجيج الذى يطاردك فى كل
راكن من نيويورك . لقد امسك بقطع كبيرة من الخشب وبدا
يصنع ديكوره الجديد لهذه الشقة ..

ولكى تكون متأكدا فان الشقة ليس فيها اى ديكور على الاطلاق
.. انها مجرد مكان واسع .. بمنصة عالية فى الجانب الايمن
.. ومنصة منخفضة فى الجانب الايسر .. وركن فى اليمين ..
ومساحة بيضاء فى الشمال . ان المنصة العالية هى - بالنسبة
له - حجرة الرسم . المنصة المنخفضة هى حجرة الاستقبال .
الركن هو السرير . المساحة البيضاء هى بمثابة شاشة لعرض
الافلام .. بعد هذه المساحة - لا شئ ! لا شئ اكثر من مكان
خلف الشقة .. هو بمثابة مطبخ ، ومكان آخر هو بمثابة
التواليت هو الآخر مفتوح . لا حائط هناك .. ولا باب ...
ولا شئ على الاطلاق يعزلك عن باقى الذين يجلسون فى الشقة
.. لا شئ لا حواجز .. ولا اثاث . ان الشقة كلها ليس فيها
قطعة اثاث واحدة .. هذا هو تفكير جمال .. انه يرى ان
« .. الانسان هو الذى يتحرك .. اما الاثاث فيجب ان يكون
ثابتا » ..

هذه هى الشقة التى يعيش فيها صديقى جمال .. هذه
دنياه .. هذه مملكته .. لقد اختفت الحواجز من هذه الشقة
.. مثلما اختفت من حياة جمال نفسه .. ان جمال ليس لديه
حياة خاصة به . ان ما يخصه يخص كل انسان آخر . هكذا يريد
هو ان يعيش . ان الصداقة بالنسبة له ليست مجرد صداقة .
انها تحالف عسكرى .. انها اتحاد فيدرالى .. اتحاد مفتوح ..
تستطيع ان تدخله متى تشاء .. وتخرج منه متى تشاء .. اذا
تركت جمال .. فتستطيع ان تعود بعد سنة لتجد ان صداقته
لك مازالت موجودة هناك .. موجودة عند نفس النقطة التى
تركته فيها بالضبط .

لهذا السبب فأننى كنت اكتشف كل يوم ان جمال أهم من شقته
الفرصة . انه أهم ما فيها . انه امامى دائما في كل مرة اذهب
الى هناك : عريض الكتفين .. قوى البنية .. طويل الشعر
.. مستطيل الوجه .. غليظ الشفاه .. ضخم الأنف ..
بفتحتين واسعتين حساستين .. وعينين تشبهان ثقبين واسعين
محروقين في بطانية من الصوف !

انه امامى دائما في كل مرة .. بيده الممدودة .. وضحكته
المميزة .. وكلماته المتكررة .. ((أهلا أبو حنفي)) .. دا احنا
للنهاردة حنضحك ضحك .. !

نعم سوف نضحك الليلة كثيرا .. ربما لم احضر الى جمال
الا لكى اضحك .. هذه هي العملة الصعبة في نيويورك . ان
الناس امامى طوال النهار عاملون مرهقون جادون متعبون يتحركون
بسرعة ويرتاحون في هدوء ويبتسمون في ببطء .. أما جمال فانه
انسان آخر غير هؤلاء الذين كنت اقابلهم طوال اليوم .. انه ليس فقط
انسانا آخر .. وانما هو جنس آخر على كوكب آخر تماما . لهذا
كنت أشعر ان زيارة جمال هي الشيء الذى ينسينى تعب اليوم
كله . ان دنياه مختلفة عن دنيائى .. مختلفة كثيرا . اننى اموت
في نيويورك كل يوم مائة مرة .. ولكن جمال كان يعيش في كل
يوم الف مرة ! .. انه يدرس ويعمل ويعيش ويحب . ان الحب
بالنسبة لجمال هو الصداقة .. هو الناس . هو الزحام الذى
يصنعه الناس دائما في شقته كل يوم خميس . ان شقة جمال
كانت هي المكان الوحيد في نيويورك اذهب اليه بقميص مفتوح
وحذاء يلعب . اننى في الصباح اذهب الى الامم المتحدة يوميا
بخطاء يلعب - ضرورى - ولكن ليس بقميص مفتوح . ان القميص
يظل مفتوحا الى مسافة عشرة امتار فقط من مبنى الامم المتحدة
بعد هذه الامتار العشرة لابد ان اخرج ((الكرافتة)) من جيبي
واربطها في عنقي .. من هذه اللحظة فصاعدا .. سوف أسير ،
واتكلم ، وانا قش باحساس رجل محبكم عليه بالاعمام . ان
الكرافتة في رقبتى تعطينى دائما هذا الشعور . ولان شقة جمال
هي المكان الوحيد في نيويورك الذى اذهب اليه بغير كرافتة ..
فأننى ادخلها بشعور شخص اطلق سراحه حالا . شخص تحرر
من حبل المشنقة منذ دقيقة . ان القميص مفتوح . ولكن الحذاء
يلعب في هينا ضرورى لكى لا انسجام كل شيء يلعب
داخل الشقة ..

وفي كل مرة ادخل فيها شقة جمال مساء كل خميس .. فالتفتي
كنت دائما اجد فيها هذا الزحام : اناسا من كل لون وصنف
وجنس .. ناسا طوالا وقصارا وبين بين .. بنات وشبابا
وعراجز .. انهم جميعا مختلفون في اراءهم .. في ملابسهم ..
في امزجتهم .. ولكنهم جميعا فنانون ! انهم جميعا يحبون الفن
.. او يتعاطون الفن .. او يريدون ان يعيشوا حياتهم بفن !
انهم جميعا اصدقاء يعلمون ان باب الشقة مفتوح دائما كل يوم خميس
.. في يوم الخميس يتنازل جمال عن شقته ، عن دنياه لتصبح
شقة مفتوحة ودنيا مفتوحة . ان اى شخص يستطيع ان يحضر
مع اى شخص . وكل شخص يستطيع ان يفعل اى شيء دون ان
يلتفت اليك احد . انك تجلس او تقف او تنام او تضحك
او - حتى تبكى - او تشاهد الافلام السينمائية ، او تتناول
عشاءك ، او تشرب كاسك او تسمع موسيقاك .. دون ان يزعجك
احد .. انك تستطيع ان تفتح اى مناقشة وتقدم نفسك فى اى
مناقشة .. دون ان يزعج احد !

انها نماذج غريبة من الناس .. تلك التى كنت اجدتها دائما فى
شقة جمال كل يوم خميس .. ان معظمهم دخل هذه الشقة الان
دون ان يعرف الاخر . ولكنهم جميعا - بعد خمس دقائق فقط -
اصبحوا اصدقاء جيда .. تستطيع ان تلمس ذلك من نوع
المناقشات الضحكات ، النكات ، القفشات ، الاسئلة .

مرة تسألنى فتاة من الموجودات : قل لى لو سمحت .. كيف
تنظرون الى الجنس فى بلادكم .. فى مصر ؟ واحترت بماذا ارد .
لهذا قلت لها .. انت يا عزيزتى مازلت صغيرة على هذا السؤال
.. وانا مازلت صغيرا على الاجابة اقترح - لاغراض عملية ان
نبدا بما هو متوافر فعلا .. فتشرحن لى عمليسا وجهة النظر
الامريكية فى الموضوع !

وقبل ان اتم كلمائى جذبني من ذراعى رجل آخر - لا اعرفه
بعد - وقال لى : هل احضرت صديقتك معك الليلة ؟

وقلت له : لا .. هل احضرت انت زوجتك ؟!

- لا ..

وترددت لحظة ثم قلت له : هل اسستطيع ان اقترض منك
قلم حبر ؟

اجاب الرجل : بكل تأكيد ..

قلت : وورقة صغيرة ؟

اجاب : طبعا ..

قلت : شكرا .. هل اجد معك طابع بريد ؟

— يجوز ..

— هل تعطينى عنوان منزلك ؟

طبعا .. ولكن .. لماذا ؟

— ساكتب خطابا الى زوجتك مصرحا فيه بمواطنى نحوها ..!

وضحك الرجل من التكنة — طبعا هى تكنة ! — ثم قال لى
بلهجة جادة ..

— انت لا تعلم يا صديقى .. ان زوجتى تعبدنى .. فى الواقع
انها قالت لى الليلة اننى نموذج للزوج المثالى ! قلت مستنكرا ..
« نموذج » للزوج المثالى ؟ هل انت متأكد انها قالت لك ذلك ؟

اجاب الرجل بدهشة .. نعم ..

قلت له : هل انت تعرف معنى كلمة «نموذج» هذه فى القاموس؟

— لا ..

— هنا .. ان « نموذج » معناها لغويا شىء تقليد .. تقليد
صغير .. شىء اصلى حقيقى كبير ! ابحث عن اصلك اذن لا
وعندما تركت هذا الرجل مع ضحكاته — ما زلت لا أعرفه —
التفت نحوى سيدة متوسطة العمر وهى تسألنى : تصور ان جونى
يسألنى عن تاريخ ميلادى ؟! هل هذا — بدمتك — سؤال يوجهه
رجل الى امراة ؟ وقلت لها : لا بأس ... اذكرى له القرن الذى
ولدت فيه !

هكذا كانت تستمر ضحكاتنا كل ليلة .. اننا لم نكن نعرف بعضنا
قبل خمس دقائق .. ولكننا الآن نبدو كما لو كنا أصدقاء منذ خمس
سنوات الجميع يضحكون فى براءة ... يتناقشون .. يتكلمون
فى بساطة ..

ان جمال يحب البساطة فى دنياه هذه ، لهذا تنطبع البساطة على
كل من يدخل هذه الدنيا ان حياته مثل دنياه — مثل شقته — هى
مزيج من البساطة .. والخطوط المستقيمة .. والمساحات الواسعة ..
والألوان القليلة .. ان شخصية جمال هى مزيج من تلك الألوان
القليلة .. ولكن الحادة فى تناقضها .. ان خياله يخلق فى السماء

.. بينما قدماء تقفان على الارض .. ان قلبه يحبه دائما .. وعقله
عملى أبدا . انه مثالى فى آرائه .. وواقعى فى أعماله . ان احدى
عينيه تنظر للجمال فى السماء .. والعين الاخرى تبحث عن الجمال
فى السرير . ان احدى يديه ترسم لوحة .. والاخرى تتحسس
لوحة . ان أعصابه باردة للغاية .. بينما عواطفه ساخنة جدا .
انه يحب فى منزله كل شىء بسيط .. الديكور، الاضواء ، والناس .
انه فى هذه الشقة يريد الجمال .. ولكنه يريد الراحة قبل الجمال
.. الانسجام قبل الجمال . ان الالوان هادئة والضوء شاحب
والخطوط مستقيمة والصوت خافت . ان الابعاد فى تفكيره أيضا
منسجمة : بطيء .. ثابت .. عملى متحفظ .. مسالم .. ان الاصرار
هو أقوى صفاته والحب أقوى عواطفه والتفكير أكبر همومه والثقة
أصدق طباعه والطموح أبرز دوافعه والبساطة أحسن آماله والمرأة
أحب أهدافه ..

ان المرأة تستطيع ان تحصل من جمال على أى شىء بعد الساعة
السادسة مساء .. بعد أن يؤدى عمله جيدا . انها تحصل منه على
أى شىء .. وهو يعطيها كل شىء .. مادامت ستصل معه الى السرير
بعد خمس دقائق .. أو بعد سنة ! لاشىء فى هذا العالم يستطيع أن
يمنع جمال من ذلك سوى عمل أمامه .. أو صديق بجانبه . ومع
ذلك فان جمال مستعد لاقتسام كل شىء مع صديقه . كل شىء ..
ابتداء من طعامه وشقيقته حتى .. فتاته ! نعم .. انه يقتسم معك
فتاته بنفس المنطق الذى يقتسم به معك آخر كسرة خبز ! ان بعض
الناس لا يوافق قطعا على ذلك .. يوافق على اقتسام كل شىء - كل
شىء حقا - مع صديقه .. ولكن جمال يفعل ذلك .. انه يفعل
- ويستطيع - لانه لا يهتم بالناس .. يهتم فقط بأصدقائه من بين
الناس . ان جمال فى هذا - وفى أشياء أخرى كثيرة - مختلف عن
الناس ..

× × ×

ان جمال هو آخر مهاجر رأيت فى نيويورك قبل عودتى الى القاهرة
.. فى الواقع أن جمال هو واحد من ثلاثة أشخاص جعلونى أرى
نيويورك بعض الوقت كشىء أكثر قليلا من وجود ناطحات السحاب ..
ومبان عالية .. وشوارع مزدحمة . ان الشخص الثانى لا يربطه
بجمال سوى مجرد الابتسامة .. فكلاهما يبتسم دائما .. وكلاهما
له النظرة الساخرة للحياة دائما . أما بعد هذا السطر فالشخصان

يختلفان في كل شيء في العمل .. والنظرة الى الحياة .. وأسلوب التفكير ..

إذا كان جمال بوهيميا في حياته .. فان الشخص الثاني هو العكس مطلقا .

إذا كان جمال تربطه بنيويورك علاقة دائمة كمهاجر .. فان الثاني تربطه بها علاقة مؤقتة كضيف .. إذا كان جمال فنان يعمل مهندسا .. فالثاني فنان يعمل دبلوماسيا .. إذا كان الاول ينظر للحياة بآلف عين .. فان الثاني ينظر لها بعين واحدة .. فالعين الاخرى ثابتة حيث توجد زوجته الرقيقة المهدبة .

ان هذا الصديق الثاني اسمه : ابراهيم شكر الله . دبلوماسي مصري عمل في نيويورك مديرا مؤقتا لمكتب الجامعة العربية بها .. هذان هما اول شخصين اضافا الى نيويورك في خيالي لمحبة انسانية . ولكن .. مازال هناك شخص ثالث احببت نيويورك من خلاله . شخص .. ربما قلت منى متنكرا في بعض صفحات هذا الكتاب .. ولكن اسمه لن يفلت منى الان ..

الى هؤلاء اهدى كل الصفحات السابقة .. صفحات لها عنوان عصرى : مصرى .. بمليون دولار .. ثم لها عنوان آخر غير عصرى : « الدفع المتين .. في شرح احوال المساكين .. من المصريين .. الذين يعيشون في بلاد الافرنج والامريكيين .. »

فهرس الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة
٧	الفصل الاول : بدأت حينى فى سن الخمسين ...
	الفصل الثانى : العرب فى كندا
٢٧	المليونير والموظف والنصف نصف ...
	الفصل الثالث : نظرة على المجتمع الكندى
٤٣	يحدث فى كندا فقط
	الفصل الرابع : المصريون فى كندا :
٦١	امراة بعد منتصف الليل
٧٧	الفصل الخامس : صبى يقال بالدكتوراه
٩١	الفصل السادس : عروس لكل عشرة رجال
١١١	الفصل السابع : صباح الخير فى امريكا
	الفصل الثامن : نظرة على المجتمع الامريكى
١٤١	مستر امريكا ! !
	الفصل التاسع : مع المصريين فى امريكا
١٧٧	المعلم سكر .. مهاجر رغم انفه ...
	الفصل العاشر : العرب فى امريكا
١٩٧	مليون مع وقف التنفيذ
	الفصل الحادى عشر : عودة الى المصريين فى امريكا ..
٢١٣	فنان بلا ابواب !

الطيران العربية المتحدة

ترحب بكم على أحدث مطاراتها

بوينج ٧٠٧

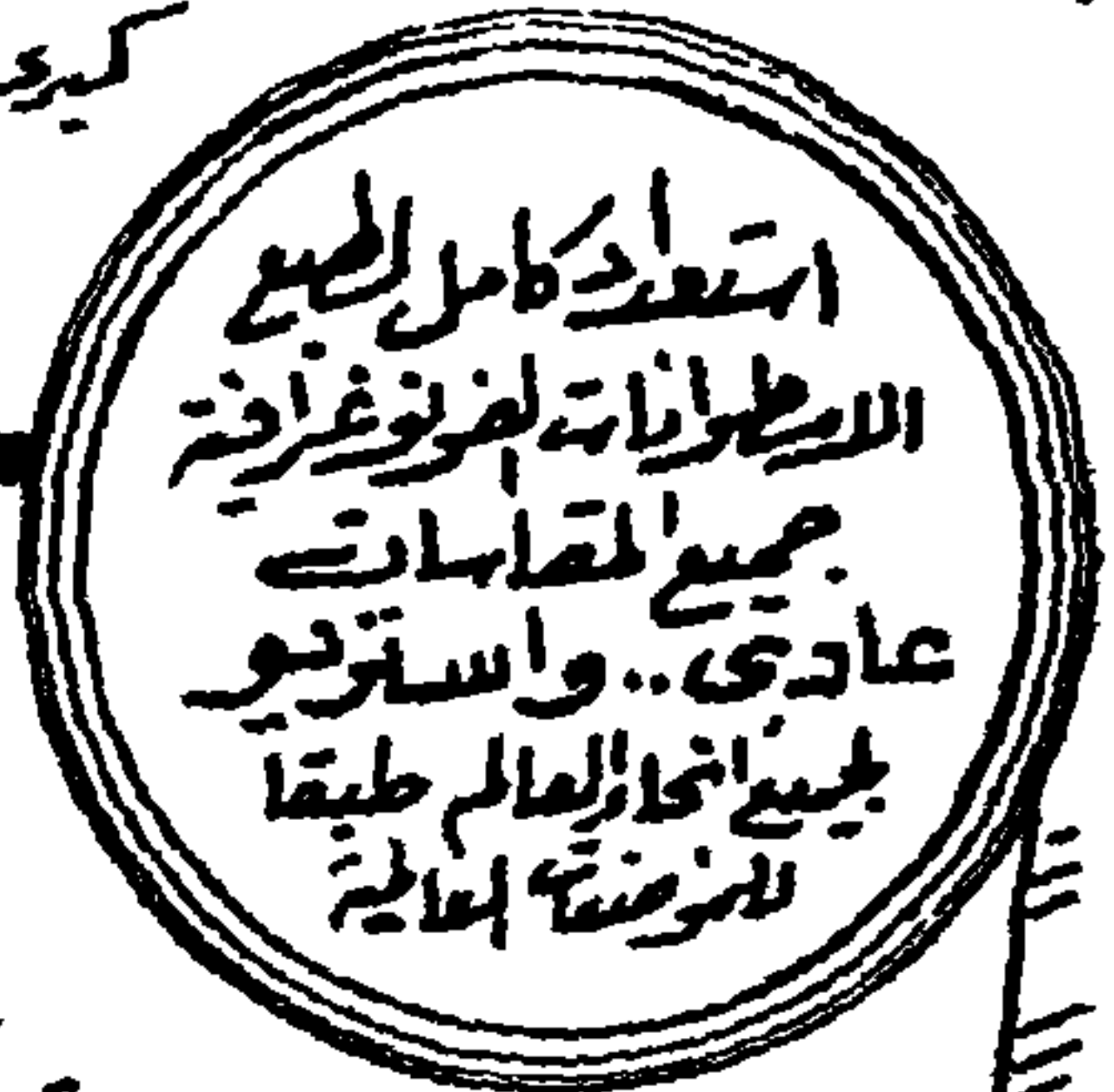


شركة اسطوانات صوت القاهرة تقدم من روائع سفيرة الفن العربى أم كلثوم

- | | |
|------------------|------------------|
| ● للصبر حدود | ● مرت الايام |
| ● اقولك ايه | ● الف ليلة وليلة |
| ● اغانى رابعة | ● هذه ليلى |
| ● امل حياتى | ● فات الميعاد |
| ● بعيد عنك | ● حديث الروح |
| ● اروح لمن | ● هجرتك |
| ● عودت عينى | ● حب ايه |
| ● يا ظالمى | ● مش ممكن ابدا |
| ● ذكريات | ● حيرت قلبى |
| ● الاطلال | ● لا يا حبيبى |
| ● فكرونى | ● حسيبك للزمن |
| ● انت الحب | ● ظلمنا الحب |
| ● رباعيات الخيام | ● سيرة الحب |
| ● اراك عصى السمع | ● انت الحب |
| | ● بتفكر فى مين |

شركة إيطوانات صوت القاهرة

كبرى شركات الإطوانات والجرامفون
في الشرق الأوسط



تقوم الشركة بإنتاج أجهزة
البلاك آب والجرامفون
عادي - لوكس - أوتوماتيك
استديو فونيكس

استوديوهات مجزأة بأحدث الأجهزة العالمية للتسجيل
العادي والستريو - على استعداد لعمل التسجيلات
للأفراد والبرقيات والموسيقى والشركات راقول وفلاش الجيتار
جيزة عالمية في إنتاج البرامج الإذاعية لمختلف الإذاعات العربية
والأجنبية

فروع
الشركة
١ * ساحة كنوتسفال بميدان مارسي - القاهرة
٢ * شارع البورصة الجديدة - القاهرة
٣ * شارع كلية الطب بجوار سينما الإمبراطور

وكلاء شركة الجيزة الشركة المصرية للمعدات الكهربائية
العربية المتحدة

● لبنان : قطان اخوان شارع بناءة الجوزى بناية طراز بيروت
● سوريا : محمد فاضل بناية بناية إصطلاحية ص.ب ٢٨٢٣ دمشق
● الكويت : محمد خالد بن محمد السويدي ص.ب ١٥٦ الكويت
● العراق : محمد علي محمد علي شارع الرشيد ص.ب ١١٠١٦ بغداد
● باكستان : محمد علي محمد علي شارع الرشيد ص.ب ١١٠١٦ بغداد

الإدارة العامة : ١٨ شارع البورصة بالتوفيقية
ت. ٧٧.٥٠ / ٧٧.٥٠ - ص.ب ٢٠١٧ القاهرة



كليوباترا

الخبرة العربية + أجود
الأدقنة العالمية



إنتاج: الشركة الشرقية "إيسترن كومباني" بالجيزة

إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية

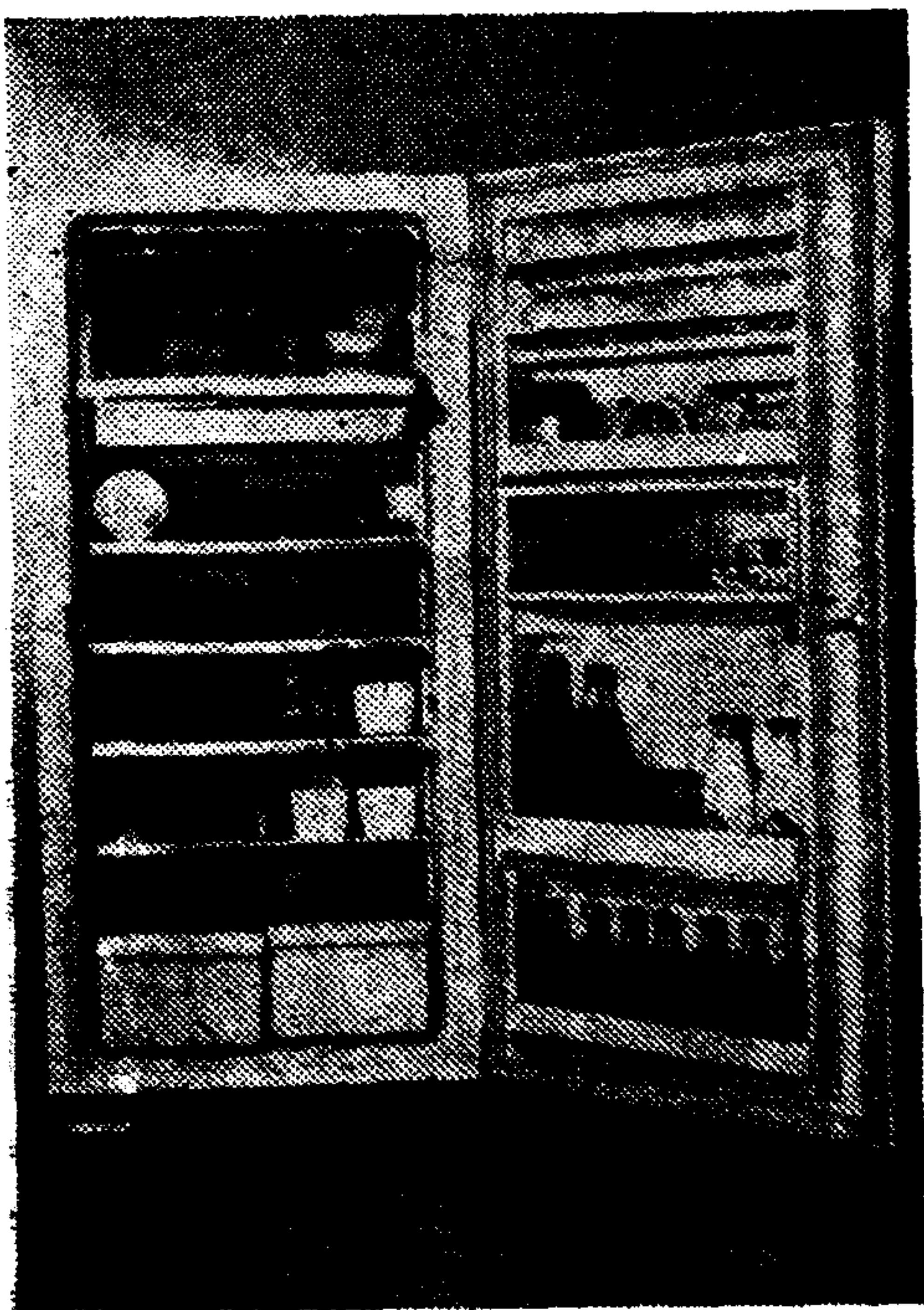
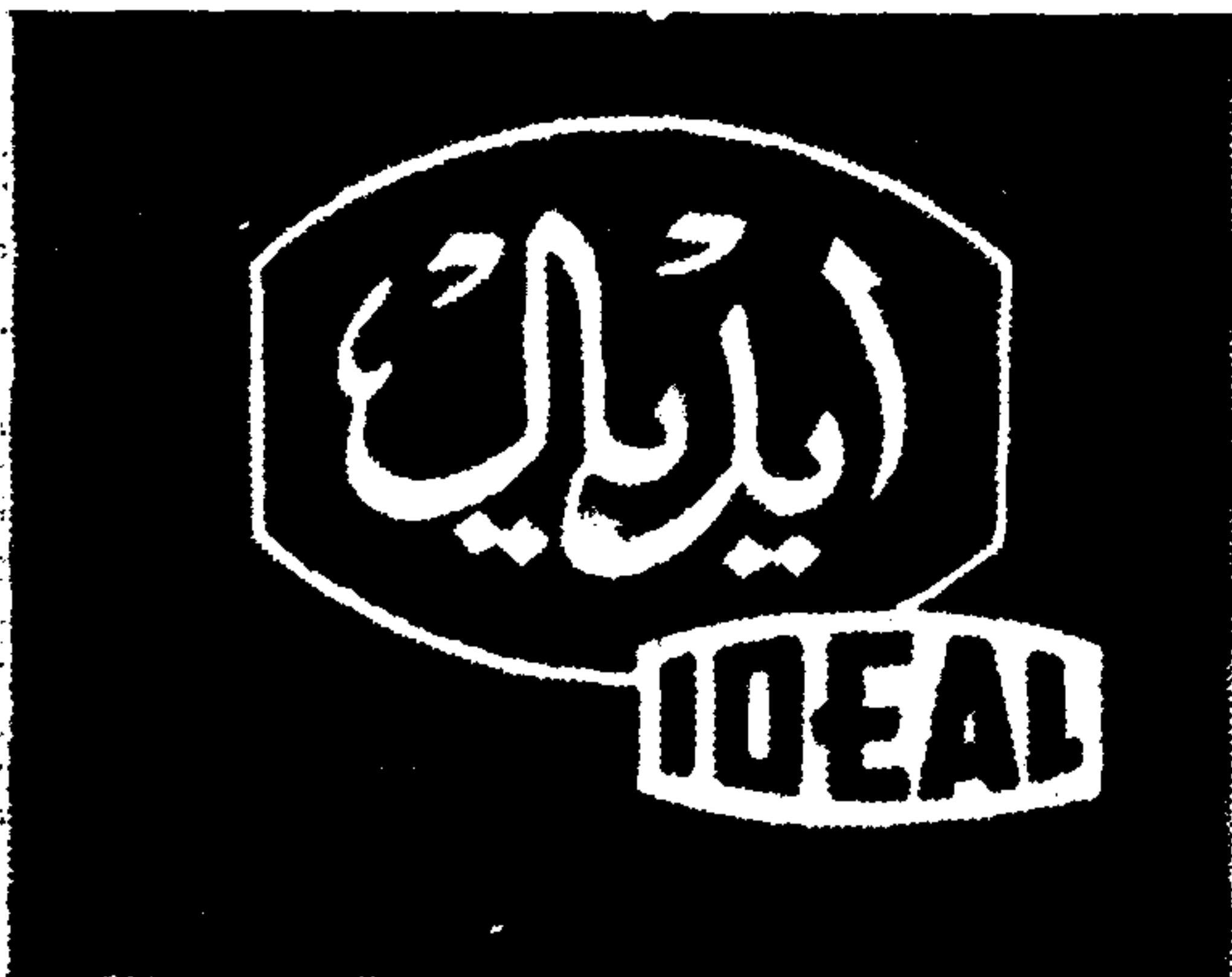


طفلك ياسيدتى لن يرضى بغير منتجات بسكو مصر !

أرا بيسكو

الشركة المصرية للأغذية (بسكو مصر)

أجمل الثلاجات الكهربائية تحمل اسم



بالنفد والتفسيط
١٠ و ٨ و ٦ قدم

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

هذا الكتاب

● ● المصري يبحث عن العلم
والسوري يبحث عن الشهرة
واللبناني عن المال . المصري مثقف
والسوري مجادل واللبناني متعصب .
المصري مطيع والسوري متهمد على
السلطة واللبناني ثائر ضدها .
المصري فنوع والسوري متطلع
واللبناني مجازف . المصري موظف
غالبا والسوري تاجر أحيانا واللبناني
تاجر دائما . المصري يحافظ عادة
والسوري مفامر نادرا واللبناني
مفامر أبدا . فتكون النتيجة هي :

اللبناني يفشل أحيانا وينجح غالبا
والسوري ينجح أحيانا ويفشل نادرا
والمصري يعيش .. يعيش فقط .
● ● و ... هذه أول نتيجة

خرج بها الكاتب الصحفي محمود عوض
بعد أن تأمل في حياة مليون و ٨١ ألف
مهاجر مصري وسوري ولبناني
يعيشون في كندا وأمريكا .

● ● ان المؤلف سافر الى كندا
وأمريكا لمدة أربعة أشهر .. وخرج
في النهاية بهذا الكتاب - أول كتاب
يتناول بصراحة حياة المصريين
المهاجرين هناك : هل نجحوا .. هل
فشلوا .. ولماذا ؟

● ● لقد رأى في كندا وأمريكا
مئات من المصريين المهاجرين وناقشهم
وحلل قصص نجاحهم أو فشلهم
وناقش مدى تفهمهم مع تلك المجتمعات
الجديدة عليهم .. ابتداء من أول
مصري أصبح نصف مليونير .. الى
أول مصري يطلق زوجته هناك !

● ● انه كتاب .. سوف ينفذ
من السوق مثلما نفذ الكتاب السابق
للمؤلف مرتين : « أم كلثوم التي
لا يعرفها أحد » !



محمود عوض